د. إيمان يحيى

قَبلَ النكسَة بيوم

رواية

دار الشروق

ضياء
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمَّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

t.me/twinkling4

«ركلته في جنبه. ركلته مرةً أخرى بقوة أشد. ركلته الثالثة بعنف، وجن جنوني فانهلت عليه بطرف الحذاء في شتى أطرافه حتى أفرغت غضبي وهياجي. تراجعت إلى السياج، وأنا أترنح من الإعياء مرددًا: «لقد قضيت عليه». كنت أتنفس بصعوبة وأشعر بتقزز، وسيطر عليَّ إحساس مضنٍ بأنني مجنون يمارس حركات جنونية عنيفة تضيع في الظلام».

منصور باهي

ما قولكم؟.. أتريدون رأيي صراحة؟ أدركت بالغريزة أنني ممثل الثورة، مع احتمال مشاركة منصور في ذلك. وانهال الثناء وتبادلنا الأنخاب. ولمحت زُهرة فقلت لنفسي: إنها ممثلة الثورة الأولى، وتذكرت كيف دعت لها أمامي، وكيف لفحني صدق الدعاء وحماسه البريء. تُرى أيرتاب منصور باهي في صِدقي؟ يا صاحبي إني بطبعي عدو أعداء الثورة، ألا تفهم؟ وإني من الموعودين ببركاتها، ألا تفهم؟

سرحان البحيري

من رواية «ميرامار» للأديب الكبير «نجيب محفوظ»، التي بدأ نشرها في جريدة «الأهرام» في ٩ سبتمبر عام ١٩٦٦.

١

اليوم يوم جمعة، وكما كانت تقول والدتي منذ نصف قرن: «في هذا اليوم تأتي ساعة نحس»! كان يوم الغسيل، وتنظيف البيت، وتشميس المراتب، واللَّف بالمبخرة في أرجاء البيت. لكن أي بيت؟!

كان بيتنا مجرد حجرتين على سطح عمارة من العمارات القديمة في شارع «قصر النيل»، في البدء كان حجرةً واحدةً، ثم بجبجها ورثة صاحب البيت علينا بحجرة ثانية. الحجرتان من ضمن حجرات الغسيل التي تمتلك منها كل شقة في العمارة غرفة واحدة. أبواب الغُرف مفتوحة على السطوح؛ حيث هناك دورة مياه واحدة لجميع الغرف. بعد قوانين تخفيض الإيجارات المتوالية، وظهور الغسالات الكهربائية العادية، لم تعد هناك ضرورة لاستخدام السكان لتلك الغُرف. فقام أصحاب العمارة بتأجيرها للنازحين، والفقراء، والباحثين عن مكان عمل في وسط البلد.

ما الذي يُذكِّرني - اليوم - بالماضي؟! اللهم اجعله خيرًا!

أنا ابنة حارس العقار، جاء من النوبة واستوطن القاهرة. تضم عائلته ثلاثة أبناء، وزوجة.

«العين بصيرة والإيد قصيرة»، هكذا كان تلخيص حالنا. أحدثت مجانية التعليم والثورة تغييرًا في حياتنا. نِلْتُ مع أشقائي قدرًا لا بأس به من التعليم، وحصلت على الدبلوم. ساعدني دبلوم التجارة في الحصول على وظيفة

سكرتيرة، تضرب على آلة طابعة في إحدى شركات التجارة الخارجية القريبة من بيتي. وآه عندما ينفتح شباك الأمل أمام عينيك، وآه من الطموح الذي لا يرتوي. شعارات الثورة في كل مكان معلقة على عواميد النور، ومكتوبة على الجدران. «العمل حق».. «العمل واجب».. «العمل شرف». انتسبتُ لمعهد الخدمة الاجتماعية بالسبتية، وهناك فوجئت ذات يوم بزميلة تقترب مني، وتهمِس:

- مبروك يا كريمة، تم ترشيحكِ لدخول منظمة الشباب الاشتراكي!

- لكني لم أطلُب!

- همَّ اللي بيختاروا، لا أحد يقدم طلبات.

كنت قد سمعت عن تكوين «المنظمة». نعم، سمعت عن «المنظمة»؛ فلم يكن قد تم الإعلان عنها. وكنت أشعر في نفس الوقت بأنني من شباب الثورة الصاعد.. الآن تذكرت كيف كان والدي يضيف متهكمًا على الجملة الأخيرة كلمتين، فتصبح «شباب الثورة الصاعد على المواسير». كان أبي «عم إدريس» كما يطلق عليه سكان العمارة، يتهكم بمرارة. ورغم كل مكاسب الثورة التي حازها أولاده، كان متحفظًا تجاه حكومة «عبد الناصر». شيء لم أكن أفهمه آنذاك رغم محاولاته لتفسيره.

- هجرونا يا بِنت مرَّات كتيرة؛ مرات أيام الملك وجدوده، ومرة أيام عبد الناصر من تلات سنين. أغرقوا

أراضينا وقرانا، فبقينا بوابين وخدامين لهم. بقى لهم ستين سنة بيهجّرونا!

- لكن أولادك اتعلموا بفضل الثورة.

- وإيش يفيد التعليم مع الذُّل وكسرِة النفس يا فالحة؟

عندما علم بانضمامي للمنظمة، لم يبدِ حماسًا. بل قال:

- على الله ما يشغلوكِ جاسوسة على زمايلك!

ذهب إلى مقر «الاتحاد الاشتراكي» بنفسه؛ ليسأل عن تلك المنظمة التي تعمل سِرًا، ودون إشهار. وعندما طمأنوه على وجودها، ضرب كفًا بكف. تعجّب من تنظيم يتبع «عبد الناصر»، ويعمل سِرًا! ظل مُتشكّكًا، يعايرني بعضويتها:

- مالنا ومال الحُكام يا كريمة؟! دُول بيعملوا عصابات سِرية ضد بعض!

عندما أذكر لأحفادي أننا كنا نسكن في وسط البلد، وتحديدًا شارع «قصر النيل»، فإنهم لا يُصدِّقون ويشهقون. لا تتسع مخيلتهم لوجود فقراء هناك، يسكنون فوق أسطح العمارات والبيوت. ثروتي التي جمعتها من الدُّنيا: ابنان وبنت واحدة وأربعة أحفاد وحفيدتان. ابني البِكري مات في حرب الكويت، كان قد تخرج حديثًا مهندسًا، واستُدعيَ للخدمة العسكرية. لم نلحق أنا، ووالده، وإخوته أن نفرح بتخرجه. مات في حربٍ بين عربٍ وعربٍ! كاد

أبوه أن يُجن بسبب تلك المصيبة التي حلَّت بنا. انكسر صوته الجهوري الواثق، وأصبحنا نسمعه بصعوبة. يهمس زوجي «زكي» محسورًا:

- لو استشهد في حرب مع إسرائيل، ما كنتش انقهرت زي القهرة دي. أنا خدمت في حرب ٦٧ وشفت الهزيمة بعيني، لكن ما استسلمناش، واتغلّبنا على صدمتنا. يا قهرتي عليك يا ابني!

لم يُنجِنا من الغرق في حسرتنا - أنا و«زكي» - على استشهاد الولد، سوى فرحنا بولادة «أحمد» ابنه. كانت أمه حاملًا في أشهرها الأولى، عندما مات أبوه. ولكن إلى متى تظل أمٌّ شابة في بداية عشرينياتها عزباء؟ بعد ثلاثة أعوام تزوجت الأم برجل آخر، وتركت راضيةً «أحمد» ليعيش معنا.

ذهب الأولاد والبنات، كلٌّ إلى حياته الخاصة. بقيَ معنا «أحمد»، صار العصا التي نتوكأ عليها في الحياة. أصبح ذكرى طيبة لابن بِكر، رحل قبل تفتحه للحياة. وعندما رحل «زكي» الذي أنهكه المرض في سنواته الأخيرة، لم يبقَ في الشقة معي سوى «أحمد». يزورني الأولاد والبنات، والأحفاد بين كل حين وآخر. أسكن بالحي السادس بمدينة نصر، بينما توزعوا جميعًا مع أُسرِهم في أحياء القاهرة والجيزة المختلفة، والبعيدة في آن واحد. القاهرة غولٌ كبير يلتهم الناس، والوقت، والأقارب، وأنا موظفةٌ تقاعدت منذ سنوات قليلة. لم يبقَ لي سوى الحفيد

والذكريات أعيش معهما وبهما.

حفيدي «أحمد» الذي يعيش معي في حي مدينة نصر، والذي دخل هذه السنة كلية الهندسة مثل أبيه المرحوم، يقضي ثلاثة أرباع وقته في البيت أمام شاشة الكمبيوتر. في الأيام الأخيرة لاحظت أنه يدخل معي في مناقشات سياسية حامية، ذكرتني بأيامي في منظمة الشباب. فاجأني بقوله منذ شهر:

- عاوز يورِّث البلد لابنه جمال، ده الملك فاروق انخلع وما عرفش يورثها لابنه!

كنت أجادله بدوري:

- ومين اللي قالك إن اللي قلبوا فاروق ما ورثوهاش بعد كده لبعض؟!

- بس يا سِتي، ما ورثوهاش لولادهم!

- ما تفرقش يا أحمد، إحنا بنتورَّث من أيام الفراعنة.

يصمُت، ويبدو على وجهه تفكير عميق لا يليق بعمره، ثم يُنهي حوارنا قائلًا:

- صحيح يا سِتي، إنتِ سياسية عُقر زي ما كان بيقول جدي!

ظل زوجي «زكي» طوال حياتنا المشتركة يعايرني بماضٍ سياسي، وحماس أيام شباب آمن بالثورة والاشتراكية. هل كان يعاتبني على هذا الماضي، أم أنه كان ينتقم من

حب قديم جمعني و«حمزة»؟ بعد زواجنا، لم يكن صعبًا أن يعرف كيف رفض «إدريس» زواجي بـ«حمزة النادي». «زكي» ابن عمي الذي ظل بالنوبة. عمي ترك قريتنا غارقة، وهاجر إلى شمال السد العالي. استطاع ابنه «زكي» أن يشق طريقه في التعليم، ويهاجر إلى القاهرة ليدخل جامعتها.

كان، وما زال صعبًا الزواج المختلط للنوبيين مع غيرهم. وإذا كان زواج النوبي بغير نوبية أمرًا مكروهًا، فزواج نوبية بغير جلدتها يكاد أن يكون في دائرة المحرمات. هل هي تقاليد بالية، أم محاولة للحفاظ على بقاء ونقاء أقلية مهددة بالذوبان في مجتمع كبير يعج بعشرات الملايين؟ رفض أبي «حمزة»، عندما تقدم إليَّ رغم معارضة والديه الشرسة. كان قد استطاع بصعوبة بالغة أن يقنعهما بزواج ابنهما؛ ابن الطبقة المتوسطة بابنة بواب بسيط. كانت شعارات المساواة والاشتراكية تحاول اختراق مسام مجتمع طبقي يصبو إلى التحرُّر. لكن هزيمة الطبقة الوسطى المتمثلة في والديْ «حمزة»، لم يُقابِلها انتصار على ثوابت قرى النوبة التي غرقت أراضيها، ولم تتزحزح عن تقاليدها.

عندما تقدم ابن عمي «زكي» لخطبتي بعد النكسة بعامين، كنت في السنة الرابعة من دراستي بالمعهد. اشترطت عليه أن أُكمل تعليمي، وأواصِل العمل. وافق رغم معارضة أهله. كان مجندًا ضمن ضباط الاحتياط بالجيش بعد إنهائه كلية التجارة. شارك لعامين في «حرب اليمن» ضمن القوات المصرية هناك لدعم ثورة «السلال». وعندما

حدثت النكسة، عاد إلى مصر مع وِحدتِه؛ ليأخذ موقعه على شاطيء القناة. أصرَّ على الزواج بعد شهرين من الخطبة، لم تمنع حرب الاستنزاف، ونزيف الدم، وضيق ذات اليدِ، الأهلَ من إتمام الزفاف. أدرك أبي أن مشروع زواجي من غير نوبي قد يتكرر، وأنا ما زِلتُ أُعلن تمردي على محيطي بين حين وآخر. مواصلة الدراسة الجامعية، ونشاط سياسي متراجع في منظمة الشباب والاتحاد الاشتراكي كانا مصدر قلق لوالدي وأسرته. أبطل رجوع زكي من «اليمن» كل ممانعات أبي لأخيه. كانت حرب «اليمن» كابوسًا لوالدي تمنعه من التفكير في زواجي بابن شقيقه!

تطل شرفة منزلي الآن على مشهد جبل «المقطم» من ناحية «مدينة نصر». صباح الشتاء منعش، و«أحمد» قد استيقظ مبكرًا على غير عادته يوم الجمعة؛ موعد إجازته من الجامعة. بدا لي متوترًا، ينتقل من أمام شاشة الكمبيوتر إلى جوار التلفون المنزلي ليرفع سماعته، ثم يتركها في إحباط. يرقد على سريره، ويلعب في أزرار تلفونه المحمول، ثم يرميه على الفراش. كنت أُعِد الإفطار حين جاء ووقف بباب المطبخ ثائرًا:

ـ عاجبك كده؟ أهُم قطعوا التلفونات والنِّت والمحمول! فاكرين إنهم هيمنعونا من النزول.

في الأيام الأخيرة، كان البلد يغلي من تزوير انتخابات البرلمان، ومن مبارك وابنه. كان «أحمد» يسألني، ويستعيد

ذاكرتي مستفسرًا عن مظاهرات عام ١٩٦٨. كم كان يسيرًا عليَّ أن أشعر باهتمام «أحمد» المتزايد بالسياسة؟ «يموت الزمار وصباعه بيلعب». تجربتي العميقة والمحدودة زمنيًّا في أواسط الستينيات، جعلتني أُدرِك ما يعتري «أحمد» من مشاعر وأفكار. لم أقاوم ميوله الفائرة، فمن المستحيل أن تُحوِّل مجرى النهر في عنفوانه، الأفضل أن تجاريه حتى يهدأ ويصبح طوعك. ألم يُحوِّلوا مجرى النيل العظيم في شهر يناير؟ لم يلووا ذِراعه في أشهر الفيضان. جاءتني حكمة الحياة رويدًا رويدًا مع انزياح حماس الشباب ورعونته.

راقبت «أحمد»، وهو يزدرد لقيمات الفول المدمس باستعجال وغضب. أعرف ما ينتويه. سيخرج من المنزل بعد ساعة أو ساعتين؛ للاشتراك في المظاهرات المزمع خروجها من المساجد لتتوجه إلى ميدان «التحرير». كنت أشاهد الفضائيات، وأستمع إلى إذاعة لندن، وأسترق النظر إلى صفحته في الفيسبوك. لست لاهية عما يحدث. لكن كيف سأتصرف مع شاب صغير فقد أباه قبل أن يرى النور؟ ابتعدت عنه أمه بسبب زواج آخر، وأطفال أنجبتهم من رجل غير أبيه. يكاد «أحمد» أن يكون نسخة أصلية من ابني المرحوم. السُّمرة نفسُها، وكلتا العينين، وسحنة الوجه المسحوبة بحدة التي تنتهي بخاتم حسن في الذقن. جاء صوته ليوقظني من التفكير:

- سِتِّي، أنا هانزل أصلي الجمعة في رابعة، ومن هناك

هروح وسط البلد أشوف اللي بيجرى فيه وأرجع.

احترت في الرد عليه. أخشى من إغضابه، وأخاف عليه من العواقب!

- شوف يا أحمد، أنا مش همنعك. رِجلي على رجلك، هروح معاك مطرح ما تروح.

- يعني هتنزلي معانا المظاهرة؟

- أيوه.

اتسعت حدقتا عينيه غير مصدقٍ ما قلته. كنت قد وصلت إلى قرار. لن أمنعه وليس في مقدور عجوز مثلي أن تقف في طريقه، ولكن سأصحبه حتى يكون أمام ناظريْ ولا يتهور. صمَتَ لدقائق معدودة، ثم رأيت ابتهاجًا عفويًّا يُطِلّ من عينيه. صاح بنبرة فرح:

- أنا الوحيد اللي من أصحابي اللي هتبقى جِدِّته معاه بتتظاهر! دي هتبقى حكاية بجد.

توقف برهة عن صياحه، وأضاف هازًّا رأسه ومنغِّمًا كلماته:

- يا كريمة، يا ثورجية!

- اختشِ يا واد، ولِم نفسك. بس ليَّ شرط واحد، هننزل وسط البلد نتظاهر هناك. إنت عارف إني كبيرة في السن، ولن أقدر على المشي من مدينة نصر إلى وسط البلد!

ـ بس يا سِتي، أنا وعدت أصحابي أتقابل معاهم.

ـ نتقابل معاهم هناك.

بدأت قراءة القرآن من الإذاعة استعدادًا لبث صلاة الجمعة. خرجنا، واستقللنا أتوبيسًا إلى ميدان «التحرير». فوجئنا بأن وسط «القاهرة» مغلق تمامًا، فأنزل السائق الركاب أمام مستشفى «الجلاء للولادة». بانت الدهشة والإحباط على وجه «أحمد»:

ـ شُفتِ يا سِتي، ما فيش حد هيقدر يوصل هنا. يا ريت كنا رحنا جامع رابعة.

لم أجِبه، أو أعِره اهتمامًا. أمسكت بذراعه، وسِرتُ به مخترقة شوارع وحواري وسط البلد التي أعرفها كخطوط راحة يدي. كانت عربات البوليس وصفوف جنود الأمن المركزي تَسُد شارع «رمسيس»، والشوارع الرئيسية حول نقابتي الصحفيين والمحامين ونادي القضاة. من بعيد بدا ميدان «عبد المنعم رياض» المتصل بميدان «التحرير» مقفرًا من الناس، وخوذ معدنية لامعة تعكس أشعة الشمس فتبدو كسراب في صحراء. اخترقت شارع «معروف»، المحال والمقاهي مغلقة. لا أحد في الشارع سوى أفراد نادرين. عبرنا شارع «شامبليون»، وسِرنا في حوارٍ ضيقة حتى وصلنا إلى شارع «قصر النيل». الشارع شبه خالٍ، و«أحمد» يكاد ينفجر من الغيظ. أشرت بسبابتي إلى عمارة قديمة صبغوا واجهتها باللونين البني

والبيج، فبدت أُبهة القاهرة الخديوية بكل جمالها.

قلت:

ـ هنا كنت أعيش مع أبي وإخوتي عندما كنت في نفس عمرك.

بدت عليه الدهشة، وفتح فمه مستغرِبًا ما قلت. جاء رد فعله، كما توقعت:

ـ معقول تكونوا عِشتم في العمارة دي «وِسط البلد»، وتسيبوها وتروحوا تسكنوا في مساكن شبه شعبية في «مدينة نصر»!

ـ كنا عايشين فيها بس على السطح يا أحمد. أبو جدتك كان بواب عليها، وساكن في أوضتين فوقها.

من المؤكد أن «أحمد» يعرف أن جدته وجده نشآ في عائلة متواضعة المستوى الاقتصادي. لكنه بدا مصدومًا، وهو يقف أمام العمارة. ربما كانت أول مرة يراها! أخذتُه من يده، وصعدنا لنستقل المصعد. تمتم قائلًا:

ـ رايحة فين؟ إحنا اتفقنا نبقى في الشارع ونتظاهر!

ـ وأنا ما رجعتش في كلامي، هننزل بعد ما تخلص الخُطبة ويأدنوا للصلاة.

فوق السطوح كانت أبواب أغلب الغرف مفتوحة، وصِبية يتقافزون ببيجاماتهم هنا وهناك. طُشُوت الغسيل متناثرة، ونساء يجلسن أمامها. بينما دارت غسالتان

كهربائيتان لتصدرا صوتًا مزعجًا. اقتربت من إحدى الغرف وناديت: «يا اللي هنا». خرجت امرأة متوسطة العمر ترتدي قميصًا للنوم بفتحة واسعة على الصدر. عندما رأت «أحمد»، ارتدت مسرعة لتغطي رأسها وذراعيها بحجاب رمادي كالح. دققت في ملامحي، ثم رحبت غير مصدقة:

ـ مين؟ سِت كريمة! يا أهلًا وسهلًا، خطوة عزيزة.

كنّا قد تركنا الغرفتين عندما عجز أبي «إدريس» عن العمل، وتفرق الإخوة والأخوات في أعمالهم، بعد أن نالوا قِسطا متواضِعًا من التعليم. أعطينا مسكننا القديم لقادم جديد من أرض النوبة، أضناه شظف العيش وقلة الرزق في قريتنا الأصلية، بينما النيل يجري عفيًّا محملًا بالخيرات لأهل الشمال.

لم تفارق الدهشة وجه حفيدي طوال جلوسنا مع تلك المرأة. الأطفال يحْبون، ويجرون، ويصرخون حولنا، ككتاكيت تدور بلا نهاية ولا كلل. بعد السؤال على الأقارب والمعارف، أوضحتُ لها أنني كنت أمر بجانب البيت، فقررت أن أزوره وأنال بركة ذكراه. ضحِكتْ واستغربت:

ـ هو إنتم ما لقيتوش وقت غير النهارده عشان تيجوا فيه؟ الدنيا متلبِّشة تحت، وباين عليه يوم مش فايت!

وافقتها، معللة حضوري بعدم إدراكي خطورة الموقف.

شربنا الشاي، ونزلنا قبيل انتهاء الركعة الثانية من صلاة الجمعة. في المصعد اتفقت مع «أحمد» على أن يُلازِمني، وألا أغيب عن عينيه. أخبرته بأن يذهب إلى منزلنا في «مدينة نصر» إذا تُهنا وافترقنا لأي سبب. تأكدت أن بحوزته من النقود ما يكفي.

لف صمتٌ عميق الشارع. صمتٌ استمر لدقيقتين، بعد أن سمعنا عبر مكبرات الصوت تسليمتي الإمام والمصلين. وفجأة دوى صوت جهوري خشن لرجل:

- يسقُط، يسقُط حسني مبارك.

الشارع يبدو خاليًا، وأحمد يعتريه قلق وشوق جارف للبحث عن المتظاهرين. بدأت أصوات بعيدة تصل إلى آذاننا من ناحية ميدان «طلعت حرب». اقتربنا من الميدان، وإذا بقوة كبيرة من جنود الأمن المركزي تحتل جانبه، وتواجه مائة أو مائتين من المتظاهرين يهتفون أمام جامع «الرحمة» في شارع «صبري أبو علم». حاول «أحمد» أن يتقدم عبر الميدان إلى الجانب الآخر؛ جانب المتظاهرين، لكنه أدرك استحالة ذلك، فارتد معي إلى شارع «طلعت حرب». وهناك أبصرنا جمعًا من الناس على بُعد. اقتربنا منهم، كانت هتافاتهم عفوية ضد الحكومة. فجأة انشقت الأرض عن عربة مدرعة تقذف قنابل مسيلة للدموع، ومن ورائها صفان لجنود يقذفوننا بقنابل الغاز بواسطة بنادق مخصوصة.

تحول الشارع إلى ميدان معركة، تفوح منه روائح غاز خانقة، وتصحبُها شهقات ضيق تنفس وسعال متواصل. احمرت العيون، ولم نعد قادرين على إيقاف سيل الدموع. العربة المصفحة تذرع الشارع بسرعة جيئة وذهابًا حتى ميدان «طلعت حرب». الناس مستفزة وغاضبة. بدءوا في تخليع بلاط الأرصفة لاستخدامه كسلاح ضد الشرطة. جاءتهم فكرة أن يستغلوا بلوكات المسلح التي وضعتها الحكومة؛ لتجبر السيارات القادمة والذاهبة من الشارع على احترام الاتجاه الواحد للشوارع الجانبية. زحزحوا الحواجز الخرسانية ذات الارتفاع الذي لا يتعدى أربعين سنتيمترًا رغم وزنها الثقيل. كأنهم جحافل نمل تكاثرت على كسرة خبز كبيرة؛ ليحملنها. تزحزح الحاجز ببلوكاته ليأخذ موقعه الجديد، ويسُد شارع «طلعت حرب». وقف المتظاهرون أمام الحاجز يهتفون؛ فأخفوه عن أنظار السيارة المدرعة. جاءت السيارة مختالة مسرعة، فاقتربت من الحاجز غير فاطنة لوجوده. قبل وصولها بأمتار تفرق المتظاهرون، وفروا إلى الجانبين. كادت السيارة تصطدم بالمتراس المبتكر. انبعث صوت فرملة عنيفة. استدارت السيارة لتنجو، وانسحبت خائبة.

هلل المتظاهرون لانتصارهم الصغير الحاسم على آلة القمع المباشرة. يتقدم صف جنود الأمن المركزي ليُمشط الشارع. بدأ في إحراق الدراجات البخارية، والسيارات التي تقف في نواصي الشوارع الجانبية. ألقوا عيدان الكبريت المشتعلة

في خزاناتها. حرائق صغيرة، وأدخنة متصاعدة، وولولات مفزوعة لأصحاب المركبات قادمة من نوافذ وشرفات البيوت المطلة على المشهد. أجساد ملقاة على الأسفلت لمتظاهرين فقدوا وعيهم بسبب الغاز، أو أُصيبوا في الاشتباكات. غضبٌ، وحنقٌ، وثورة. وجدتُ نفسي أقفز إلى منتصف الشارع، وأهتف بكل ما فيَّ من قوة:

- عاوزين حكومة حرة، دي العيشة بقت مُرة... يسقط، يسقط حسني مبارك.

تجمع الناس في نهر الشارع مرةً أخرى بعد أن اطمأنوا إلى منع سيارة الشرطة المدرعة من السير فيه. التفتُّ، فلم أجد «أحمد» بجواري! وجدت مئات من وجوه شابة تهتف ورائي، ومعي. وصلنا إلى ميدان «طلعت حرب»، فوجدنا معركة أخرى تدور بين قوات الشرطة ومتظاهرين من ناحية مسجد «الرحمة». وجدت الشرطة نفسها بسياراتها المدرعة محصورة بين مظاهرتين. تحرك أحد اللواءات نحونا ناصحًا بأن نذهب إلى الناحية الأخرى عبر شارع جانبي؛ لنلتحم بالمتظاهرين الآخرين. كانت نبرته بين رجاء وتهديد، جاء صوته:

- مش هسمح بأن تحاصرونا من الخلف. هستخدم الرصاص الحي؛ حتى لا يحدث ذلك. اتفضلوا، روحوا للناحية التانية.

في أثناء حديثه، بدأ ضرب الهراوات بقسوة لمتظاهري

الناحية الأخرى. تصاعدت أصوات رصاص الخرطوش في الميدان. انفعلت موجهةً سبابتي له:

- أنت تنفذ أوامر مجنونة، سيتخلى عنك من أعطوك الأوامر، وستتحمل وحدك وِزر ما سيحدث من قتل.

قابل الضابط تهديدي بهدوء لم أتوقعه. لم ينفعل، أو يصرخ. وجهه كانت عليه علامات الاندهاش والبغتة. حولنا التف أشخاص يلبسون زيًّا مدنيًّا، وفي أيديهم أجهزة اتصال لاسلكي. قال متوسلًا:

- لو سمحتِ يا حاجة. روحي الناحية التانية عشان خاطري!

تفرق المتظاهرون ليذهب بعضهم إلى الناحية الأخرى مقابل المسجد، بينما يحاول البعض الآخر النفاذ فرادى إلى ميدان «التحرير» الذي بدا بعيد المنال. ما هي إلا خطواتٌ خطوتها، إلا وجاءت سيارة مدرعة مسرعة من ناحية شارع «محمود بسيوني»، وقذفت بقنابلها علينا. استدارت في دورة حادة في الميدان، وكادت تدهسنا. بدأت مطاردة أشبه بمصارعة الثيران. السيارة ثور هائج يدور ويندفع لاصطياد أكبر عدد من المتظاهرين؛ ليقعوا تحت عجلاتها. تملأ أبخرة الغاز وقنابله الميدان. انتابتني نوبة اختناق وسعال رهيبة. التجأت إلى باب إحدى العمارات بالميدان، ولجت إلى مدخله، وأنا أترنح مثنية جذعي إلى الأمام. وجدت بضعة أشخاص مستلقين قبالة سلم العمارة

مثلي.

اقترب أحدهم مني، وتفحص وجهي. ابتسم ابتسامة لم أعرف سببها، ولا مناسبة لها وسط كل تلك السعلات والغازات. توجه إليَّ بصوت خفيض:

- معقولة، كريمة؟! مِسِير الحي يتلاقى!

اعترتني المفاجأة غير المتوقعة. كادت الدهشة تعقد لساني، لكنني جاوبته بأنفاس متقطعة:

- مين حضرتك، وعرفتني إزاي؟

- أنا «الصّيرفي» صاحب حمزة النادي، وعبد المعطي سلام وزوجته فاتن الحداد. يا ترى فاكراني وفاكراهم؟

أصابتني المفاجأة بشلل مؤقت. تأملت وجهه جيدًا، هاتان العينان والتقطيب بينهما رأيتهم من قبل. لكن تلك الصلعة الكبيرة لا تُذكِّرني بأحد. لاحظ الرجل حيرتي، فابتدرني قائلًا:

- نسيتِ اعتقالات ١٩٦٦، وبيت عطيات الأبنودي اللي ورا ميدان التحرير؟

مع كلمته الأخيرة، جاء صوت فرقعات مدوية عبر باب العمارة، رائحة غاز نفاذة تعمي العيون. تواصل السعال، وصَعُبَ التقاط الأنفاس لدقائق. نظرت إليه مرة أخرى، وحاولت التذكُّر. بدأت ملامح وجهه - عندما كان شابًّا - ترتسم أمام عينيَّ. مر الزمن على ملامحه، فلم يبقَ سوى

بريق عينيه وتقطيب ما بينهما.

خرجنا من مدخل العمارة إلى الشارع، وفقط في تلك اللحظة أدركت أن «أحمد» ليس موجودًا بجانبي. انزعجت بشدة، وصحت متلفتة حولي:

ـ الواد أحمد راح فين؟

تعجب «الصيرفي»:

ـ أحمد مين؟

ـ حفيدي اللي كان معايا!

ـ ما كانش معاكِ حد! أنا شفتك وانتِ بتهتفي وسط شارع طلعت حرب، ما كانش معاكِ حد!

انهدت قواي، ولم تعد قدماي قادرتين على حمل جسدي. شعرت بيد تمسك بساعدي، وتمنعني من السقوط. سار بي «الصِّيرفي» حتى وصلنا إلى شارع جانبي وراء الميدان، وهناك جلسنا على سلالم تفضي إلى محل مغلق للأنتيكات. كانت أصوات المتظاهرين أمام «مسجد الرحمة» تصل إلينا. كان «الصِّيرفي» يتحدث دون توقف، وأنا لاهيةٌ عنه أفكر في حفيدي. اختلطت الصور أمام عينيَّ. وجوه أصدقاء الستينيات الذين تفرقوا، وملامح زوجي الراحل وأبنائي وأحفادي. أفقت على صوت «الصِّيرفي»:

ـ أنا عرِفتك على طول، ملامحك ما تغيرتش خالص.

نفس الشَّعر، ونفس العينين، ونفس الروح.

ـ الشَّعر شاب، والعينين انطفوا من الحزن، والروح لسه بتقاوح يا صِيرفي.

تذكرت اليوم الذي احتفلنا فيه بخروج المعتقلين. كان يومًا من أيام مايو ٦٧، أصرت «فاتن» على أن نحتفل جميعًا. كانوا جمعًا من أصدقاء وأقارب مَنْ أطلق عليهم معتقلو تنظيم «وحدة الشيوعيين»، بينما كنت مع حمزة الوحيدين اللذين دعوهما من معتقلي «منظمة الشباب». خرج معتقلو «وحدة الشيوعيين» قبل معتقلي «المنظمة» بشهرين! على طاولة السُّفرة: ثلاث دستات من الجاتوه، كل دستة بأكثر من ثلاثين قرشًا، وزجاجات «سي كولا» و«سي أفندي». الزوجات سعيدات برجوع أزواجهن من وراء الشمس، والصديقات والخطيبات يمنين النفس بحياة هادئة مع أزواج المستقبل. أُمسِك بِذراع «حمزة» مبتهجة بوجوده معي مرة ثانية. يبدو شاردًا، وإن كان وجهه مبتسمًا. يحاول الإيحاء بأنه معنا، يشاطرنا فرحة الإفراج والحرية. اليوم يرن صوته في أذني، عندما التقينا عقب خروجه من المعتقل:

ـ لا أشعر بالحرية، حرية إيه يا كريمة! خرجت من سجن صغير إلى سجن كبير!

ربما كان الاحتفال بالإفراج عنهم، هو آخر مناسبة التقى فيها هؤلاء الذين جمعتهم حملة القبض في سلة واحدة.

كان «الصِّيرفي» وقتها أصغر المقبوض عليهم من حلقة الشيوعيين. بدا أكثر الحاضرين سعادة وحركة. لم تكن لديه زوجة ولا خطيبة ليشتاق إليها، ولكنه كان مندفعًا لعناق الحياة. انتهز فرصة ابتعاد «حمزة»، ووقوفه مع «عبد المعطي» و«فاتن»، ليقترب مني. همس بجرأة:

- يا بخته! بحسده على اختياره.

توقف تفكيري تمامًا، ولم أعرف كيف أرد عليه. هل كانت جملته غزلًا وقحًا من جانبه نحوي، أم هي مجرد مجاملة تخطت حدود اللياقة؟ لم أستطع آنذاك الإجابة. لم أُرد، ونظرت ناحية «حمزة»، فوجدته ينظر إليّ. ابتعد «الصِّيرفي» ليدخل في مناقشة حامية مع «الأبنودي» وزوجته «عطيات». اقترب «حمزة» وسألني:

- الصِّيرفي قالِك إيه؟

- ما قالش حاجة، كان بيهنيني بالإفراج عنك.

- وما ردتيش عليه ليه؟

لم أستطع أن أُجيبه على الفور، وجاءت النجدة لتنقذني. انفجر قلم الحبر الصيني الذي كان في جيب قميص «الصِّيرفي». ظهرت بقعة حبر وأخذت في الاتساع. همستُ لحمزة:

- اكتشفت تسرب الحبر في جيبه، وما لحقتش أقوله، راح بسرعة ليشتبك مع أصدقائه.

نبَّهت «عطيات» «الصيرفي» لما حل به؛ فخلع قميصه بسرعة. مرت مسحة حزن على وجه «الصيرفي»، حاول أن يخفيها بضحكة ساخرة:

ـ القميص أبو جنيه ونُص، اللي لسه جايبُه من «صيدناوي»، راح ضحية الثقافة والقلم!

أخذت «فاتن» قميص «الصيرفي» الكاروهات، ووضعت عليه بسرعة حفنة من ملحِ الطعام، وأخذته على الحمام. بينما ظل «الصيرفي» واقفًا بفانلة داخلية بحمالات يقتله الخجل.

نظرت إلى «الصّيرفي»، وأصوات أعيرة الخرطوش تصل إلى أسماعنا. تغيرت ملامحه، لكن تصرفاته المندفعة والنزقة لم تتغير. ولكن أي نزقٍ في تصرفاته، إذا كنت ـ أنا ـ في نفس موقفه الآن؟ تجاوزت الستين من العمر، وانخرطتُ في مظاهرات لشباب في عمر أحفادي. ذهب معي إلى قبالة مسجد «الرحمة» حيث ازدادت أعداد المتظاهرين. كنا نبحث عن حفيدي الذي اختفى، وكأنه فص ملح وذاب. اشتد وطيس المعركة بين الشرطة والمتظاهرين؛ فلجأ الناس إلى شارع جانبي يفصل ما بين الجامع، وكنيسة يحرسها جندي يجلس على كرسي خيزران ممسكًا بسلاحه. الجندي يشاهد المعركة التي تدور أمامه في حيادٍ تام، يرتسم الذعر على وجهه. واجبه أن يحمي الكنيسة، وهو الآن على خط المجابهة بين طرفين يتبادلان المقذوفات. قوات الأمن تقذف الناس بالخرطوش،

والقنابل المسيلة للدموع، ومدافع المياه الملوثة بماء المجاري، والمتظاهرون يرمون على الجنود ما تيسر من حجارة بأيديهم. الحجارة تعبر زاوية التقاء سوري الكنيسة، وتسقط على قوات الأمن. جندي الحراسة المسكين في حالة فزع، لكنه مشلول. تندفع بنت قصيرة بنظارة طبية، وتصرخ في وجه المتظاهرين:

ـ ما تحدِفوش الكنيسة بالطوب! سِلمية.. سِلمية!

يحاول المتظاهرون إفهامها أن قذائفهم لا تستهدف مكان العبادة، ولكنها تسقط على رءوس جنود الأمن، ولكن هيهات! تهجم صفوف قوات الأمن على مدخل الشارع الجانبي؛ فنندفع بأقصى سرعة بعيدًا. أتعثر، وأكاد أسقط على الأرض. أتشبث بكل قوتي بذراع قوية بجانبي. أنظر إلى صاحب الساعد فأجده «الصّيرفي». ألتقط أنفاسي، وأجلس على رصيف بشارع «هدى شعراوي» بجانبه. وفي لحظة استجابة ربانية نادرة لا تظهر في غير ليلة قدر، أرى «أحمد» أمامي. أزرار قميصه مفتوحة، وعيناه محمرتان محتقنتان يكاد ينفر الدم منهما. أهُب واقفة مستنجدة بما بقيَ لي من عزيمة، أركض نحوه وأحتضنه.

ـ مالِك يا سِتي، خايفة كده ليه؟

ـ عيب يا واد أنا ما باخافش على نفسي! خُفت عليك، إنت أمانة في رقبتي.

أكتشفُ نقطة حمراء بجانب الزاوية الخارجية لجفنيْ عينه

اليمنى. أضع إصبعي عليها، فأشعر ببِلية متناهية الصغر تحت إبهامي. طلقة خرطوش كادت أن تصيب عينه، لكن ربنا سلّم. اقترب «الصّيرفي» منا، فسأل «أحمد» عنه. أجبت:

- صديق قديم، قابلته النهارده وأنا بادوّر عليك.

- يعني صاحب جدو، مش كده؟

- أيوه!

كذبت عليه، ولم أعرف لماذا كذَبت! «الصّيرفي» من دائرة مختلفة جدًّا عن أصدقاء المرحوم زوجي. أثرٌ باقٍ من أيام السياسة، والأحلام، وجيل الثورة.

اجتذب اهتمامَنا حراك غامض في الشوارع. قوات البوليس اختفت، وانسحبت السيارات المدرعة. حتى جندي الحراسة الجالس أمام الكنيسة، اختفى. امتلأ الهواء بغازات نفاذة مميتة، لكن المتظاهرين تنفسوا الصعداء بخلو ميدان «طلعت حرب» والشوارع المحيطة به من الخصوم. أخرج «الصّيرفي» من جيب سترته راديو ترانزستور بحجم الكف، وضعه على أذنه، غيّر من اتجاه جسده مرتين أو ثلاثًا، وتجمد في وضعه لدقيقتين. أخبرنا بأن مِصر كلها تغلي، المظاهرات ليست فقط في «القاهرة»، بل في «السويس» و«الإسكندرية». أصر «الصّيرفي» على أن نتبادل أرقام هواتفنا المحمولة. اكتشفتُ أن شبكة المحمول لا تعمل، سجل كل واحد منا رقم محمول الآخر. قررت أن أرجع مع «أحمد» إلى البيت.

قاوم «أحمد» الرجوع، لكنني كنت أعرف بخبرتي أنه يمكننا العودة الآن. بعد ساعة أو اثنتيْن سيصبح ذلك مستحيلًا. قبضت على ذراعه بيدٍ من حديد. حديد صدئ، لكنه ما زال صلبًا. جذبته بِشِدة، وسِرنا. اعترض متذمرًا:

- استني يا سِتي، رايحة فين؟ لسه النظام ما سقطش!

- لأ، هيسقط يا روح سِتك، وإن ما سقطش النهارده، هيسقط بكرة أو بعده. البوليس انسحب، وبُكرة غير النهارده خالص.

نظر إليَّ باستغراب، لكنه أطاعني. سِرنا حتى وصلنا إلى شارع «رمسيس». كانت الفوضى على أشدها، عربات شرطة محترقة على جانبي الطريق، وجنود صغار من قوات الأمن المركزي متروكون أمام غضب شعبي كاسح. خلع المجندون ستراتهم، وبقوا بفانلاتهم الداخلية الممزقة وسط برد يناير الصعب. خلعت عن «أحمد» البلوفر الذي يرتديه، وأعطيته لمجند كان يرتعد. لم أعرف هل كان يرتعد من البرودة، أم من الخوف. أخرجت من جيبي نقودًا، وأعطيتها للجنود المساكين عسى أن يجدوا وسيلة مواصلات إلى قراهم الفقيرة البعيدة.

قطعنا مسافة كبيرة، حتى استطعنا اصطياد سيارة خاصة ذاهبة إلى «مدينة نصر»، قام صاحبها بإركاب بعض المسنين مثلي. أصررت على أن يصطحبني «أحمد». طوال

الطريق كنت أفكر في الصدفة الغريبة التي جعلتني أقابل «الصِّيرفي» في هذه الأجواء. ظروف عصيبة لا تقل ضبابية وحيرة عن أيام العام الذي سبق نكسة ٦٧.

فاصل

مارس ١٩٦٧

يستدعي الرئيس «عبد الناصر» المشير «عبد الحكيم عامر»، ويخبره بأن تقريرًا وصل إليه بزواجه بالفنانة «برلنتي عبد الحميد». لا يُنكِر «عامر» التقرير، ويدافع عن حقه في الزواج الثاني. كان «عبد الناصر» قد أعد قرارًا جمهوريًّا خاصًّا بالموافقة على سفر صديقه «عامر» إلى الخارج للعلاج. ران الصمت على الرجلين، لكنه لم يستمر طويلًا. قطعه صوت «عامر» الذي انفجر في حدة قائلًا:

ـ اللي بيشهر بي الاتحاد الاشتراكي ورجالته، والمنشورات اللي اتوزعت في قسم قصر النيل حوالين جوازي اطبعت في المقر بتاعه، واتوزعت تحت أعقاب أبواب الشقق هناك.

كاد «عامر» أن يسافر في إجازة، لكن حدث ما حدث!

أرسلت المخابرات العسكرية التابعة له إلى الرئيس تقريرًا قديمًا عن مشروع تدريبي أعدته «منظمة الشباب» لكوادرها في معسكر «أبو قير» بالإسكندرية منذ نصف عام؛ لتدريبهم على مقاومة التنظيم السياسي لانقلاب عسكري مزمع الحدوث. كانت انقلابات غانا، والجزائر، وإندونيسيا ماثلة للعيان. خاف «عبد الناصر» من أن تتم إساءة تفسير سفر «المشير» في هذه الظروف، وأن

ذلك قد يثير بلبلة الرأي العام والجيش. اتصل «الريس» بالمشير، وطلب منه البقاء في البلد ومواصلة العمل.

حقيقة ما حدث في معسكر «أبو قير»، كانت أن قيادة المنظمة قررت عمل منظومة محاكاة سياسية، يقوم فيه بعض الأعضاء بأداء دور المحافظين ورؤساء الجامعات وقيادات الاتحاد الاشتراكي. تضمن المشروع أيضًا جانبًا يتعلق بطرق اكتشاف التنظيمات السرية داخل المنظمة، خاصة أن وقتها قد تم اكتشاف عدة تنظيمات سرية في مصر؛ ومنها جماعة «الإخوان المسلمين».

طلع التقرير «القديم» في الوقت المناسب، وقُدِّم إلى «عبد الناصر». كانت أحداث «كمشيش» ماثلة للعيان، ومعها دور الجيش و«المباحث الجنائية العسكرية» فيها. وهكذا، يستعيد «المشير» موقعه في صدارة المشهد ثانية، بدون نقصان.

٢

تكاد تنفذ أصوات السيارات المنتظمة في صفوف مزدحمة عبر زجاج النافذة الواسعة لغرفة مكتبي. اعتدتُ على ازدحام ما قبل عطلة نهاية الأسبوع. صارت «نيويورك» موطني منذ أربعين عاما. مدينة كبيرة ممتلئة بالحركة والحياة. يكرهها البعض، ويعشقها آخرون. أعيش فيها غير عابئ بكشف كنه عواطفي تجاهها. تركزت كل مشاعري في محيط أسرتي الصغيرة؛ «جين» والولدين. لم يبقَ لنيويورك مكان في جوارحي، يشغل العمل معظم تفكيري. معالم المدينة ترتسم أمام عينيَّ، ولا تتسرب إلى داخلي.

يأتيني صوت سكرتيرتي «آن» من سماعة داخلية أمامي على المكتب:

ـ مستر «واطسُن» جاء في موعده، هل أدعه يدخل؟

ـ بالطبع، أنا أنتظره.

يدخل «دافيد واطسن»، ومن ورائه «آن» بابتسامتها الرائقة. «دافيد» زميل عمل قديم، تعاونتُ معه في استشارات إدارية، ومراجعات مالية في عدة بلدان في أمريكا اللاتينية، وآسيا، وإفريقيا. جاءني صوته الأجش المألوف، وهو يصافحني:

ـ كيف حالك يا همزا، وكيف القاهرة؟

ـ كما هي، ترتجف من البرد في درجة حرارة تزيد على العشرين فوق الصفر في شهر يناير!

ضحك بصوت عالٍ، فظهرت سنته الذهبية في أقصى يمين فكه العلوي. عجيبٌ أمر «واطسن»، كل الناس تُركِّب أسنان البورسلين منذ عشرين عاما، إلا هو، يُصِر على الاحتفاظ بالذهب في فمه كصياد عجوز! انتبهت على صوت «آن» وهي تسأل:

ـ بماذا أضيِّفكما؟

ـ كأس من البراندي وكوب من القهوة السوداء لمستر «واطسن»، وفنجان كبير من النسكافيه بالحليب لي.

أعرف «ديفيد»، وما يفضله جيدًا، بفضل فترة العمل الطويلة معه. أومأت «آن» برأسها وذهبت مغلقة الباب وراءها، بينما هز «ديفيد» رأسه مسرورًا، ووضع ساقًا على ساق وهو يجلس أمامي. نظَر إليَّ مليًّا من خلف زجاج عويناته الطبية، وسأل برِوية مبالغ فيها:

ـ هل قرأت تقريري الذي بعثت به على بريدك الإلكتروني؟

ـ نعم، قرأته ودرَسته.

ـ ما رأيك؟

ـ توقعاتك تكاد أن تصيب هذه المرة. ثورة تونس قلبت كل الموازين، ها هو بلد صغير ينتفض شعبه ضد حكم

استبدادي كبقية أنظمة الحكم في بلدان الشرق الأوسط. أعتقد بأن مشروع التقيم ودراسة الجدوى للبنية التحتية في مجال الكهرباء يحتاجان إلى مراجعة!

- بالتأكيد، ولا أستبعد أن كلًّا من هيئة المعونة الأمريكية والبنك الدولي يعيدان حساباتهما.

- المهم أن دراسة الجدوى تحتاج إلى تحديث.

«واطسن» من نفس عمري تقريبًا، عمل في «المؤسسة» في نفس السنة التي بدأت خدمتي بها. سنوات السبعينيات الأولى من القرن الماضي التي شهدت قفزة البترودولار التي قلبت أوضاع دول الخليج العربي، بل الشرق الأوسط بأكمله.

عندما أتذكر كيف التحقت بشركة «ماكنزي وشركاه للاستشارات المالية والإدارية»، أزداد يقينا بأن العالم صغير جدًّا، أصغر مما كُنتُ أتصور! بعد مغادرتي القاهرة عقب وفاة «عبد الناصر»، ذهبت إلى الكويت للعمل في مكتب محاسبة قانوني. دفعتني معاناة الهزيمة المُرة في السابع والستين، والفترة التي قضيتها في المعتقل قبلها وبعدها، إلى التفكير في الهجرة إلى عالم غير مهزوم، وغير مريض بهواجس كاذبة. تحطم حبي الأول على صخرة الاعتقال والتقاليد البالية لأهل « كريمة»، وباركت الفوارق الطبقية بين عائلتي وعائلتها تلك النهاية. لم يعد هناك أي شيء يربطني بالبلد. مشروع سياسي آمنت به، فظهر سرابًا

خادعًا. كان الخروج هو الحل.

الرفاق الكويتيون في «حركة القوميين العرب» أتاحوا لي الفرصة؛ فُرصة العمل والتنفس. محاسب مبتدئ في مكتب محاسبة قانوني متوسط الحجم في «السالِمية». صاحب المكتب عضو في الحركة، يزوره بين كل حين وآخر، الدكتور «أحمد الخطيب». أعداد مجلة «الحرية» أطالعها بكل حرية في بيتي. ملصقات منظمات المقاومة الفلسطينية تنتشر على جدران الشوارع، وحملات التبرع لها ومؤتمرات المساندة متتالية، وتكاد تكون منتظمة أسبوعيًّا. في تلك الأيام تعرفت على «باولا» التي حوَّلت من مجرى حياتي.

انفتح الباب، ودخلت «آن» تجر عربة الشاي المحملة بما طلبته، لأستفيق من دوامة الذكريات. بعد خروجها نظر «ديفيد» في عينيَّ مستفهِمًا:

- أين ذهبت بفكرك؟! لقد تركتني، وطِرت إلى السماء محلقًا وحدك!

أدركت أنني - رغما عني - لم أقاوم سيل الذكريات الذي تدفق بقدوم «واطسن»، ابتسمت متلجلجًا:

- الحق على تونس! ذكرتني بموطني الأصلي مصر. اليوم يوم جمعة، يوم الإجازة الأسبوعية في مصر، وهناك دعوة للتظاهر ضد نظام الحكم أسوةً بتونس!

نظر «واطسن» في عينيَّ متسائلًا بخبث:

ـ هل تشعر بشوق إلى الوطن القديم (هوم سيكنيس)، أم هي (نوستالجيا) وحنين إلى الماضي؟!

فاجأني سؤاله الذي أثار استغرابًا شديدًا داخلي. أخفيت انفعالي، وتشاغلت برشف «النِّسكافيه». لمحته يبتسم ابتسامة ماكرة، وهو يرفع كأس «البراندي» إلى فمه. قبَّل حافة كأسه بشفتيه قبلة خفيفة، ثم ارتشف القهوة المُرة باستمتاع شديد. وقبل أن يواصل حديثه، قررتُ تغيير دفة الحديث. لكن عقلي كان مشغولًا بسؤال: ما الذي يقصده «واطسُن» بالحديث عن الماضي؟! هل يعرف ماضي شبابي السياسي؟ وكيف، وهو قد التحق بالعمل في المؤسسة معي وربما بعدي بشهور؟!

ـ «ديفيد»! لو تكرر ما حدث في تونس في مصر وغيرها من دول المنطقة، فإن أعمالنا في الشرق الأوسط قد تتعرض لنكسة، واتفاقاتنا مع هيئة المعونة الأمريكية الخاصة بالمراجعة والحوكمة لما نقدمه، ودراسات الجدوى مهددة بالإلغاء. بل في أحسن الأحوال بالتأجيل.

ـ أوافقك، ولكن لماذا تعتقد بأن ما حدث في تونس قد يتكرر في بلد آخر؟ يا عزيزي، مستوى التعليم في تونس مرتفع ومؤشرات التنمية البشرية بها أعلى من غيرها، ثم إن الجيش هناك ليس بشراسة جيوش الدول العربية الأخرى. لا تنسَ أن «بن علي» ليس إلا ضابط شرطة!

دائمًا يُدهِشُني بطريقة تحليله للأمور، لديه معلومات

وتصورات مبدئية عن المنطقة، لكنه يتناول الأحداث بطريقة أقرب إلى السطحية من العمق. هو لا يفهم أن تلك المنطقة ثقب أسود من الاستبداد، والظُّلم الاجتماعي، والتخلف. لا يدرك أن انتصار ثورة شعبية في بلدٍ منها، قد يُغرِي شعوب البلدان الأخرى بالانتفاض. لا يمكن أبدًا استبعاد سقوط أنظمة ودول، كسقوط قطع الدومينو تباعًا!

تشاغلت مع «واطسُن» بطرح تساؤلات عن تقريره، ومحاولة الإجابة عنها. عندما أُجهَز على قهوته السوداء وكأس البراندي، كنا قد انتهينا من مناقشاتنا. استأذن في الانصراف، واتفقنا على موعد آخر بعد يومين لنرصد التغييرات التي قد تحدث، وقد تؤثر على مشاريعنا في الشرق الأوسط.

الساعة الآن الثانية بعد الظهر، لن أذهب إلى المقصف في الدور الثالث لأتناول غدائي. ذهبت السكرتيرة بعد أن أعدت قهوتي بالحليب، ووضعت أمامي فطيرة «الدونتس»، وبقيتُ وحدي. اقتربت من النافذة الزجاجية العريضة التي وراء مكتبي، ونظرت من خلال شرائح ستارتها المعدنية المفتوحة. ضجيج السيارات يصل إلى مسامعي رغم أنني في الطابق الثاني والعشرين من مبنى تبلغ أدوارُه أربعة وأربعين طابقًا. واجهة المبنى - الذي يأخذ هيئة كتاب مفتوح - تطل على شارع ٥٢ الشرقي الذي يصل ما بين «ماديسون أفينيو»، و«بارك

أفينيو». تبدو حركة المرور مزدحمة؛ فنحن في قلب جزيرة «مانهاتن». أتذكر المرة الأولى التي دخلت فيها المبنى، كنت موظفًا جديدًا قادمًا من «الكويت». ولكن كيف وصلت من «الكويت» إلى «نيويورك»؟ تلك قصة طريفة، بطلتها «باولا» الأمريكية التي قابلتها في مكتبة «جامعة الكويت».

كنت قد التحقت بالدراسات العليا بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية، إلى جانب عملي بمكتب المحاسبة. وبينما كنت جالسًا في صالة المطالعة بالمكتبة، إذا بسيدة شقراء طويلة ترتدي تاييرًا لَبَنِيًّا تقترب من الطاولة التي أجلس عليها، وتجلس في الكرسي المقابل لي. لاحظتُ نظراتِها المصوبة نحوي من وراء نظارتها الطبية. لمحت عنوان الكتاب الذي تقرأ فيه، ولدهشتِي وجدت عنوانه مكتوبًا باللغة العربية: «تاريخ الكويت وإمارات الخليج العربي». أومأت لي برأسِها قائلةً بلغة إنجليزية راقية:

ـ الجو حارٌّ جدًّا بالخارج، كيف تستطيعون تحمله؟!

ابتسمتُ، وأنا أؤكد لها أنني لست من أهل البلد، ومِثلها أعاني من حرارة الطقس. كانت تلك بداية تعارفي مع «باولا». «باولا» سكرتيرة بشركة «نفط الكويت المحدودة»، تكبُرني بعدة سنوات. وللغرابةِ، هي امرأة عزباء تعمل في بلد عربِي وسط ذكور يعتبرون المرأة الغربية مغنمًا حلالًا، وخاصّةً إذا كانت من ذوات الشعر الأصفر. كانتْ تسكُن في المدينة رغم أن مساكن

الشركة في «الأحمدي»، وكانت تُبدي اهتمامًا شديدًا باللغة العربية. في البدء تَصورتُها إنجليزية؛ فهي تعمل بشركة أنشأتها «بريطانيا». شركة، كان اسمُها «شركة النفط البريطانية ـ الإيرانية»، قبل أن تتحول إلى صيغتها الحالية. تبيَّن لي جهلي عندما عرفت من «باولا» أن شركة «النفط الكويتية» هي في الأصل شراكة ما بين شركة «البترول البريطانية» وشركة «جالف» الأمريكية التي أصبح الآن اسمها «شيفرون»، وأن «باولا» نفسها أمريكية من سكان «ميتشجان».

عندما عرِفتْ «باولا» أنني مصري، أعملُ محاسبًا قانونيًّا، وأترددُ على الجامعة، برقت عيناها وأبدتْ رغبتها في أن أساعدها على تعلم اللغة العربية، وخاصة اللهجة المصرية. قالت بتدللٍ واضح:

ـ يا للمصادفة السعيدة، كنت أبحثُ عمن يساعِدني على التقدم في اللغة العربية، وها أنا أجدُه أمامي!

جاءت «باولا» في الوقت المناسب؛ لتُنسيني قِصَّتي مع «كريمة» وأهلها المتعصبين لنوبيتهم. حضرتِ الشقراء بكل بهائِها، لتذهبَ سمراء النيل بعيدًا في طيَّات الماضي. مع تطور علاقتنا، اكتشفتُ أن معلوماتها عن العالم العربي عميقة ومتنوعة. عندما أبديتُ اندهاشي، ضحِكتْ وغمزتْ بعينها اليسرى:

ـ أنا أعمل هنا منذ خمس سنوات. سافرتُ من الولايات

المتحدة بعد زواجٍ فاشل. والفضل لشركة «جالف» التي كنت أعمل بها هناك.

لم يستغرق الأمر أكثر من لقاءيْن أو ثلاثة في كافتيريا فندق «شيراتون الكويت»، ومكتبة الجامعة، لأجد نفسي في فراش «باولا». كنت أذهبُ إلى مسكنها؛ بذريعة إعطائها دروس اللغة العربية. جسدها الأبيض الفارِه، وثدياها المكتنِزان، وتأوُّهاتها الغجرية فرشوا طريقي لأول تجربة اتصال جنسيٍ كاملة لذكر شرقي بِكر اقترب من الثلاثين عامًا. لم تتعدَّ علاقتي مع «كريمة» سوى قبلات خاطفة على شفتيها ووجنتيها! أستطيع الآن أن أجزِم أن «باولا» لم تكن فقط دليلي إلى جنة الحواس، بل كانت مُعلِّمتي في عالم الإدارة والأعمال!

بدأت حواراتُنا تتناول موضوعاتٍ تتعدى مجالي العشق واللهجة المصرية، وتغوص في عالم السياسة والاقتصاد. في أحد اللقاءات بدت «باولا» ملاكًا أبيض بعد أن أخذت دُشًّا باردًا. لفَّت شعرها بفوطة بيضاء، بينما ارتدت بُرنُسًا من نفس اللون. جلست أمامي على الجانب المقابل من طاولة الطعام المستديرة الصغيرة في الإستوديو الذي تعيش فيه. وضعت ساقًا على ساق؛ فانكشف فخذُها من فتحة البُرنس. سألتني موجهة نظراتِها نحو عينيَّ:

ـ همزا، أنت ذكي جدًّا. ألا تريد أن تعمل في مؤسسة استشارات أمريكية؟

فاجأني السؤال، فصمتُ برهة. ازدرت رِيقِي، وتساءلتُ بدوري:

ـ لكنني أعملُ لدى كفِيلي، ونقل الكفالة هنا أمرٌ صعب.

ـ عَرْضِي لا يعني أن تعمل هنا في «الكويت». شخصٌ بمثل مؤهلاتك وذكائك يستحق فرصة للعمل في شركة عابرة للحدود. المنطقة تتغير، حتى الشركة التي أعمل بها هنا، بدءوا بتكويتها رويدًا رويدًا. النِّفط، إن آجلًا أو عاجلًا، سيُصبح إنتاجه ملك الحكام والدول العربية. هم يحتاجون إلينا لتنمية مجتمعاتهم، وبِناء بُنًى تحتية ومجتمعات حديثة، بدلًا من البداوة التي يعيشون فيها. شركاتُ الإدارة والاقتصاد التي يحتاجون رؤيتَها المستقبلية، تحتاجُ أيضًا إلى خبراء يفهمون مجتمعاتهم واحتياجاتها.

ـ لكن المنطقة على كف عفريت، تقبع على سطح برميل بارود ساخن، وتنتظر الانفجار. هناك من ينتظرون حربًا لتحرير أراضيهم، وهناك راديكاليون يَحرِمونها من أي فرصة استقرار!

ـ لا داعي أن تنظُرَ تحت قدميك. المستقبل واعد، وأموال النفط في ازدياد مستمر. لن يعرفوا كيف يصرفونها، ويحتاجون لمن يُعلِّمهم صرفها، ومن يجعل حياتهم مريحة وعصرية.

أدركتُ في تلك اللحظة أن «باولا» ليست مجرد سكرتيرة

متواضعة في شركة نفطية، بل هي خبيرة تفهم في السياسة والاقتصاد والمستقبل! هل هي عميلة جهاز مخابرات؟! ماذا تريده من ثوري آمن بالقومية العربية، فحطَّمه نظام حكم بلاده القومي؟!

قررتُ أن أواجهها؛ لأتخلصَ من الموقف السخيف الذي وقعت فيه:

- عزيزتي، يبدو أنني لا أصلح لتلك الوظيفة. هل تعرفين أنني كنت معتقلًا سياسيًّا في مصر بسبب معتقداتي السياسية اليسارية؟

- أعرِف يا همزا! شخص بمثل ثقافتك ومثابرتك، يجب أن تكون له آراؤه السياسية ونشاطاته.

- هل تتوقعين مني أن أكون عميلًا لـ«سي أي إيه»؟!

انفجرت «باولا» في الضحك، فظننتها محاولةً منها لإخفاء اضطرابها من مواجهتي لها. كبحتْ ضحكاتها بصعوبة. كان وجهُها مُحمرًّا بشِدة، وعيناها تُحملِقان فيَّ، كما لو كانت تشاهد كائنًا فضائيًّا.

- اسمع يا مستر «همزا»، أنا لست عميلة استخبارات تبحث عن جاسوس! أنا مجرد موظفة في مؤسسة أمريكية تعنى بأمور «البزنس»، وتفتح آفاق التعاون الاقتصادي مع البلدان الأخرى. هل شاهدت كثيرًا أفلام «جيمس بوند»، يا عزيزي؛ فأثرتْ على تصوراتك؟!

فهمتُ من «باولا» أنها تعمل «صائدةَ رءوس»، لصالح شركات أمريكية عابرة للحدود. تختار كفاءات على علم بثقافات الدول التي تعمل بها تلك المؤسسات. كان صوتها يرن في أذنيَّ:

- «دارلِنج»، شركاتنا تبحث عن المصلحة المشتركة، وتقيم مشروعات التنمية، وتساعد الشعوب. بالطبع، هيئة المعونة الأمريكية لن تساعد دول الخليج الغنية، نحن هنا نقايض الحداثة بالبترودولار. وفي الدول الفقيرة نساعد في التنمية بالمعونات، والاستشارات الفنية. وكل تلك المشاريع تحتاج إلى دراسات وتقييم ومراجعات مالية قانونية.

كنتُ أُفكِّر فيما تقوله، حين اقترَبتْ من خلف مقعدي. أحاطت بساعِديها عُنُقي، وشبَّكتْ أصابِع يديها أمام صدري. انحنتْ برأسِها وقبلتني في قِمة رأسي. شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، وأحسست بدوار خفيف. وكانت تلك بداية رحلتي مع شركة «ماكنزي وشركاه»، وأربعين سنة في المهجر.

علاقتي مع «باولا» لم تستمرْ كثيرًا، أخبرتني بأنها ستعمل قريبًا في شركة «شاس ت. مين» لتوليد الطاقة. عرَّفتني بأحد ممثلي شركة «ماكنزي» بالكويت، وعبر نقاشات وجلسات متعددة انفتح أمامي باب العمل في شركة عالمية رائِدة. كانت «باولا» من ضمن من يطلق عليهم «صائدو الرءوس» الذين يختارون خبراء ومستشارين للشركات الأمريكية التي تعمل في العالم، وترتبط ببرامج

المساعدات والسياسات العليا الأمريكية. لقاؤنا الأخير، أصرَّت على أن يكون على العشاء تحت أضواء الشموع في شقتها الصغيرة. ليلتَها، كانت فاتنةً بشكلٍ خاص. صارحتني:

- همزا، كانت لقاءاتُنا رائعة بحق. في اليوم الذي قابلتك فيه أول مرة، أعجبتني جديتك واهتمامك بالقراءة في المكتبة. جذبتني شخصيتك، ولا أنكر أنك كنت رفيق فراش رائعًا.

انتهزتُ لحظة المصارحة، وسألتها:

- قبل لقائنا، هل كانت لديكِ معلوماتٌ عني؟

تضرج وجهها بالدماء، وذهبتْ بنظراتها إلى نقطة غير مرئية بالفراغ، وقالتْ:

- لا، طبعًا. كنتَ صيدي الثمين في تلك اللحظة. لا أنكرُ أنني بعدها اهتممت بأمرِك، وسألتُ عنك وعن عملك، وصداقاتك، وماضيك. لقد كنتَ يا «همزا» صَيدي وحدي.

لم أستطع تصديقَها، فمن أحاديثنا السابقة كنتُ أعرِف أن «صائدي الرءوس»، هم مرحلة ثانية بعد «كشافين» يشيرون لَهُم على أشخاصٍ بعينهم. أشخاص قد تستفيد من كفاءاتهم وميزاتهم الشخصية ومواهبهم المؤسسات والشركات العالمية.

انتبهتُ على صوتها، وهو يتخذ صيغة رجاء. ضمت كفيها، وتوجَّهتْ إليَّ:

- فقط أرجوك ألا تُخبِر أحدا عما تم بيننا، وألا تذكر علاقتَنا العاطفية أبدًا. هل تَعِدُني؟

- نعم، أعِدُكِ.

- وعِدني أيضًا ألا نتقابل بعد ذلك. فلننسَ الموضوع، ولِتبقَ الذِكرى في قلوبنا!

لم أرَ «باولا» قط بعد ذلك. ورغم أننا؛ أنا وهي، بقينا لشهور في الكويت بعدَها، لم أُحاول ملاقاتها. كم من مرةٍ انتابني حنين لجلساتها وشوقٌ لفراشها، وفي كل مرة كنت أنأى بنفسي في آخر لحظة.

أفقتُ من ذكرياتي على صوتِ سيارة إسعاف يُدَوِّي في الشارع تحت النافذة. رجِعتُ لأجلسَ خلف مكتبي، ونظرتُ إلى الساعة أمامي. لم يبقَ سوى خمس عشرة دقيقة لانتهاء راحة الغداء. أمسكت بريموت كونترول التلفزيون، وأدرتُ محطات «الكابل» التي تأتي من الشرق الأوسط. الساعة الآن التاسعة إلا ربع مساءً بتوقيت القاهرة. كل القنوات تُشير في شريط أنبائها أسفل الشاشة إلى مظاهراتٍ ضخمة في «القاهرة»، وأغلب المدن المصرية. لا أستطيعُ الجلوس خلف المكتب، أقتربُ من جهاز التلفزيون؛ كي أشاهِده واقفًا. هل قامت ثورة شعبية في مِصرَ أخيرًا؟!

تدخُل السكرتيرة الغرفة، وتُبدِي استغرابَها من أنني لم أمس «الدُّونتس»، أو «النِّسكافيه». تُلاحِظ «آن» وقوفي أمام شاشة التلفزيون مُتسمِّرًا. تتساءل:

ـ ما الذي حدث مستر «نادي»؟ هل أنت بخير؟

أبتسم دون أن أنظر إليها، وأقول:

ـ بكل خير، لو سمحتِ يا «آن» أعِدي لي فنجانًا جديدًا من «النِّسكافيه»، وناوليني «الدُّونتس».

الساعة التاسعة مساءً بتوقيت القاهرة، نشرة الـ«بي بي سي» تضعُ في مقدِمتِها أنباء المظاهرات، وانسحاب قوات الشرطة من قلب «القاهرة». أُقلِّب في القنوات، لتظهرَ تقارير مصورة عما حدث. شبابٌ وشابات يملئون الشوارع، يصرخون ويهتفون. دُخان قنابل مسيلة للدموع. أصواتُ رصاصٍ تلعلع. ها هو ميدان «طلعت حرب»، يمتلئ برجال الشرطة ومدرعاتهم وبمتظاهرين يجرون هنا وهناك. وجهُ امرأةٍ سمراء مُسنة يملأُ الشاشة لثوانٍ. هذا الوجه أعرِفُه جيدًا، لكنني لا أتذكَّرُه! أُدير القنواتِ باحثًا عن الجديد.

أمسكتُ بفنجان النسكافيه، وطلبتُ من السكرتيرة تَركِي بلا إزعاج. ورغم طلبي، أزعجني رنين تلفون المكتب. كان على الطرف الآخر صوت «ديفيد واطسن» يعلو:

ـ ما الذي يحدُث في بلدك يا همزا؟

ـ يحدثُ ما كنّا نتحدث فيه صباحًا!

ـ لكنني لم أتوقعْه بهذه السرعة.

ـ نحتاج إلى وقتٍ للتأمل؛ لنعرف مستقبل أعمالنا يا عزيزي.

اختصرنا المكالمة، وظلَّت عيناي مشدودتيْن إلى الشاشة. ها هو الوجه الأسمر يظهر عليها ثانية. اقتربت من الشاشة سريعًا. معقول! إنها «كريمة»، وقد جارَ عليها الزمن. بقيتْ نظراتها الآسرة، ومَسْحَة جمال آفل. هل عاودتِ اهتمامَها بالسياسة، والعمل العام؟!

بعد خروجي من المعتقل في مايو عام ٦٧، لم تبدِ اهتمامًا حقيقيًّا بمواصلة نشاطها في «منظمة الشباب». كانت تجربة اعتقالي قاسيةً علينا، وجاءتْ كمبررٍ إضافي على طبق من ذهب لنفترق. في آخر لقاء بيننا بعد هزيمة ٦٧ بأيام، تساءلَتْ وهي تبكي:

ـ يعني كده، كل حاجة ضاعت، وحِلمنا كمان ضاع؟

وقتَها صمتُ مدرِكًا أن حلم الوطن، وحلمنا الشخصي بالحياة معًا قد انهارا في لحظة واحدة. غامت عيناي وتذكرت صورة الزعيم فوق رأس «شعراوي جمعة» حينما اقتادونا إلى مكتبه قبيل الإفراج عنا. ظللت أنظر إليها ساهمًا، غير مُصدِّق، فجاء سؤاله:

ـ لماذا تحملق يا أخ «حمزة» في صورة الرئيس؟

ـ كنتْ فاكر لما مسكتونا وحبستونا، أن انقلابًا حدَثَ على حكمه. لكني دلوقتِ اطمأنيت إنه لِسه بِيُحكم!

لم يستطع «شعراوي» أن يمنع قهقهة عالية، وقال بحِنكة رجل دولة:

ـ «الرِّيِّس» هو قائدنا وقائد الثورة. أنتم شباب الثورة، وضمان استمراريتها. واعتبروا وجودكم ضيوفًا عندنا فرصة وِدن، لا يُمكِن أن نسمح بعمل تنظيمات خارج التنظيم السياسي حتى ولو كانت تنتهج خط ثورة يولية.

بعدها بأيام خرجنا، ولم نكن نتوقع أن انهيار الحلم كان أقرب إلينا من حبل الوريد. عينَا « كريمة» تمتلئان بحزن كأنه مقيم بهما منذ ألف عام، والنيل يمر بجانبنا. نجلس في الكازينو الذي اعتدناه. نفس الطاولة، ونفس الجرسون، ونفس وقت اللقاء. لكن الأحوال تبدَّلت. ترددْت وأنا أضعُ كفي على كفيها المستسلمتيْن أمامي على الطاولة:

ـ مِش في استطاعتك إقناع أهلك، ومِش في استطاعتي أن أقود تمرُّدًا زي ما كنت في الماضي. أنا مجرد معتقل سابق مطرود من صفوف قوى الشعب العامل! ما فيش أمل قدامنا.

استسلام كامل لم يأتِ من فراغ. تجمدت الكلمات على شفاهنا، فكان الصمت نهاية لقصة حب حزينة. نهاية محتَّمة، حتى ولو بعد أشهُر. خرجنا من الكازينو متباعدين، نسير بخطوات قصيرة عاجزة. عبرنا كوبري «قصر النيل»

في سكون، بينما ضجيج السيارات يصُم أذنيَّ. افترقنا في موقف الأتوبيسات: هي سارت على قدميها إلى بيتها في شارع «قصر النيل»، وأنا إلى حي «شبرا» مستقِلًّا «الأتوبيس».

خانتها دموعها، وانقبض صدري.

فاصل

مارس ١٩٦٧..

شهر كامل قضاه عم «علي» في مكان أمين بأقبية المخابرات العامة. ثلاثون يومًا من التعذيب، والإهانات المستمرة. عم «علي»، عضو في لجنة العشرين بالاتحاد الاشتراكي بعابدين، يؤمن بالزعيم والاشتراكية والقومية العربية، ويذهب كل يوم إلى صديق، يمتلك دكانًا للبقالة في شارع «معروف» بوسط القاهرة. ولكن، ما الذي أوقعه في هذه الفخ؟!

ذات يوم، وجدت إحدى السيدات ورقة فلوسكاب بيضاء مطوية ملقاة من تحت عُقْب باب شقتها. فضَّت الورَقة، فوجدت بها سطرَيْن مكتوبيْن بالآلة الكاتبة: **«المشير على علاقة بالممثلة «ب»، وقد أخذ لها فيلاً في شارع الهرم. «ب» حامل من المشير في شهرها السابع»،** فأخبرت عم «علي». ولأن عم «علي» عضو مُخلِص في التنظيم السياسي، فقد قرر بنفسه التأكد مما هو مكتوب. ذهب إلى شارع الهرم، وحام حول عنوان الفيلَّا، وتأكد من الموضوع. كانت مشكلة عم «علي»، أنه لا تبتل في فمه فولة. انتشرت الحكاية على لسانه، فانتبهت المخابرات، وقررت أن تدس عليه زميلة صحفية في نفس لجنته بالاتحاد الاشتراكي. كانت الزميلة تعمل «مندوبة» لدى الجهاز. تم استدراج عم «علي» لإحدى شقق

المخابرات المجهزة بكاميرات الفيديو والسينما. كان ضمن شِلة الأُنس في الشقة، الرائد «موافي» واثنان آخران من ضباط المخابرات في ملابس مدنية. وكانت هناك أيضًا عدة «مندوبات» من الجنس اللطيف يتعاملن بالقطعة مع الجهاز. في غرفة أخرى بنفس الشقة، تُسمى «العمليات»، جلس رجل مخابرات آخر ليقوم بالتسجيل والتصوير. عم «علي» أخذ راحته، وحكى حكاية تحرياته التي قام بها مع صديقه البقال، وقال إنه أبلغ رئيسه في الاتحاد الاشتراكي بالموضوع. بجبجها أكثر، وشتم «الرَّيِّس» والمسئولين الكبار والتنظيم السياسي. تم استدراجه من إحدى المندوبات إلى غرفة النوم، وتم تصويره بالجُرم المشهود لعمل «كونترول» عليه.

تم اتخاذ القرار بعد رؤية شرائط عم «علي»، وتمت دعوته مرة أخرى من إحدى المندوبات إلى نفس الشقة. ثلاث قيادات من الجهاز في غرفة العمليات المجاورة، تراقب شاشات التصوير. عندما تأكدوا من عُري عم «علي» وانهماكه مع المندوبة في عملية جنسية كاملة، اقتحموا غرفة النوم ولفوه عاريًا في بطانية، وأخذوه إلى مبنى إدارة المخابرات.

بعد شهور، انتدب «الرَّيِّس» الضابط المهندس «حلمي السعيد» للتحقيق الإداري والسياسي في قضية «انحرافات المخابرات العامة» تحت إشراف «أمين هويدي» وزير الدفاع، ورئيس المخابرات العامة بعد نكسة ٦٧. من

جانب آخر، كانت هناك أيضًا تحقيقات النيابة العامة التي قام بها «علي نور الدين» في قضية انحراف المُخابرات. توصل «السعيد» إلى أن السيدة «ب» وقعت إقرارًا بالعمل مندوبة للجهاز في عام ١٩٦٠، وفي عام ١٩٦٢ قدموها لقيادة سياسية وعسكرية بارزة في إحدى الفيلّات «الآمنة»، وفي عام ١٩٦٣ تزوجته زواجًا عُرفيًّا. كانت السيدة «ب» ذكية، فقررت أن تنجب طِفلًا من القائد. في التحقيقات ذكر نقيب من حراسة القائد أنه لاحظ خطط «ب» وأبلغ القائد، وقدم له شرائط مسجلة بصوتها عن خُطَطها. فما كان من الأخير إلا أن أبلغها بذلك، وقام بوضع النقيب في السِّجن(1)....

٣

ما الذي يجعلني أترك غرفة مكتبي التي تطل على النيل؛ لأنزل إلى الشارع وأستنشق غازات القنابل المسيلة للدموع؟ حتى وأنا في الدور السابع تتسرب الرائحة إلى الغرفة، وتضيق معها أنفاسي!

أقترب من زجاج النافذة، ألصق وجهي بسطحه، وأنظر غير مصدق. بجحافل بشرية تزحف، كسيل يجرف أمامه كل شيء. تتحول المصفحات إلى علب كبريت تنقلب على جانبها، ليخرج منها جنود الأمن المركزي بأعجوبة. تبدو أزياء الجنود غريبة بالدروع التي تحمي الصدر والظهر. يتحول المساكين إلى سلاحف «نينجا» مقيدة الحركة، ينقلبون على ظهورهم تحت أقدام المتظاهرين. أصوات الرصاص والخرطوش تلعلِــع بلا فائدة، تيارات المياه المندفعة من فوق سيارات مكافحة الشغب لا تصد غضب الناس المتصاعد. ثعابين الدخان البيضاء تتلوى فوق الرءوس لتصنع مشهدًا سيرياليًّا مؤثرًا. صورة الرئيس المعلقة على سارية عالية في منتصف ميدان «الجلاء» المفضي إلى الجسر ممزقة، وتشتعل فيها النيران. هناك شخصان تسلقا نحوها، وعلى الأرجح هما اللذان أشعلا النيران بها.

آه يا «عبد المعطي».. من أين جاء كل هؤلاء البشر؟ أحاول أن أدقق النظر، ولكن هيهات أن أرى ملامح

وجوههم. ضَعُفَ البصر مع تقدم العمر، وكنتيجة للتحديق المزمن في صفحات الكتب والصحف. ما الذي دفعني للذهاب إلى المكتب في يوم الجمعة؛ يوم راحتي الأسبوعية من ملل الشغل الصحفي المتواصل؟ أكثر من خمسين عامًا دفنتها تحت بلاط صاحبة الجلالة، ولم أرَ مثل ما أشاهده الآن. جنازة «عبد الناصر»، ومظاهرات التنحي، وانتفاضة الخبز لم تكن بمثل هذا العنفوان. أشعر بأنه «يوم قيامة» حقيقي، فيقشعر له بدَني.

شقة المكتب خالية إلا من الساعي، و«سلّام» الصحفي اللزج. خطوط التلفون الأرضية لا تعمل منذ التاسعة صباحًا، وهاتفي المحمول جثة هامدة منذ الصباح. قطعت الحكومة جميع خطوط الاتصال. القنوات الفضائية منشغلة بأحداث لبنان، ولا خبر عما يحدث في القاهرة. قناة «الجزيرة» انقطع إرسالها، لم يبقَ لي سوى الاستماع إلى محطات الإذاعة. «راديو القاهرة» في وادٍ، وكأن ما يجري أمامي يحدث في كوكب آخر بعيدٍ عن كوكب الأرض، وليس في ميدان الجلاء. منذ دقائق كانت الأحوال هادئة، ميكروفونات المساجد تنقل صلاة الجمعة وأصوات الخطباء. تحول السكون إلى صخب في لحظات، وأي صخب!

ألتفت إلى جانبي، فأجد «سلّام» ينقل نظراته بيني وبين المشهد الذي أمامي. يبدو مصدومًا، تختلط أمارات الحيرة والصدمة.

ـ أستاذ عبد المعطي، الواد محمود الساعي ساب المكتب ونزل الشارع! تحب أعملك قهوة معايا؟

ـ ما فيش مانع.

قضيتُ عمراً كاملًا أُنقِّب في تاريخ هذا الشعب، وعن قانون يحكم حركته، وفشلت في إيجاده. يثور بلا سابق إنذار، ويسكُن بلا مبرر. نحسبه في أوقات قد استسلم للموات، لكنه ينتفض فجأة.

ماذا تفيد الكُتب التي أَلَّفتها وقرأتها يا «عبد المعطي»؟ هل أعانتك المشاوير العديدة إلى دار الكتب ودار الوثائق على التنبؤ بتلك اللحظة التي تعيشها الآن؟ حتى سنوات الشقاوة، والثورة التي أنفقتها في شبابك وسط صفوف هذا الشعب، لم تنفعك اليوم.

الموضوعات التي صححتها، وكتبها المحررون ترقد على سطح مكتبك تنتظر الإرسال إلى مقر الصحيفة الكويتية التي تُراسلها. لا اتصالات ولا «نِت» منذ الصباح، ماذا ستفعل؟! هل تلوذ بطريقتك القديمة في إرسال الموضوعات غير المستعجلة مع مضيفين جويين يطيرون كل يوم إلى بلد الصحيفة؟ كان ذلك منذ زمن طويل، حينما كنت تبعث بالأخبار والتقارير المهمة بالفاكس، وترسل الموضوعات الباقية بالطائرة. حتى الجهاز الذي يبعث بالصور الفوتوغرافية عبر التلفون، استغنى المكتب عنه. كهَّنته وبِعته. ليتك احتفظت به! وماذا يفيد الاحتفاظ

به، وخط التلفون معطل؟!

دخل «سلام» بصينية القهوة. مظهره وهو يحملها؛ جعلني أدرك أخيرًا أن الصحافة ليست المهنة المناسبة له. يبدو وكأنه وُلِد ليكون نادلًا!

جلسنا حول طاولة الاجتماعات التي تتوسط المسافة بين المكتب والنافذة.

ـ وبعدين يا أستاذ، إحنا مقطوعين!

ـ الأمور تتطور بسرعة، ساعة أو ساعتين وهيتضح الوضع.

ـ والمادة اللي عندنا؟

ـ حُطها في ظرف كبير عليه تلفون المؤسسة هناك، وشُوف السواق بتاعنا.

ـ حاضر.

أرتشِف القهوة، وأغرق في بحر الذكريات.

صوت «السِّت» يأتي عذبًا وملتاعًا عبر الشباك المطل على المنور، ومعه نسمة هواء بارد أتت بها ساعة عصارٍ في بداية صيف. مستلقٍ على سريرٍ مقابل للشباك ورأسي على مخدة عالية، بينما رأس «فاتن» يفترش صدري وذراعها يحيط بخصري. أنفث سيجارتي المشتعلة، وأتنفس صوتها القادم من شباك الجيران.

«غلبني الشوق وغلبني

وليل البعد دوبني

ومهما البعد حيرني

ومهما البعد سهرني

لا طول بعدك يغيرني

ولا الأيام بتبعدني

بعيد عنك»

مع نهاية الكوبليه ومَدَّة القفلة التي تبدع فيها «أم كلثوم»، يأتي تصفيق حضور الحفل المسجل، والمُذاع في إذاعة أم كلثوم. تعبث أصابع «فاتن» بأذني ثم تمر بسبابتها على جبهتي، ثم أنفي، وتستقر على شفتي السفلى. تسحب إصبعها، وتقبله بشفتيها. لم يمر على زواجي بفاتن سوى بضعة أشهر قليلة. زواجي وارتباطي بفاتن التي تعرفت عليها في أثناء عرض إحدى المسرحيات بالمسرح القومي، جعلا حياتي أكثر نظامًا وترتيبًا. العمل بالجريدة يبدو مملا، لكنه لا يستنفد طاقتي. أستطيع الذهاب إلى «دار الكتب»، وجمع المواد والقصاصات، وكتابة المقالات أيضًا. الكتابة والبحث التاريخي يجريان في دمي، والوظيفة لا تعني لي شيئًا. بعد زواجي بفاتن أصبح وقتي أكثر اتساعًا وتنظيمًا. هي ليست فقط زوجة، ولكنها أيضًا سكرتيرة وهبت نفسها لترتب أموري، وتعاونني في الحصول على المصادر

والكتب. تؤمن بموهبتي وقدراتي أكثر مما أومن أنا! تذهب لعملها كمحاسبة صباحًا، وتنذر نفسها ووقتها لراحتي.

ـ جمعة السواق بره يا أستاذ!

أفقت من ذكرياتي على صوت «سلّام»، فاستدعيت السائق. سلمته المواد في ظرفين كبيرين، وكتبت عليهما تلفون الجريدة. وصفت له كيف سيتجه إلى مكتب شركة الطيران بالمطار، وأعطيته نقودًا. قبل أن يغادر المكتب، ذكّرتُه أن يصل بسرعة قبل أن يحلّ موعد الطائرة المتجهة إلى الكويت، وأن يرجع إليّ في «الدُّقي» إذا كانت الطريق مفتوحة.

قبل أن أترك منزلي في الصباح، طلبت من «حنان» ـ زوجتي الحالية ـ أن تقوم بتخزين مياه كافية في البانيو. أخرجت حزمة من البنكنوت، وقلت لها:

ـ اتصرفي، اشتري عيشًا ومأكولات وشمعًا. لا أحد يعرف ما ستتطور إليه الأوضاع.

ـ نتصرّف، وكأنه يوم قيامة. أنا صحفية مثلك، وأشعر بأنها زوبعة في فنجان. لعب عيال يا «عبد المعطي»، ووهم. أيوه، مجرد وهم!

ـ كل الاحتمالات مفتوحة، لا تنسيْ أن تونس عملتها من قبل.

ـ لكن مصر مش تونس. مصر دولة وجيش

ومؤسسات. مصر كبيرة!

«حنان» مختلفة عن «فاتن» زوجتي السابقة تمامًا. هي ذات شخصية عملية، تعرف ما تريد وتحصل عليه. شقاوتها ووجهها الطفولي جذباني إليها. بعد خروجي من المعتقل، وولادة ابنتي من «فاتن» أصبحت حياتي لا تُطاق. عملي الجديد في جريدة «الجمهورية» التهم وقتي كاملًا. بدأت نيران الغيرة تأكل «فاتن»، أحسَّت بأنها تكاد تفقدني. فاتن، كانت ذراعي وقدميَّ اللتين أسير عليهما. لكنني كدت أختنق من حنانها، ورعايتها، وتفانيها المبالغ فيه. كنت أحتاج امرأةً، وليست أُمًّا ترعاني. حنان الصغيرة، الشقية وقتها، أشعلت الحب من جديد في قلبي. عاملتها في البدء كتلميذة مبتدئة في مهنة الصحافة. أخذت بيدها، بصراحة علمتها كيف تكتب، وكيف تشعر بجرس الجملة وإيقاع المقال الخفي.

أفقت على صوت «سلام»:

ـ يا أستاذ الواد «محمود» الساعي رجع!

ـ خلِّيه ييجي بسرعة!

دخل «محمود»، وملابسه مبللة ومقطعة! عيناه زائغتان، وكدمات واضحة على وجهه. سألته متعجبًا:

ـ كنت فين يا «محمود»؟

ـ كنت مع الناس يا أستاذ في وِسط البلد.

أجلست «محمود» أمامي لأستجوبه، بينما ظل «سلّام» واقفًا فاغرًا فمه. علمت من «محمود» أن آلافًا مؤلفة من الناس قد انطلقوا من مساجد معينة بالقاهرة، بعد صلاة الجمعة، وتوجهوا إلى قلب القاهرة. دارت معارك طاحنة بين قوات الأمن المركزي وعربات مكافحة الشغب المصفحة، وبينهم. دهست سيارات الشرطة المسرِعة أجساد المتظاهرين بسرعتها القصوى. رصاص الخرطوش يغرِق هواء «باب اللوق»، و«التحرير»، و«طلعت حرب»، و«رمسيس»، ويصيب أعين ورءوس الناس. القاهرة مسمَّمَة بروائح لاذعة لقنابل الغاز المسيل للدموع. قوات الشرطة تدافع باستماتة عن مداخل ميدان «التحرير»، لن تسمح لذُبابةٍ بالنفاذ إليه.

كنت أتابع حديث «محمود»، وألاحقه بالأسئلة، تساءلت في نفسي: «أليس كان من الأقدر له - إن تَعَلَّم - أن يكون هو الصحفي، وأن يكون «سلّام» الساعي؟!». سألته بحدسٍ اكتسبته من المهنة:

- ولكن، إيه الوضع دلوقتِ قبل ما تطلع المكتب؟

أحس بأهميته، وكاد أن يضع ساقًا على ساق قائلًا:

- الضباط والعساكر منهكين، وانسحبوا من شوارع وسط البلد يا ريس. لسه متمركزين في ميدان التحرير وناحية الجامعة الأمريكية.

- الإخوان ظهروا يا محمود؟!

ـ قبل العصر بشوية في شارع رمسيس، وجزء كبير منهم جه من ناحية محطة السكة الحديد.

ـ طب قوم فِز من مكانك، واعمل فنجان قهوة!

ذهب «محمود» مسرعًا، فأخذت أجرب كل وسائل الاتصال المعطلة، والتي كانت مُتاحة من قبل. حمدت الله أن الكهرباء غير مقطوعة، وأن إذاعتيْ «لندن»، و«مونت كارلو» مسموعتان. التقارير بدأت في الانهمار من القاهرة. كيف، والاتصالات مقطوعة؟! تساءلت بصوتٍ عالٍ، وانتبهت إلى أن «سلَّام» ما زال واقفًا كجماد.

جاءني صوته:

ـ يمكن عبر الأقمار الصناعية يا أستاذ!

لأول مرة أشعر بأنني ظلمته، ها هو ينطق ويفكر! استيقظ ذهني، لجاري في الطابق الذي يعلو مكتبي زميلٌ يدير مكتبًا آخر لصحيفة سعودية. كنت قد علمت أنه يمتلك هاتفًا متصلًا بمنظومة «الثُّريا»، التي تعمل عبر الأقمار الصناعية. انتزعت نفسي من المقعد، وصعدت طابقًا إلى زميلي. اتفقت معه على استخدام «ثرياه» بعدما ينتهي من بث تقاريره إلى جريدته، على أن أدفع فواتير مكالماتي. الحمد لله أننا في صحف غير متنافسة!

أصبحت الآن مطمئنًا على تواصلي مع مقر الجريدة في «الكويت». لا أحد يعلم إلى متى سيستمر انقطاع الاتصالات في القاهرة، ومنها. حتى أيام حربيْ عاميْ ٦٧

و٧٣، لم نشهد مثل هذا الانقطاع! مرت على القاهرة أيام قيامة عديدة، ولم ينقطع فيها الاتصال التلفوني. حريقها الشهير في يناير ٥٢، وأحداث مارس ٥٤. كنت طفلًا أيامها، لكن التاريخ لم يذكر مثل هذا الانقطاع الذي نحن فيه اليوم.

بدأ ضيوف غير متوقعين في التوافد عليّ. أصدقاء قدامى تورطوا في مشاركة المتظاهرين، وانقطعت بهم السُّبل. «الصِّيرفي» زميل المعتقل، ناهز عمره السبعين، ونزل للتظاهر في وسط القاهرة. بجمل متناثرة، وبأنفاس متلاحقة طفق يحكي مشاهداته ومغامراته في وسط المدينة. كيف فقد سترته وكوفيته، عندما صوب إليه الجنود الخرطوش. جرى كطفل في العاشرة من عمره، وهو يسعل ويلفظ آخر أنفاسه. عيناه حمراوان، يكاد الدم ينفر منهما. كنت أول من لاحظ وجود بلية متناهية الصغر بجوار حاجبه الأيسر. وضع إصبعه عليها، وقال:

- ما حسيتش بيها. الحمد لله، كان نظري هيضيع. صحيح العين عليها حارس.

«الصِّيرفي» في حبسة عام ٦٦، كان شابًّا رياضيًّا ذا شعر كثيف وسالفيْن يغطيان صدغيه وجانبيْ ذقنه. أين صلعته العظيمة من تلك الأيام؟ أيامها كاد من التعذيب في سجن القلعة أن يفقد عقله. عندما أرادوا مواصلة تعذيبه، فتحوا عليه باب الزنزانة في الصباح. فبدأ في الصراخ وخبط رأسه في جدرانها. سال الدم من رأسه؛ فارتعب الضباط

والحراس وتركوه لحال سبيله.

زمالة المعتقل، وعِشرة التعذيب لا تضاهيهما أي علاقة إنسانية أخرى. نغيب عن بعضنا البعض، وعندما نلتقي تتفجر الذكريات المشتركة، ومعها تعاطف إنساني عميق. تعاطف، بل تفاهم خلقته لحظات الشجاعة والضعف، ساعات العزلة والانتظار. عراة كنّا أمام الجلادين، إلا من أسمال ثياب وأحلام مجهضة. بقية الضيوف الجالسين حولي لا يدركون أن «الصّيرفي» مرآتي التي أرى فيها شبابي، ومشاكساتي.

وسط أحاديث أدرتها مع ضيوفي؛ لأعرف ما حدث ويجري في شوارع القاهرة، فوجئت بصيحة «الصيرفي» ممزوجة بالفرح:

- مفاجأة يا عبد المعطي! مش هتعرف قابلت مين في المظاهرات النهارده.

- مين؟ أكيد شوية من أصدقائنا القُدام اللي استمروا في الجِنان زيك!

- المجنون هو من يفقد إيمانه بهذا الشعب!

- قولي مين وبلاش تشويق؟

- كريمة!

- كريمة مين؟

- كريمة البنت السمرا اللي كان يحبها حمزة النادي بتاع

منظمة الشباب، اللي كان محبوس معانا في ٦٦. البنت اللي كانت بتعرف فاتن وعطيات الأبنودي وإيفلين! إنت لحقت تنسى!

يوم غريب، فيه تذكرت «فاتن» وزارني «الصيرفي» وحامت شهور السجن البعيدة حول ذهني. يريدني أن أتذكر «كريمة»، وهي التي لم أرها سوى مرتين أو ثلاث مع «فاتن» بعد خروجنا من الحبسة! أنا لا أتذكر حتى كيف كانت تبدو. نوبية سمراء، ابنة حارس عقار في شارع «قصر النيل». ربما تحدثت عنها «فاتن» معي. لكنني لم أعِر شأنها اهتمامًا. وجدت نفسي أساير «الصيرفي»، وأسأل:

ـ مرّت على معرفتك بها خمسة وأربعين سنة، إزاي عرفتها يا فالح؟

توجهت الأنظار إلى «الصيرفي»، فبلع ريقه وأحس أنه أمام اختبار حقيقي لمصداقية ما يقول. مهزلة، جميع الجالسين لا يعرفون من هي «كريمة»، عدا هو وأنا. لكنهم منجذبون ومتابعون للحديث.

أشاح «الصيرفي» بذراعيه في الهواء، ربما ليؤكد حكايته:

ـ عرفتها رغم الشيب والتجاعيد. تصوَّر ما زالت كاشفة شعرها، ما تحجبتش! كنت قُدام محلات العبد في شارع طلعت حرب وسط مظاهرة تطاردها من وقت للتاني عربية شرطة مصفحة، بتحاول دهس المتظاهرين. وإذا

بواحدة ست كبيرة تقفز إلى منتصف الشارع وتهتف بصوت جهوري جبار: «يسقط.. يسقط حسني مبارك». تأملتها، فإذا هي كريمة النوبية بشحمها ولحمها. عمرها أكتر من ستين سنة، لكن حيويتها زي ما هِي كانت. تزعمت المظاهرة، وتوجهت إلى ميدان طلعت حرب، وهناك قابلتنا قوة من الأمن المركزي ضربتنا بقنابل الغاز والخرطوش، حسيت إني هتخنق. دخلت مدخل عمارة بالميدان آخد نفَسي، وهناك لقيتها قدامي.

كنّا نتابع كلمات «الصيرفي» بشغف واضح. حفزني الفضول أن أساله بإلحاح:

ـ وعِرِفتك؟!

ـ لا ما عرفتنيش في البداية، أنا اللي عِرِفتها. أنهكها الغاز فقعدت على السلم تنهج. قربت منها، فكرتها بنفسي وفكرتها بفاتن وحمزة. بصت في عيني باستغراب، وقالت: الصيرفي!

شعرت بأنه يؤلف حكاية ليجذب انتباهنا إلى بطولاته. يتحدث وكأنه شاب في العشرين. كل واحد من ضيوفي له حكاية في هذا اليوم. استمعت لحكاياتهم بنصف بال. نصف بالي الآخر، كان في الرسالة العاجلة التي يجب أن أصوغها لأمليها عبر هاتف «الثُّريا»، لتنشر غدًا في الكويت. استأذنت في الصعود لإملاء الرسالة في الطابق الأعلى، فغادر جميع الضيوف. عندما نزلت إلى المكتب مرة أخرى، كان سائق السيارة قد رجع من المطار.

الطرق مقطوعة، فكيف رجع هذا العفريت؟!

ظل «الصِّيرفي» جالسًا في المكتب، بلا نية ظاهرة للرحيل. قلت له:

- إنت ناوي تبات هنا ولا إيه؟

- معقولة، يا عبد المعطي. عاوزني أسيب حلمي اللي بيتحقق قدامي، وأرجع البيت! عاوزني أسيب حلمنا اللي كنّا بنحلم بيه، بحر الناس وعرقهم ودفاهم في شتا يناير.

روائح الغاز المسيل للدموع تصل إلينا في الطابق السادس، رغم إغلاق النوافذ وباب الشُّرفة. قناة التلفزيون الرسمية تعلن عن نية «الرئيس» في إلقاء كلمة للشعب. تصريحات لأوباما تفيد بثقته في ثبات النظام السياسي المصري. كل ذلك، و«الصِّيرفي» أمامي يلتقط أنفاسه. عرضت عليه أن يوصله السائق بسيارتي إلى منزله، لكنه أبى قائلًا:

- هنزل ميدان التحرير أبات هناك. وانت فوق أعلنوا إن الجيش نزل شوارع القاهرة، وده معناه إن الشرطة أداة القمع انهارت.

قررت أن أشاهد خطاب الرئيس في البيت، وأن أذهب إلى البيت في «الزمالك» سيرًا على الأقدام عبر كوبري «الجلاء» و«الجزيرة». سار «الصِّيرفي» إلى جانبي في طريقه إلى «التحرير». الجو خانق، أخلى الهواء مكانه لروائح لاذعة. تطفر الدموع من عيني دون إرادة مني. نظر صاحبي إليَّ ونحن نعبر الكوبري، قال والدموع تملأ عينيه:

- تعرف؟

- إيه؟

- كريمة سألتني عنك، وعن فاتن. تبادلت معها أرقام التلفونات.

مرة أخرى يحدثني عن «كريمة» و«فاتن»، هل ذهب عقله، أم يبحث عن حب في السبعين من العمر؟! نمرُّ أمام عربات فض الشغب المحترقة، والمهجورة، والمقلوبة على جانبها. يوم قيامة جديد، تشهده القاهرة في تاريخها. أمسك «الصيرفي» بذراعي بقوة قبيل افتراقنا، ورجاني قائلًا:

- يا ريت تيجي معايا الميدان، على الأقل تعرف اللي يحصل هناك.

قلت له بحسم:

- لا أستطيع، الموقف لم يُحسَم بعد. أنا رجل معروف، هيرصدوني، ويقتصوا مني بعدين.

- تعالَ يا عبد المعطي عشان تشوف اللحظة اللي حلمنا بيها!

- هستنى ويمكن آجي بعد أيام، لو الموضوع استمر.

تصافحنا، ذهب إلى هناك عبر جسر «قصر النيل»، ركزت بصري تجاهه. مشى بتؤدة، وظهره محنيٌّ، بينما كان إصراره واضحًا في رأسه المرفوع صوب الميدان حيث الدخان الأسود المتصاعد. كنت بدوري يممت ناحية

«الزمالك» من أمام مباني «الأوبرا الجديدة». وفي الطريق سمعت أناسًا يصيحون: «أعلنوا حظر التجول في البلد من الساعة ٦ مساءً»! نظرتُ في ساعة يدي، فوجدتها الخامسة والنصف وخمس دقائق. أسرعت الخطى، وهالني خلو الطريق من السيارات. حتى طوابير السيارات التي تنتظر أمام أسوار نادي «الجزيرة»؛ نادي الأرستقراطية المصرية أيام الملكية، والبيروقراطية الحكومية بعد الثورة، قد اختفت. لا أسمع أصوات الطيور التي اعتدت سماعها من أشجار الزمالك المعمرة قبيل الغروب. فكرت في «حنان» و«فاتن» و«حمزة» والبلد، بينما كانت الظنون والتخمينات تُغرِقني في أمواجها المتلاطمة.

فاصل

ورقة من دفتر كان يقيد فيه موظف مصري مصاريف الشهر.

شهر مايو ١٩٦٧..

- كيلو لبن ٦ صاغ.
- تذكرة ترولي باص ٢ صاغ.
- كاوتش لكعب الجزمة ١٠ صاغ.
- ضريبة التلفزيون خمسة جنيه وعشرة صاغ.
- كيلو لحمة ٦٠ قرش صاغ.
- علبة دوا ضغط ١٧ قرش صاغ.
- اشتراك الاتحاد الاشتراكي ١٠ قروش صاغ.
- وصل كهرباء ١.٩٣ جنيه منزلي + ٢.١٣ جنيه تجاري.
- حزام جلد للبنطلون ٢٥ قرش صاغ.
- جزمة حريمي ٢.٩٧ جنيه.
- كيلو موز ٨ صاغ.
- قص شعر حريمي ١ جنيه.
- تأجير عشة براس البر ٣٠ جنيه (٢٠ يوم).

- صابونة لوكس صُغير ٣،٥ قرش صاغ.

- كيلو جبنة بيضا ٢٤ قرش صاغ.

- أنبوبة بوتاجاز ٦٠ قرش صاغ.

- تلغراف تهنئة ٢٥ قرش صاغ.

- الرفا ١٥ قرش صاغ.

- ذبح خروف على العيد الكبير ٣٠ قرش صاغ.

٤

ساعة ضُحى، شوارع وسط القاهرة مزدحمة بالناس والسيارات والأتوبيسات. يوم خميس ما بين خريف وشتاء عام ٦٥، وبالتحديد في شهر نوفمبر. كنت قد أخذت إجازة من عملي كسكرتيرة تقوم بالطبع على آلة كاتبة من طراز «كونتننتال» من مقر «الشركة العربية للاستيراد والتصدير» بشارع «التحرير» بوسط البلد. كان التصريح بالقيام بها ميسرًا؛ بناء على خطاب من «أمانة الشباب بالاتحاد الاشتراكي». نلت إجازة بنفس المدة من معهد «الخدمة الاجتماعية» بصورة من نفس الخطاب.

اتفقت مع «سهير» زميلتي في المعهد التي تكبرني بعامين دراسيين، أن نلتقي في محطة قطار «حلوان» بباب اللوق. أخبروني في أمانة قسم «قصر النيل» للاتحاد الاشتراكي بضرورة التوجه إلى «معهد الشباب الاشتراكي» بحلوان لحضور دورة لإعداد القيادات بمنظمة الشباب. حملت حقيبة ملابسي، واتجهت من شارع «قصر النيل» إلى شارع «صبري أبو علم»، ومنه دلفت إلى شارع صغير لأجد نفسي في ميدان «الفلكي». لا أعرف هل سنجد اليوم غداءً معدًّا لنا في المعهد، أم لا. قررت أن أمُر على محل فول «القط الدمياطي» في الميدان؛ لأشتري سندوتشيْ فول وطعمية من محل أسفل عمارة «الأطباء». دفعت قرشين صاغ ثمن السندوتشيْن، ومن كشك الصحافة أمامه اشتريت جريدة «الأهرام» بثلاثة «تعريفة» كي أقرأها في

القطار. عبرت الميدان، واخترقت محطة الترام الكبيرة التي في وسط الميدان قافزة فوق ثلاثة أرصفة تقف عليها عربات الترام. أدلف إلى شارع «منصور»، أشاهد طابورًا طويلًا على يسار الشارع أمام الجمعية الاستهلاكية. أعرف ـ بالطبع ـ أن الموظفين وربات البيوت ينتظرون دورهم لشراء دجاج الجمعية المجمد. لا يعطون أكثر من دجاجة للشخص في المرة الواحدة. وهناك استثناءات في الخفاء يقوم بها بعض الموظفين المرتّشين بالجمعية.

هذا الجزء من شارع «منصور» الممتد من ميدان «الفلكي» حتى شارع «محمد محمود»، لا يهدأ طوال اليوم والليل. ساعتان فقط قبيل صلاة الفجر، تلتقط المحال فيهما أنفاسها للراحة. مطاعم السندوتشات والوجبات الشعبية على جانبيه لا تكاد تخلو من الزبائن، أغلبهم من راكبي قطار «حلوان». عمال الحديد والصلب ومصانع الطائرات والمصانع الحربية، وموظفون، وطلاب جامعات. ساعة الذروة في الشارع في الصباح الباكر وعند الغروب، مع تدفق العمال في مواعيد الورديات للذهاب والرجوع من الضاحية العمالية التي ملأتها الثورة بالمصانع. على الرصيف الأيسر، سينما «ريو» تعرض برنامجًا من فيلمين أحدهما أجنبي. أبوابها مغلقة؛ فهي سينما صيفية تفتح أبوابها فقط في المساء.

اقتربت من باب محطة «باب اللوق»، على ناصيتها سِنترال وساعة تشير عقاربها إلى الحادية عشرة، وجدت

«سهير» تنتظرني على الرصيف وتُلوِّح بيدها. دخلنا المحطة، وأسرعنا لنلحق بالقطار المكهرب. عدد الباعة الجائلين على الأرصفة قليل، ربات بيوت وطلاب وموظفون يتحركون بسرعة ما بين شبابيك قطع التذاكر، وأرصفة المحطة. اشترت كل واحدة منا تذكرة إلى «حلوان» بثلاثة قروش، وقفزنا إلى القطار الذي على وشك الانطلاق.

ستستمر دورة الإعداد عشرة أيام، أفهمونا نظام الدراسة قبل أن نذهب إلى حلوان. سيوزعون علينا محاضرات مطبوعة في الصباح لنقرأها، وفي المساء ستجتمع المجموعة بمشاركة الموجهين السياسيين لمناقشتها. كنت - طوال جلوسي في القطار - أفكر في المعركة التي انتصرت فيها على أبي. كان إقناعه بغيابي عن البيت عشرة أيام أمرًا مستحيلًا. لم يرفع راية الاستسلام إلا بعد أن تيقن من أن البنات الدارسات لن يختلطن بالرجال في أثناء إقامتهن في المعهد. ورغم ذلك، فاته أن الموجهين والمدرسين كانوا من الرجال!

تتابعت المحطات وتوقفاتنا بها في طريقنا. سألت «سهير»:

- إزاي انضميتِ للمنظمة؟

أجابت في لامبالاة:

- ما عرفش، فاتحتني مُدرِّسة في مدرستي الثانوية باختيارهم لي.

- وليه اختاروكِ إنت بالذات؟

ـ مش عارفة. يمكن لاقوني حافظة الفصول اللي كانوا بيدرسوها لنا من الميثاق في حصص اللغة العربية! وإنت إزاي اختاروكِ؟

ـ أنا زيك مش عارفة! يمكن عشان غلباوية، باحب أتكلم، وباحب عبد الناصر قوي.

أخرجت «سهير» من جيب حقيبتها راديو ترانزستور، وبدأت تدير محطاته. هندام «سهير» وطريقة حديثها يدلان على أنها من عائلة متوسطة الحال. علمت أن والدها يعمل مهندسًا في أحد المصانع بإمبابة. لم تَسأل عن عائلتي ومهنة والدي، أعتقد بأن ذلك مُريح لكلينا. فردتُ الصحيفة، وتَشاغلت بها.

انتبهت إلى «سهير» وهي تناديني لننزل من القطار. قالت بمرح:

ـ وصلنا إلى محطة الإعداد الثوري!

المعهد غير بعيد عن محطة القطار، بضع خطوات ونكون على بوابته. فوق البوابة لافتة كُتب عليها بخط جميل «معهد الشباب الاشتراكي». ساحة المعهد واسعة، بها أشجار كبيرة ذات ظل وافر. لعله أقيم على أنقاض غابة شجرية. علمت فيما بعد، أنه كان معسكرًا كشفيًّا. أول ما رأينا، كانت خيمات بيضاء منصوبة ومتناثرة في ساحته. هناك مبنى من الخرسانة المسلحة يحتل رُكنًا فيه، ومدرج حجري دائري مكشوف تتوسطه أرض يابسة كأنه مسرح

روماني، أو حلبة مصارعة للثيران. استرعى انتباهي مبنى خشبي عتيق، علمت فيما بعد أنه مدرج كبير لاجتماعات الأعداد الكبيرة من أعضاء المنظمة. توجهنا إلى الإدارة حيث أرشدنا أحد المسئولين إلى الخيمة التي سنعيش ونبيت فيها. تخففت أنا و«سهير» من حقيبتي الملابس اللتين أثقلتا كاهلينْا. أرشدنا المسئول الإداري إلى خيمة النقاش والدراسة. خيمة المعيشة تسع ٦ فتيات بأمتعتهن وفراشهن، بينما خيمة الدراسة تسع مكانًا لثلاثين دارسة مع الموجهين الذين سوف يديرون نقاشنا.

فوجئنا بتدفق فتيات في مثل عمرنا عبر بوابة المعهد. كانت المفاجأة الحقيقية التي أدهشتنا، أن الفوج الذي سيبدأ من الغد التدريب والإعداد سيضم ثلاثمائة من الفتيات! مجموعتنا الدراسية لن تزيد على ثلاثين دارسة.

أعطونا ورقة مطبوعة فيها جدول وتوقيتات محددة. في السابعة صباحا نستيقظ، وفي الثامنة نتناول إفطارنا في قاعة مبنية ملحقة بمطعم المعهد، وفي التاسعة يتم توزيع محاضرة اليوم مطبوعة علينا أن نقرأها بمفردنا، وفي الثانية عشرة نخلد إلى بعض الراحة، ثم نتناول الغداء في الثانية ظهرا. من الثالثة والنصف إلى الخامسة عصرًا نشاط رياضي أو ثقافي أو فني. في السادسة مساء، نلتقي في خيمة الدراسة ليقوموا بإدارة المناقشات الخاصة بالمحاضرة التي قرأناها في الصباح. ومن التاسعة مساءً نتناول العشاء، ومن بعدها وحتى الحادية عشرة مساء حفلة سمر نحضرها مع الموجهين

والمشرفين علينا.

لم ينسَ المسئول الذي قابلنا أن يثير انتباهنا إلى أن الموجهين سيكونون في ساحة المعسكر تحت الأشجار، إذا احتجناهم في الصباح لاستفسار هنا أو هناك في محاضرة كل يوم. حضرنا قبل بداية البرنامج بيوم، كما أشاروا علينا. بدأت الدارسات في التوافد طوال اليوم، وامتلأت خيمتنا، أنا و«سهير»، بأربع أخريات: واحدة من كلية طب «قصر العيني»، وثانية من كلية التجارة، وثالثة من كلية هندسة «عين شمس»، ورابعة من المعهد العالي للفنون المسرحية. بدا الأمر مثيرًا وجديدًا لي. اكتشفت أن ما أحضرته من طعام بلا فائدة؛ فقد كان المطعم الكبير بالمعهد، ولنقل المعسكر بحق، يقدم وجبتي الغداء والعشاء يوميا.

خلدنا في المساء إلى النوم، وكنت أفكر في التجربة الجديدة التي ارتضيتها لنفسي. عدم الاكتفاء بدبلوم التجارة المتوسطة، والإصرار على دخول المعهد العالي جنبًا إلى جنب مع العمل، والانخراط في نشاط سياسي، كان كل ذلك تحديًا صعبًا. دخلت معاركَ؛ لأثبت لوالدي وعائلتي أنني قادرة على تحقيق ذاتي. كان أشقائي الثلاثة الذكور الذين يكبرونني، يتعجبون من استطاعتي إقناع عم «إدريس» بتحقيق طموحاتي. لم يُكمِلوا تعليمهم؛ فعمل أحدهم ميكانيكيًّا للسيارات بإحدى الوِرش بشارع «معروف»، بينما اكتفى الآخران بالعمل اليدوي في محال

وسط البلد. نظرات والدتي الأمية الفخورة بي، تشعرني بأنني «كِنداكة»، أميرة نوبية تهزم جيوش الرومان، بل قائدهم «الإسكندر الأكبر». لا أستطيع إنكار فضل الثورة و«عبد الناصر» على تحقيق طموحي. لولا مجانية التعليم، ومساندتهما حق النساء والفقراء في التعليم والمساواة وتكافل الفرص، لظللت بنت حارس عقار أبحث عن زوج من أسفل السلم الاجتماعي.

مرت الأيام الأولى لدورة الإعداد، كل يوم يحمل لنا الجديد من الخبرات والمعلومات. الموجهون والرواد والقيادات التي تشرف على المعهد، كلهم من الرجال. لاحظت أن بعضهم قد تجاوز مرحلة الشباب بقليل، بينما ما زال البعض الآخر في مثل أعمارنا. الفريق الأخير كان من قيادات المنظمة الذين اختيروا للجنتها المركزية، ولمتابعة شئون التثقيف والتدريب. في جلسة النقاش المسائية لليوم الثالث من دورة الإعداد، حضر إلى خيمتنا في معية المُوجِّه رجال، من بينهم شاب يبدو أنه متخرج حديثًا. قدمه لنا من يدير النقاش قائلًا: الأخ «حمزة النادي» الأمين العام المساعد بقيادة المنظمة. كنا نناقش المحاضرة التي قرأناها في الصباح، وكانت عن «التنظيم السياسي». في الخيمة ثلاثون فتاة، كنت اكتشفت من بينهن خمس عاملات من مصانع النسيج وأجهزة التلفزيون والنصر للسيارات، وصحفية تعمل بمجلة «حواء» النسائية التي تصدرها «دار الهلال». رفعتُ يدي طلبًا للحديث، وعندما

سمح المُوجِّه لي بالكلام، انطلقت متسائلة:

ـ الميثاق يقول: «كل الحرية للشعب، ولا حرية لأعداء الشعب»، ولكن من يحدد من هم «أعداء الشعب»؟ هل هم الرأسماليون مثلًا؟ ولكن أليست إحدى قوى تحالف الشعب العامل «الرأسمالية الوطنية»؟ تخلصنا من الاستعمار، والملك، وأعوانهما، ولكن هل ما زال بيننا «أعداء الشعب»؟!

ابتسم المُوجِّه ومن معه وسط همهمات ونقاشات هامسة ما بين الدارسات. فوجئت بعاملة مصنع التلفزيون ترفع يدها، وتتحدث:

ـ «أعداء الشعب» لن ينتهوا من الوجود، سيتجددون ويغيرون من جلودهم باستمرار. لصوص القطاع العام وأصحاب «الياقات البيضاء»، التجار المستغلون، وكبار المُلاك الزراعيين هم أيضًا «أعداء الشعب».

انهالت نظرات الإعجاب على المتحدثة من قيادة الجلسة، بينما لم تستطع بعض الدارسات كبح مشاعرهن؛ فصفقن استحسانًا. اضطر الأمين المساعد الشاب إلى التدخل، مشيرًا بإصبع سبابته يمنة ويسرة:

ـ لا تصفيق في النقاش. نحن لسنا في مباراة مصارعة. كل واحدة تدلي برأيها في حرية ودون محاولة لكبت الآراء الأخرى.

أحسست بالعرفان له، ونظرت إليه. وجدته هو الآخر

ينظر إليَّ من طرف خفي، وبتعاطف واضح. سمعت صوتًا يتهدج، وكله أنوثة طاغية. كان صوت الصحفية ذات الشعر الأشقر:

ـ الحرية لا يُمكن أن تُعطى للرجعية. حرية المرأة وحقها في الدراسة والعمل أعطتهما الثورة، ولا يمكننا التنازل عنهما. حرية اختيار الزوج وشريك العمر لا تتجزأ عن تلك الحرية.

سمعت تنهداتِ زميلاتي، بينما كانت الصحفية تواصل حديثها وتشير بأصابعها المصبوغة بلون طلاء أظافر أحمر فاقع. كان فستانها الغالي قد انحسر عن ركبتيها، فاحمر وجه المُوجِّه. كانت البلوزة والجوب الرخيصتان اللتان أرتديهما، قد اشتريتهما من محال «بيع المصنوعات» في نهاية «شارع ٢٦ يولية» بجنيهين إلا رُبع، قد بهت لوناهما. في التاسعة مساء، اتجهنا جميعًا إلى صالة الطعام بالمعهد لتناول العشاء. في الطريق إلى صالة الطعام، فوجئت بـ«حمزة النادي» ومعه موجه مجموعتنا يقتربان مني. سألني «حمزة»:

ـ ليه ما كلمتيش مناقشة، واكتفيتِ بالاستماع إلى الباقي حتى نهاية الجلسة؟

ـ تساءلت، واستمعت لإجابات كتيرة. مش نُص المعرفة برضك طرح السؤال؟

تدخل مُوجِّه المجموعة في الحديث:

ـ الأخت كريمة دايما نشيطة، وبتشارك بحيوية في النقاش.

سألني «حمزة»:

ـ إنتِ من النوبة ولا من أسوان؟

ـ من النوبة.

انسحب المُوجِّه من لسانه، وأضاف:

ـ الأخت بتشتغل وبتدرس في معهد الخدمة الاجتماعية في نفس الوقت.

شعرت بنظرة إعجاب في عينيْ «حمزة». عندما وصلنا إلى المطعم افترقنا. ذهبا إلى ناحية يتناول فيها الموجهون وقيادة المعسكر عشاءهم، بينما اتجهت إلى طاولة ناحية الدارِسات. اقتربت «سهير» بمقعدها مني، وسألت باهتمام:

ـ كانوا بيقولولك إيه؟

ـ ما فيش حاجة، مجرد تعارف!

همست «سهير» في أذني:

ـ خايفة يكونوا حسبوكِ من أعداء الشعب.

في حفلة السمر شاهدنا عرضًا، تضمن عزفًا موسيقيًّا على الكمان لإحدى طالبات «معهد الموسيقى العربية»، ورقصة شعبية تمثل فرح الفلاحين بقانون الإصلاح الزراعي ارتدت فيها فتيات جلابيب الفلاحين، ورسموا شنبات

بأقلام الكحل فوق شفاههم. وكان الختام قيام زميلتنا في خيمة المعيشة بإلقاء قصيدة لعبد الرحمن الشرقاوي بعنوان «رسالة من أب مصري إلى ترومان». قبل إلقاء القصيدة، وقف أحد قادة الدورة من الرُّواد، وتحدث عن إلقاء الولايات المتحدة القنبلة الذرية مرتين على «نجازاكي» و«هيروشيما» عقب نهاية الحرب العالمية الثانية. تكلم عن الضحايا المدنيين الذين قُتِلوا، واحترقوا في تلك الجريمة. أصابت إشعاعات تلك القنابل الذرية النساء الحوامل؛ فولدوا أطفالًا مشوهين تنتشر بينهم العيوب الخلقية. في لمحة ذكية، أشار إلى تكرار ذلك الآن في «فيتنام»»، وختم حديثه قائلًا:

ـ الإمبريالية الأمريكية اليوم تعيد ما فعلته منذ عشرين عامًا في اليابان، ليندون جونسون يُكرِّر جرائم ما فعله من قبل أحد أسلافه ترومان.

انجلَت موهبة زميلة خيمتي، وهي تعبر بقسمات وجهها وتلوح بيديها:

«ولكن كفى! لن تنال ابنتي.

وأقسم أن لن تنال ابنتي!

أتطفئ نظرتها الباسمة؟

أتقطع أطرافها الناعمة؟

أتجري دماء ابنتي في غد كنافورة ذرة تنسكب؟

أتنثر أشلاء اليانعات عليَّ حيث تضحك بين اللعب؟!

أتمزج لحم ابنتي بالتراب؟

كفى أيا هذا الإله الذي يلطخ بالوحل طهر السحاب!

أتنهش هذا الكيان النضر!

كفى يا أيها الهمجي الرهيب.. كفى أيا هذا الإله القذر!».

انطلقت بخيالي أغوص في تلك الصور الشعرية المتدفقة. كنت مشدوهةً بأداء زميلتنا، وكلمات شاعر قالها منذ عشرين عامًا. أفقت على تصفيق حاد يهز مدرجات المسرح الدائري. هذه القصيدة بالذات بحثت عنها فيما بعد، وحفظتها عن ظهر قلب!

طوال الليل كنت أشعر بأنني وجيلي محظوظان؛ لأننا وُلِدنا في مصر، وفي عهد «عبد الناصر». نقود شعوب العالم في معركة التحرر ضد الاستعمار بشكليه القديم والجديد. في أثناء نومي، استرجعت في الحلم كلمات الزعيم التي قالها منذ ما يقرب من عام في احتفال عيد النصر بمدينة «بور سعيد». رأيته واقفًا على منصة عالية، وأنا وحدي أمامه أتطلع إليه من أسفل المنصة:

«الذي لا يعجبه سلوكنا يشرب من البحر، والذي لا يكفيه البحر الأبيض يأخذ البحر الأحمر يشربه كمان. نحن لا نبيع استقلالنا من أجل ٣٠ مليون جنيه قمح أو أربعين

أوخمسين!»».

بعد أن أنهى خطابه، نزل من المنصة، ووضع كفه على كتفي بحنان. ابتسم ابتسامته الواسعة، وسأل:

- عاملة إيه يا كريمة؟ مبسوطة؟ بتشتغلي وتتعلمي؟

تلعثمتُ، أصابني شلل المفاجأة. الرئيس المعلم القائد يحدثني وحدي، ويحنو عليَّ، أنا بنت الناس الفقراء! فجأة ظهر رجال كثيرون يرتدون بذلات غامقة، وتحلقوا حوله. لم أعُد أراه، ولا هو يراني. ذهب معهم، ووجدت نفسي وحيدة في سرادق كبير مليء بمقاعد شاغرة. كنت ألوم نفسي؛ لأنني لم أستغل الفرصة، وأحكي له عن بيوت أهل النوبة والتعويضات البخسة التي نتلقاها من الحكومة. كنت أريد أن أبلغه بخجلي من ملابس أشترِي قماشها من «أم محمد» الدلَّالة التي تأخذ استمارات القماش بعشرين جنيهًا من موظفي وعمال الحكومة والقطاع العام، التي تقتطع ثمنها الحكومة ثلاثين جنيهًا من مرتباتهم على أشهر طويلة، ثم تقوم ببيعها لي ولغيري. في تلك اللحظة رأيت أمين مساعد المنظمة الشاب يدخل السرادق، ويشير إليَّ كي أقترب، ثم يسأل:

- يا ترى، أم محمد من الشعب ولا من «أعداء الشعب»؟

أضطرِبُ ولا أعرف الإجابة. أعرف أنها تجري على أيتام، وأن رأسمالها لا يتعدى ستين جنيهًا، وأن قطع أقمشة «البفتة» و«الكستور» و«الباتيستا» و«اللينوه» التي تحملها

في بُقجتها المصرورة نُفصِّلها عند الخياطة»، فنبدو متوسطي الحال. «أم محمد» تعيد توزيع الثروة! تفُك ضِيقة موظف الحكومة البسيط، فيأخذ مبلغًا معتبرا من المال دفعةً واحدة منها، فيدفع مستحقات الأعياد ونفقات دخول المدارس. صحيحٌ أنه يظل يسدد ما أخذه منها بزيادة ٥٠٪ للحكومة على عدة أشهر، إلا أنها تجده في الملمات المتكررة. يملأ ناظري وجه «أم محمد» المُتعب بلونه المخطوف المصفر بسبب الأنيميا. تسألني وتشير إلى صدرها:

ـ أنا يا كريمة؟ أنا عدوة الشعب؟!

تجمع بضاعتها في البُقجة في تسرُّع، وتُهرول في الشارع فارةً من رقابة الشرطة ورجال التنظيم السياسي. تلتفتُ إليَّ برأسها، وفي عينيها نظرة عتاب ممزوج بمرارة:

ـ ما كانش العشم!

أصحو على لكزات وكلمات بصوت «سهير» تُنبِّهني:

ـ اصحي يا كريمة. إنتِ عندك كابوس ولا إيه؟

فاصل

ظلام الغرفة دامس، لا يسمح برؤية يده. الجسد الدافئ الذي رواه وارتوى، يرقد بجانبه. رأسها على صدره، وذراعه اليسرى تلتف حول خصرها. النشوة والمتعة متلازمتان. المرأة والمزاج والكيف ملاذاته في زمن أخذ فيه صديق عمره كل شيء؛ الزعامة والشعبية العارمة والأضواء المسلَّطة. لم يبقَ له سوى الجيش. يتوق إلى أنفاس سيجارة. تتسلل يده اليمنى نحو سطح الكومودينو بجواره، حيث وضع علبة سجائره وعلبة ثقاب صغيرة فوقها. يقبض كفه على العلبتين، يجذبهما، ويسندهما فوق ظهرها العاري. بسبابته وإبهامه يلتقط سيجارة من العلبة، يخلص ذراعه اليسرى من جسدها. لكنها تظل ملتصقة به، وجهها قريب من وجهه، وشفتاها تلثمان عنقه. يمسك بعلبة الكبريت، يأخذ منها عودًا، يحكه في جانبها فيشتعل. لحظة، بل ومضة واحدة كانت كافية لتضيء وجهه. اتسعت حدقتا عينْيها، وندت من فمها لثانية صيحة اندهاش. كان هو بشاربه الأنيق وملامحه الوسيمة. عيناه تبرقان، ووجهه يفيض وداعة.

قالت:

ـ عرفتك أيها القائد!

ابتسم ضاحكًا، وجذب نفسا عميقًا من الدخان:

ـ بجد؟!

٥

سأظل أذكُر هذا اليوم طوال عمري. ١٨ نوفمبر عام ١٩٦٥.

كلما ذكرت لأحد ما حدث في اليوم التالي بعد الرؤيا التي رأيتها في منام تلك الليلة في «معهد حلوان»، اتسعت حدقتا عينيه، وبدا غير مُصدِّق. قليل ممن عرفتهم فيما بعد صدقوني، وأطلقوا عليَّ «الشيخة كريمة»!

صحوت مبكرًا بعد أن أيقظتني «سهير». حاولت النوم مرة أخرى، لكنني لم أستطع. من المؤكد أن حلقة نقاش الأمس، وما دار فيها قد أثَّرا على عقلي الباطن. ربما كانت حفلة السمر المسائية، وقصيدة «الشرقاوي» الشاعر قد أضافتا رتوشًا درامية لحلم ليلتي الماضية، أو ربما قد أثقلت في وجبة العشاء! ذهبت إلى حمامات المعسكر لأغتسل، أخذت فرشاة الأسنان والمعجون بيدي اليمنى، ووضعت المنشفة على كتفي اليسرى. لاحظت وجود وجوه غريبة في المعسكر. المُوجِّهون وقيادات المعهد موجودون منذ الساعة السابعة صباحًا.

في المطعم، أخذت صينية معدنية مقسمة. وقفت في طابور متنقل أمام مجموعة من الطهاة يوزعون علينا الإفطار. كبشة فول مدمس، وبيضة مسلوقة، وقطعة جبن بيضاء، وملعقتان من المربى. صبوا لنا شايًا في كوب زجاجي، بينما أخذت رغيفًا من الخبز البلدي من رف في نهاية

منضدة المناولة. التفَّت بنات خيمة معيشتنا حول إحدى الطاولات، جلسن يتهامسن ويتناولن طعامهن. تبدو طالبة معهد الفنون المسرحية كملكة مُتوَّجة بعد حفل سمر الأمس. الكل يمدح أداءها. حتى صحفية مجلة «حواء» جاءت من طاولتها؛ لتبدي إعجابها وتأثرها بها. أحنت «سهير» رأسها وهي تهمس لنا:

- مش حاسين بحاجة غريبة في المعهد؟!

وافقها البعض، بينما كانت أخريات ما زلن في حالة عدم اتزان بعد الصحو مبكرًا من النوم. انبرت طالبة الطب لتؤكد هامسة أنها قامت بالركض في الصباح، وشاهدت عند بوابة المعهد الرئيسية ضباطًا وجنودًا بملابس الجيش، يعتمرون بيريهات زرقاء على رءوسهم. اختلفت البنات في تخمين إلى أي فرع من القوات المسلحة ينتمي هؤلاء الجنود، حتى أكدت طالبة هندسة «عين شمس» أن هذا الزي يخُص «الحرس الجمهوري». يبدو أن ظهور الضباط والجنود، كان حديث طاولات أخرى عديدة. الناحية التي تجلس فيها قيادة المعهد والموجهون، لم تخلُ أيضًا من الهمسات. ذهبت الصحفية الجريئة إلى مُوجِّه مجموعتنا لتسأله، بينما كان يتناول فطوره مع زملائه. أبلغها أنهم يتوقعون زيارة من السيد «علي صبري» الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي. جاءت بالخبر منتفخة الأوداج، وكأنها قد اصطادت ذئبًا من ذيله!

لم نكد نكمل إفطارنا، حتى سمعنا من مكبر الصوت في

صالة المطعم صوت أحد قيادات المعهد، ينبئنا بأن برنامج اليوم قد تغير. قال إن توزيع محاضرة اليوم سيكون كالمعتاد في التاسعة، ولكن حلقة النقاش ستبدأ في خيمات المجموعات في العاشرة صباحًا، بدلًا من السادسة مساءً. أضاف هذا التغير المفاجئ إلى البرنامج اليومي المزيد من الإثارة والفضول في نظرات عيوننا وهمساتنا.

استلمت نسخة ورقية من المحاضرة. نظرت إلى صفحة الغلاف، فوجدت العنوان: «قضية فلسطين والصراع العربي - الصهيوني». عندما دخلت خيمة مجموعتنا، وجدتُ أربعة رجال يظهرون لأول مرة معنا. كل واحد منهم أخذ رُكنًا من أركانها الأربعة، وجلس فيه. جلستُ على كرسي خيزران من كراسي الدارسات التي كانت كعادتها مصطفة في ثلاثة صفوف تتوازى مع ثلاثة أضلاع الخيمة، بينما شغلت الضلع الرابع منضدة ومقاعد الموجهين وبعض قيادات المعهد. كان وجود الرجال الغرباء مثيرًا للفضول، لكن لم تنبس أي واحدة منا بتساؤل عمْن يكونون. نظرتُ إلى أحدهم، فوجدت جيب بنطاله الخلفي منتفخًا. خُيِّل إليَّ أن مقبض مسدس معدني يبرز من تحت جاكتة بذلته.

بدأ المُوجِّه النقاش بسؤال عن ارتباط «مصر» بقضية «فلسطين»، وتتالت المداخلات من الفتيات. بعد نصف ساعة اندفع إلى داخل الخيمة رجل يرتدي نظارة شمس، ووزع نظراته في أرجائها. في إثرِه دخل رجل آخر طويل

القامة، انحنى ليدخل من باب الخيمة. هول المفاجأة لجم ألسنتنا، فتوقفت المناقشة. إنه هو بشحمه ولحمه، «عبد الناصر» بابتسامته الواسعة وفوديه الأبيضين. خلع نظارته الشمسية، وأشار بأصابعه للرجال الغرباء الأربعة ليخرجوا من الخيمة. غادروا الخيمة، ولكنهم لم يغادرونا. وقفوا خارجها، وفكوا الجزء الأعلى من قماش أضلعها الأربعة عن سقفها. تكونت نافذة تحيط بأضلع الخيمة من الجهات الأربع، لا يتعدى عرضُها خمسين سنتيمترًا. ظل الحراس الشخصيون ينظرون إلينا من خلالِها. جلس «عبد الناصر» أمامنا، ومعه «عبد الحكيم عامر» و«علي صبري» وأمين القاهرة «عبد المجيد فريد» وأمين المنظمة الدكتور «حسين كامل بهاء الدين». نظر «عبد الناصر» إلى المُوجِّه، وقال:

ـ استمروا في النقاش!

كيف واتتنا الشجاعة لندلي بآرائنا ونناقش، وهو يستمع؟! كانت كل واحدة منا تنتفض في داخلها، فقد رأت الزعيم القائد رؤى العين. سترجع إلى عائلتها بعد الدورة التثقيفية، لتخبرها بأنها جلست مع «الرَّيِّس» حبيب الملايين، بينما تحوطها نظرات عدم التصديق والانبهار. يبدو المُوجِّه رابط الجأش، لكن نظراته الجانبية التي يسترِقها إلى وجه «عبد الناصر» تفضح حاله. أخرج «عامر» سيجارة من علبة سجائره وأشعلها، وبدأ يدخن وينظر إلى سقف الخيمة. «علي صبري» ينظر إلى أوراق المحاضرة، ويستمع بتركيز. رفع «عبد الناصر» يده للمُوجِّه،

وبدأ في الحديث دون انتظار إذن منه:

- دورنا هو مساندة الشعب الفلسطيني وطلائعه المسلحة لتحرير أرضه. نمدهم بالسلاح، ونُدرِّب جيش التحرير، ونساندهم دبلوماسيًّا وإعلاميًّا وفي كل المنظمات الدولية. لكن تحرير فلسطين يقع بالأساس على أهلها الفلسطينيين.

انتهت المناقشة، وخرج «الرَّيِّس» من الخيمة ومعه الضيوف. بقينا بلا حركة، وكأن على رءوسنا الطير. ما زال حراسه الأربعة الشخصيون واقفين يمنعون خروجنا. قال المُوجِّه:

- سينعقد الآن لقاء مفتوح يضم خريجي أفواج الدورات السابقة، وفوجكم - فوج البنات - في المسرح الدائري مع السيد الرئيس.

عندما سمحوا لنا بالخروج من الخيمة، ركضنا وراء مُوجِّهنا وبعض قادة الدورة في دائرة واسعة بين أشجار الغابة، كي نلحق بالمؤتمر. اخترق «عبد الناصر» ومعيتُه المعهد، ومنشآته عبر طريق مختصر. ورغم ذلك استطعنا الوصول قبله، وأخذنا أماكننا في المدرج الروماني المفتوح. الساعة جاوزت الواحدة ظهرًا، أشعة شمس الشتاء ليست حامية. مدرجات المسرح الحجرية تمتلئ بخريجي الأفواج السابقة. علمنا أن قيادة المعسكر استدعتهم في الليل عبر مُبْرَقات وصلت أولًا إلى أقسام «المنظمة» و«الاتحاد الاشتراكي»»، ثم تم إبلاغهم في بيوتهم بالحضور إلى مقر

المعهد في «حلوان» صباحًا. ما زلنا في حالة ذهول من المفاجأة. أنا مضطربة للغاية، فبعد حلم الأمس الذي لم أخبر به أيًّا من زميلاتي، أصبحتُ لا أعرف الحقيقة من الخيال. أفرُك عينيَّ، بل أكاد أقرص ذراعي حتى أتأكد مما أشاهده.

- يا ترى حِلم ولا عِلم؟!

تنتبه «سهير» التي بجانبي، وتؤكد:

- عِلم يا كريمة، عِلم!

لم أخبرها بحلم الأمس الذي ظنّته كابوسًا. وضعوا في ساحة المسرح الدائرية أسفل المدرجات منصة عليها منضدة طويلة، وخلفها كراسٍ كثيرة. على المنضدة ثلاثة ميكروفونات وزجاجات مياه غازية ومنافض سجائر. ترُج الهتافات المسرح بقيادة الموجهين والقيادات: «ناصر يا حرية، ناصر يا اشتراكية»، «حرية.. اشتراكية.. وحدة».

في لحظة واحدة، تندفع أصوات الشباب ومعهم الشابات في لحن مبهج:

«أديك أهه خدت العضوية

وصبحت في اللجنة الأساسية

أبو زيد زمانك، وحصانك

الكلمة والخدمة الوطنية

ودي مسئولية»

تجتاحنا الحماسة ونبدأ في غناء مقطع آخر من أغنية «عبد الحليم حافظ»، مغني الثورة، الذي أنشدها في احتفال عيد الثورة منذ عامين:

«ما فيش أنا، فيه إحنا يا صاحبي

أنا وانت، وانت، وهو وهيه

علينا نعمل لاشتراكية»

حراس شخصيون ورجال مخابرات ينتشرون في أعلى مدرجات المسرح. أخلوا ناحية من المدرج الدائري تقع خلف مقاعد المنصة. بضعة رجال يجلسون فرادى في تلك الناحية. دخل «الرَّيِّس» ومعه مرافقوه، التهبت أكفنا بالتصفيق. كان يرتدي نضارة الشمس «البريستول». صدَح السلام الجمهوري «والله زمان يا سلاحي» من مكبرات الصوت. الكل يقف في خشوع وتصميم. جلس «عبد الناصر»، ونظر إلينا في المدرجات. ثلاثة صفوف من المقاعد الحجرية نجلس عليها، وتحيط به من ثلاثة جوانب. ينظر إلى أعلى، يتمعن بنظرات صقر حادة فينا. يبتسم، ويلوح بكفيه لنا. يشعر كل واحد منا بأنه يقصِده ويحييه. وقف أمين عام «منظمة الشباب» ليدير الحوار. فتح «عبد الناصر» الميكروفون الموضوع أمامه، وقال له:

ـ أنا عاوز أدير الحوار بنفسي، استريَّح إنت النهارده.

تجاوبت ضحكاتنا مع «الرَّيِّس». يبتسم «عامر»، ويهمس في أذنه.

ثلاث ساعات متواصلة من النقاش، و«عبد الناصر» منطلق في حديثه. أعطى الكلمة لثلاثة أشخاص من كل صف من الصفوف الدائرية حوله. تنظر عيناه إلينا، ويتعلق بؤبؤهما إلى أعلى. شعرت في بعض الأحيان بأنه لا ينظر إلينا، بل إلى الفراغ والسماء فوق رءوسنا. أنتبه على قوله:

«أنا بنام مطمئن دلوقتِ، في كوادر في منظمة الشباب بتحمي الثورة، وفي طلائع ثورية في الاتحاد الاشتراكي بتسهر على مسيرة ثورتنا. تنظيم «طليعة الاشتراكيين» هو الذي يقود التنظيم السياسي».

كانت أول مرة نسمع بها عن وجود تنظيم سري داخل الاتحاد الاشتراكي. أدرتُ نظرِي في المدرجات حولي، لم أجد الأمين المساعد الشاب. انتهى المؤتمر في حوالي الساعة الثالثة عصرًا. خرج «عبد الناصر» ورجاله، وبدأ المعهد يستعيد هدوءه رويدًا رويدًا بانصراف أعضاء المنظمة من الدورات السابقة. اتجهنا لتناول الغداء في مطعم المعسكر، فوجئت بوجه «حمزة» أمامي. كان مبتهجًا وسعيدًا. سألنا بصوت مرتفع:

- إيه رأيكم في المفاجأة دي؟!

تواترت الردود المرحة عليه من البنات. في أثناء الغداء،

أعلنت قيادة دورة التثقيف أن برنامج اليوم قد انتهى، وأن بإمكاننا زيارة معالم «حلوان» القريبة حتى موعد العشاء. قررت مع بعض البنات زيارة «الحديقة اليابانية». خرج معنا بعض الموجهين و«حمزة». ذهبنا سيرًا على الأقدام. اقترب منا «حمزة النادي» وسأل:

- يا ترى جيتم قبل كده هنا؟

أجاب أغلبنا بالنفي. أخذ «حمزة» على عاتقه مهمة الدليل السياحي؛ ليُعرِّفنا على الحديقة. لاحظت نظراته وابتساماته الموجهة ناحيتي. جلسنا على سطح التل الذي يحتوي على تماثيل المعلم «شيبة» وتلاميذه الأربعين بأزيائهم البوذية. كان بجوارنا قُرداتي يروض نسناسًا صغيرًا مربوطًا بسلسلة معدنية إلى معصمه، بينما يُمسِك رِقًّا يضرب به. ويغني أمام حلقة من الأطفال: «الليل الليل يا ميمون». يتقلب النسناس، ويتمرغ في الأرض. انشغلت البنات بالعرض الفلكلوري. جلس «حمزة» بجانبي، وأشار إلى ثلاثة تماثيل لقرود ثلاثة: أحدهم يضع كفيه على عينيه، والثاني يضع إصبعًا في كل أذن من أذنيه، والثالث يضع كفه على فمه. قال «حمزة»:

- «لا أسمع.. لا أرى.. لا أتكلم».. حكمة صينية قديمة، رأيك إيه فيها؟

فوجئت بسؤاله، وأردت أن أجيب بسرعة قبل أن تأتي البنات. هززت رأسي يمنة ويسرة، وقلت:

ـ حكمة تليق بالجبناء اللي بيقبلوا بالأمر الواقع. ما أعتقدش إنها تناسب ناس أعضاء في منظمة الشباب!

ـ كده تعجبيني، عارفة الناس بتقول على تمثال المعلم والأربعين تلميذ اللي حواليه إيه؟

ـ لأ.

ـ علي بابا والأربعين حرامي!

ضحكت من الخيال الشعبي. في كلمات سريعة وجمل مقتضبة، حكى لي حمزة عن نفسه وتفرغه للعمل السياسي في المنظمة. حكيت بدوري عن عائلتي، وعملي، وظروف معيشتي في عائلة كادحة. كانت نظراته حنونة، ووجهه مبتسمًا حين صرح لي:

ـ أحب أشوفك في مقر المنظمة بالزمالك لما ترجعي.

أخرج ورقة من جيب قميصه، قسمها نصفين. كتب على نصف منها ثلاثة أرقام: تلفون المنزل، و«المنظمة» في «الزمالك»، و«أمانة الشباب» في الدور التاسع بمبنى «الاتحاد الاشتراكي» على «كورنيش النيل». أعطاها لي بسرعة. قلت له في أسف:

ـ ما عندناش تلفون في البيت، لكن تلفون الشركة اللي باشتغل فيها ممكن!

ناولني النصف الثاني من الورقة وقلم الحبر الصيني، فكتبت رقم مكتب الشركة. اقتربت البنات منا بعد

مشاهدة القرد والقرداتي. سألت «سهير» بخُبث:

- بتتكلموا في إيه؟

فاصل

١٣ سبتمبر ١٩٦٥..

اليوم افتتاح مؤتمر القمة العربية الثالث بالدار البيضاء. قبلها بأيام، عقد وزراء خارجية اثنتي عشرة دولة عربية، وممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية اجتماعات للتحضير لقمة الرؤساء. غابت «تونس» عن المؤتمر لخلافات مع «مصر». قبل المؤتمر بأيام، كان وفد من «الموساد» الإسرائيلي برئاسة «مائير عميت» مدير المخابرات الإسرائيلية قد احتل جناحًا في نفس فندق المؤتمر، بترتيب مع السلطات المغربية. وضع الإسرائيليون أجهزة التسجيل بالصوت والصورة في قاعة الاجتماعات الرئيسية. لكن السلطات المغربية خشيت افتضاح الأمر، فأجلَتهم عن الفندق قبل انعقاد الجلسة الافتتاحية بأربع وعشرين ساعة. ظلت أجهزة التسجيل تعمل.

أصر رئيس سوريا «أمين الحافظ» على عقد جلسة سرية تقتصر على الرؤساء والملوك وحدهم، ومع كلٍّ منهم واحد فقط من وفده. عرض «أمين الحافظ» فكرته بضرب رأس الأفعى «إسرائيل» على رأسها، بدلًا من تحويل مياه نهر الأردن. وطالب بحشد الألوية العربية القادرة على هزيمة «إسرائيل». كانت مطالب الوفد السوري: تحرير كل فلسطين، وشن حرب تحرير مقاطعة «عربستان» في «إيران»، والقيام بتحرير لواء «الإسكندرونة» الذي احتلته

تركيا بالقوة، وتحرير «الجنوب العربي» فورًا.

بعد انتهاء المؤتمر قامت السلطات المغربية بإعطاء التسجيلات الصوتية، والمحاضر، والأوراق للمخابرات الإسرائيلية.

٢٩ أكتوبر ١٩٦٥..

في المقابل، وردًّا للجميل، قام «الموساد» باستدراج الزعيم المغربي المعارِض «المهدي بن بركة» من «جنيف» إلى «باريس». استطاعت المخابرات الإسرائيلية الاستدلال على مكان إقامته في «جنيف» من اشتراكه في إحدى الصحف الفرنسية. قام الإسرائيليون بتزويد الفريق المغربي بجوازات سفر مزيفة. بعد تعذيب «بن بركة» في ضاحية باريسية، تم قتله ودفن بقاياه في حديقة عامة داخل «باريس»، بعد تذويب جثته بحامض قدمه الإسرائيليون. تتحدث بعض الحكايات عن نقل رأسه إلى «المغرب»، حيث قُدِّم على صحن إلى العاهل المغربي!

٦

فتحت «حنان» باب الشقة ملتاعة، وفي حالة شديدة من القلق. بادرتني بصوت عالٍ:

- إيه اللي بيجرى ده؟ ما فيش في إذاعة مصر أي خبر إلا إعلان حظر التجول! التلفونات مقطوعة، حتى المحمول. لولا البواب جاب العيش والباتون ساليه وشوية أجبان من السوبر ماركت اللي على الناصية، ما كنتش لقيت عشا.

- شوية مظاهرات طلعت بعد صلاة الجمعة، مش قادر أحدِّد مستقبل الأحداث. أنا تعبان، سيبيني آخد دُش سُخن. بعدين نتكلم.

لاحظت أن شاشة التلفزيون في غرفة الاستقبال تومض، وتصدر عنها أغنية وطنية. بينما كان المذياع أيضًا مفتوحًا على إذاعة «لندن». تحت خيوط المياه الساخنة، كان ذهني مشغولًا بحال البلد. يوم قيامة جديد تشهده مِصر. عندما خرجت من الحمام، انتبهت على صوت مذيع ينبئ المشاهدين، بأن الرئيس «مبارك» سيُوجِّه خطابًا إلى الشعب.

جلست مع «حنان» وراء منضدة السفرة لتناول الطعام. علمت منها أن «الشغالة» لم تجئ اليوم لتنظف الشقة. سألتني:

ـ تعتقد إن الموضوع هيطوّل؟

ـ إنتِ مش قلتِ الصُّبح إنه لعب عيال، و«زوبعة في فنجان»!

ـ ما كنتش عارفة إنه هيقلب بجد.

ـ أهو قلَب بجد، ربنا يُستر.

خرجت «حنان» لتستقصي الأخبار من الجيران في نفس الطابق. حاستها الصحفية تعمل، رغم أنها استسلمت منذ زمن للروتين في المؤسسة الحكومية التي تعمل بها. لم نُرزق بأطفال رغم محاولاتنا لعلاجها من العُقم. استسلمت للمكتوب، واكتفت بأولاد أخواتها وإخوتها لتمارس نوعًا من الأمومة الناقصة.

طال انتظار خطاب «مبارك»؛ فغيرت توليف المحطات الفضائية، وشاهدت تقاريرَ عن مظاهرات اليوم في قنوات «الجزيرة»، و«العربية»، و«بي بي سي» العربية. جاءت «حنان» وجلست صامتة بجانبي. كانت متوترة للغاية وكأن أعصابها عارية. تبحث عن نشرات الأخبار في القنوات المختلفة بعصبية. تنفلت جملة مكررة من بين شفتيها:

ـ يا ترى «الرَّيِّس» هيقول إيه؟

سرحت بخاطري بعيدًا، ومرت بذاكرتي الأحداث الجسام التي مرت بمِصر. تلك التي عاصرتها طفلًا، وشابًّا،

وبالغًا، وشيخًا. حرب الفدائيين بمنطقة القناة، وقيام الثورة، والعدوان الثلاثي، وحرب اليمن، وحربا ٦٧ و٧٣، وزيارة السادات للقدس، واتفاقيات كامب ديفيد، ومقتل السادات. عواصف عاتية مرت بالبلد. لم تعرف مصر الاستقرار إلا في عهد «مُبارك»! استقرارٌ تحوَّل إلى ركود.

تلاطمت الأفكار في عقلي، ورأت عينايَ مشاهد مشوشة لذكريات عشتها. وثَبّتتْ ذاكرتي على لحظة فارقة. تذكرت صيف عام ١٩٦٦، وما تبعه من أحداث.

كُنت قد أنهيت عملي بمقر الجريدة، وقبل أن أغادر مبنى «الجمهورية» اتصلت بزوجتي «فاتن» في عملها. أخبرتُها بعودتي في المساء المتأخر إلى المنزل. شققت طريقي إلى شارع «عماد الدين»، ومشيت في اتجاه شارع «٢٦ يولية». دخلت مطعم «نيو كورسال»، واتجهت إلى الخزينة القريبة من الباب التي تقع ما بين منطقة الخدمة الذاتية، وبين بقية المقهى الذي يجلس على مقاعده المعدنية الخضراء والحمراء ذات الإطار الأبيض رجال ونساء. الجرسونات من ذوي البشرة السمراء الداكنة، في الغالب من النوبة، يرتدون قفاطين بيضاء مضمومة بحزام أحمر قانٍ، وتعتلي رءوسهم طرابيش حمراء بشرابة زرقاء. اشتريت سندوتشيْ مخ «بانيه» بخمسة قروش صاغ، وضعهما عامل على طبق معدني بجانب مخللات. أخذت الصحن، وذهبت إلى رف معدني بجوار الحائط لأتناول

غذائي. وضع نادل كوبًا من ماء بارد أمامي، فشكرته. نظرت إلى ناحية طاولات المقهى، فوجدت شرائح باردة من البطيخ داخل صحون بيضاء كبيرة أمام بعض الزبائن. اجتذبت انتباهي امرأة ذات ملامح أجنبية تضع شريحة البطيخ أمامها، ثم تقوم بسكين بفصل قشرة البطيخ الخضراء السميكة عن نسيجه شديد الحمرة. باستمتاع شديد، تبدأ المرأة باستخدام السكين لانتزاع البذور السوداء، وتضعها في منفضة السجائر. تمسكُ بيدها الشوكة المعدنية، وتبدأ في تقطيع شريحة البطيخ إلى قطع مستطيلة، ثم تضع واحدة منها في فمها وتلوكها. كانت بجانبها سيدة أخرى تحدث إليها بصوت عالٍ بالفرنسية.

أحسست بخبطة خفيفة على ظهري، وصوت مألوف يناديني:

- سَرْحَان في إيه يا عبد المعطي؟

التفت إلى الصوت، فوجدت «سيد حجاب» بوجهه الضاحك. «سيد» يسكن قريبا من هنا. ما زالت لهجته متأثرة بلهجة موطنه الأصلي؛ «المطرية» في شمال الدلتا. أبتسِم، وأرُد:

- في الكون يا جميل. هنشوفك النهارده في شقة العجوزة؟

- لا، ما أعتقدش. النهارده سماح بقى.

يذهب «سيد» دون أن يتناول شيئا. كان قد رآني من

زجاج شباك المقهى.

سور «الأزبكية» قريب من هنا. أنطلق إليه، وأتسكع أمام مكتباته. أُطالِـع عناوين الكتب الموضوعة على مناضد ورفوف خشبية أمام أكشاك باعة الكتب القديمة حول الحديقة. أمسك بالكُتُب، وأطفئ فضولي بتقليب صفحاتها. يكاد يطاردني غلاف كتاب «اللا منتمي» للبريطاني «كولن ولسون» عند كل بائع. أغلفة طبعات دار «العلم للملايين» ودار «الآداب» متجاورة. بمجرد أن أُقلِّب في صفحات الكتاب، وبمخابرة ملمس الورق، أُدرِك أنه تم تزويره في مطابع مجهولة بالقاهرة. تبدو الفلسفة الوجودية ومنظروها قد وضعوا أقدامًا ثابتة في أرض المحروسة. نُسخ كتاب «سارتر» عن «الوجود والعدم» الذي ترجمه «عبد الرحمن بدوي» الأستاذ بجامعة عين شمس، يُمكِن ملاحظتها في بعض الأكشاك. تبدو الحكومة متسامحة للغاية مع الفلسفة الوجودية!

أدخل من باب حديقة «الأزبكية»، وأمشي في ممراتها. أتجه إلى مناضد «الكازينو» التي تستظل بأشجار عملاقة. ها هي منضدة خالية قريبة من نادي «سلاح الشيش المصري». أجلس إليها، وأنتظِر ظهور صديقي «عبد الرسول». نوافذ نادي السلاح واسعة وكبيرة، أرى من مكاني تدريباتهم. انجذبت نظراتي إلى الزي الأبيض الغريب الذي يرتدونه، وغطاء الرأس المغطى من أمام الوجه بشبكة معدنية تسمح بالرؤية، وتمنع وصول طرف

السلاح إلى وجه المبارز. نسيتُ نفسي وأنا أتابع منازلاتهم. في كل مرة يلمس طرف سيف الشيش صدر المنافس، يصدر صوت كهربائي يوقف المبارزة. عجيب أمر هذه البشرية التي حولت سلاحًا قديمًا في الحروب إلى رياضة للترويح، واستعاضت عنه بأسلحة أكثر دمارًا ووحشية!

ظهر «عبد الرسول» بقامته القصيرة، واقترب مني مبتسمًا:

- يعني ما نشوفكش يا سي عبد المعطي إلا في الأماكن البرجوازية دي؟!

ضحكت من مزحته، وسألته عن أحواله. جاء «عبد الرسول» سيرًا على الأقدام من «السيدة زينب» حيث يعمل في مؤسسة «يوم المستشفيات». «عبد الرسول» صديق مُقرب من «صلاح عيسى». جمعتني معهما حلقة صغيرة من الماركسيين اسمها «وحدة الشيوعيين». منذ بداية العام الحالي تخلى عن التنظيم عدد لا يستهان به من الأعضاء.

قلت له:

- طلبت مقابلتي، خير.

- لماذا لم تعد تحضر اجتماعاتنا؟! هل قررت الهروب من التنظيم؟

- لم تعد تستهويني الاجتماعات السرية، الفنانون والأدباء

الذين لا يعجبونك تأثيرهم أقوى من ألف منشور وبيان. قصيدة من «الأبنودي» تصل إلى الملايين. يا صديقي، نحن مجتمع ثقافته شفاهية، يقرأ بآذانه قبل عينيه.

أخرج «عبد الرسول» ورقةً مطوية من جيبه، ووضعها على الطاولة بيننا.

ـ هاسيبهالك، خُدْها بعد ما أمشي.

سألني عن «فاتن»، وأضاف:

ـ واللهِ، فاتن خسارة فيك!

لم أشأ أن أدخل في نقاش معه، أعرف تحيزه وتعاطفه مع زوجتي. يعتبرها قديسةً لأنها تزوجتني بكل ما فيَّ من فوضوية الفنانين، وشطحات من يهوون الكتابة والسياسة. أجدُ نفسي كثيرًا متفقًا معه في تعاطفه. «فاتن» بالفعل قامت بتنظيم حياتي، وتُدرِك دوري ككاتب وصحفي. كم من مرة يجيء أصدقائي وزملائي لزيارتنا في البيت دون موعدٍ مسبق، فتخبِرهم بأنني منشغل بالكتابة والبحث. تستقبلهم في غرفة المسافرين، وتعزِم عليهم بالشاي فينصرفون دون مقابلتي. أشعر أحيانًا بالضيق من تصرفها هذا، ولكنني بفضل الجو الذي هيأته لي أنجزت مسودة كتاب، وأكاد أُنهِي كتابًا آخر.

انتبهت إلى أسئلته عن حال بقية شِلة الشعراء والفنانين والكتاب. ثم فاجأني بسؤال مُباغِت:

ـ علمت أن المناقشات التي دارت بين مجموعتنا عن ثورة ٢٣ يولية، سينشرها صلاح عيسى في بيروت.

ـ أين سينشرها؟

ـ مِش عارف!

كَذَبتُ عليه، فقد أخبرني «صلاح» أن مجلة «الحرية» التي يراسلها وتصدر عن حركة «القوميين العرب» في بيروت، قد طلبت منه سلسلة من المقالات عن ثورة يولية في عيدها الرابع عشر. رأيت أنه من الأفضل ألا تتناثر الأحاديث قبل النشر؛ حتى لا نثير حفيظة الأجهزة. كان «صلاح» قد أخبرني بالحكاية، وطلب مني الكتمان. كنت أعرف أن علاقته بدأت مع تلك المجلة منذ أكثر من ثلاث سنوات، ببعض مقالات كتبها ولم يتلقَّ مقابلًا ماديًّا للنشر.

تركني «عبد الرسول» بعد أن غرقنا في ثرثرات وأحاديث متفرقة. نظرتُ حولي جيدًا، وتأكدتُ من غياب المخبرين، ثم أخذت الورقة المطوية التي تركها أمامي. قررتُ أن أدُسَّها في جيب بنطالي؛ لأقرأها فيما بعد. تذكرتُ لقائي مع «صلاح» منذ أسابيع قليلة في مقهى «المالية» في ميدان «لاظوغلي». جاء صلاح مرتديًا قميصًا أبيض بنصف كم، وبنطالًا رماديًّا. فاجأني عندما أخبرني بأن رئيس تحرير مجلة (الحرية) «محسن إبراهيم» قد أرسل له خطابًا بالبريد على عنوان منزله، يطلب منه

أن يكون مراسلًا للمجلة بالقاهرة. كان عليه أن يستكتِب بعض الكُتّاب، ويرسل لإدارة المجلة دراستين فكريتين، أو ثقافيتين كل شهر. سألني:

ـ مش عاوز تكتب للمجلة مقالة؟

أجبته مترددًا:

ـ همَّ أخدُوا تصريح من الحكومة حتى يستكتبوك ويستكتبونا؟

وهنا، قهقه بملء فمه حتى اهتزت ساقه اليمنى التي يضعها على ساقه اليسرى. لاحظت أنه ينتعل صندلًا جلديًّا صيفيًّا ذا لون بني. انحنى بنصفه الأعلى تجاهي، وهمس:

ـ قابلت «محسن إبراهيم» من أيام، كان في زيارة مع وفد من حركة القوميين العرب للقاهرة، والتقوا مع «عبد الناصر».

انتبهت بِشِدة إلى ما يقول، وصِحتُ بصوت عالٍ:

ـ وبعدين؟!

نظر إليَّ بعتب، وأخفض من جفنيه العلويين ليُفهمني أنه يجب أن أتحكم في انفعالي، وأتحدث بصوت خفيض:

ـ الناس دول متحالفين مع عبد الناصر، قابلت محسن لأول مرة بناءً على طلبه في كافتيريا فندق النيل هيلتون. هو شاب أصلع، الذكاء بيشِع من عينيه. قال لي إنهم يحضروا أعداد متتابعة من المجلة للاحتفاء بثورة يولية،

وبيطلبوا دراسات ومقالات.

ـ وخدوا إذن من عبد الناصر؟!

ـ اللي فهمته إنهم أخدوا تصريح من رياسة الجمهورية للاستكّاب وعملي كراسل لهم.

ـ كويس، ولكن المجلة ومحسن إبراهيم محسوبان على اتجاه يساري داخل الحركة يخلط الماركسية بالقومية العربية.

ـ أعرِف كل ده، بس عبد الناصر يحب محسن بشكل شخصي. هتشارك معنا بالكّابة؟

ـ هافكر وأقولك.

ـ حكاية مراسلة المجلة دي جت نجدة من السما، تكاليف المعيشة في القاهرة مش هينة لأسرة حديثة من زوج وزوجة، متخرجين في الجامعة حديثًا. الشقة الصغيرة اللي بنسكن فيها في السيدة زينب، دفعنا فيها خِلو رِجل ألف جنيه.

وافقت «صلاح» هازًّا رأسي، والتفتُ ناحية مبنى «وزارة المالية» في الميدان، ومبنى «المباحث العامة». بالقرب من جلستنا، كان الموظفون المتقاعدون يجلسون حول المناضد ويلعبون النرد. ليس عبثًا أن يُطلِق البعض على هذا المقهى «قهوة المعاشات»! لكن العين لا تخطئ أيضًا وُجوه بعض المخبرين الذين يرتدون جلاليب بلدية،

وينتظرون مواعيد مقابلاتهم بالمباحث العامة.

أثارت مقابلتي مع «عبد الرسول» في كازينو «الأزبكية» سيلًا متدفقًا من ذكريات أغرقتني وجرفتني. سؤاله عن «فاتن» لم يأتِ من فراغ؛ فلقد كان شاهدًا على زواجنا. بل كان راعيًا لقصة تعارفنا، ومواكبًا لتطور العلاقة بيننا. تذكرت القرية الواقعة على «الرياح التوفيقي» التي غادرتها بعد انتهاء دراستي الابتدائية في مدرسة المدينة القريبة منها، ومعها أيام الإقطاعي الذي ألهَب ظهر عمي «السيد» بالسِّياط. انتقلتُ إلى القاهرة للدراسة في المدرسة الإعدادية ذات العامين، والمدرسة الثانوية ذات السنوات الثلاث. ضمتني غرفة في شقة ذات ثلاث غرف بحي «باب الشعرية»، مع شقيقي الأكبر «محمود» الموظف في وزارة الأوقاف. الجنيهات القليلة التي يقبضُها تكفي معيشتنا بالكاد. الجلوس في المقهى بشارع «الجيش» رفاهية لا أقدر عليها إلا كل خميس. في أغلب الأيام يخلو طعامنا من «الزفر»، ونتكرر فيه صحون الفول وأقراص الطعمية وقطع الجبنة القريش ذات الحزوز الرأسية المنتظمة. حِزم الفجل البلدي والجرجير تكفلت بإمدادنا بالفيتامينات، وقِرش الحلاوة الطحينية ضَمن لنا سعرات حرارية تكفينا للذهاب إلى آخر العالم. ركوب الأتوبيس و«الترولي باص» مقصور على الدرجة الثانية التي يفصلها عن الدرجة الأولى حاجز زجاجي مفتوح من منتصفه. نحن الآن في عام ٦٦، بعد الثورة باثني عشر عاما، وما زال الحاجز

منتصبًا ما بين الدرجة الأولى والثانية!

ما زال أمامي وقت كثير قبل موعدي، مع الأصدقاء في شقة العجوزة. لا أريد أن أذهب إلى بيتي. تسكعتُ في «شارع ٢٦ يولية»، وتأملتُ واجهات محاله الزجاجية. بدأ تعليق الزينات، واللافتات، وصور «عبد الناصر» بمناسبة عيد الثورة. دخلت محل «شيكوريل». البائعات في زِيِّهن الوردي وراء الأدراج والطاولات الزجاجية يتضاحكن مع الزبائن. المصاعد الثلاثة تتحرك بلا توقف بين طوابق المحل الأربعة. اشتريت بيجامة لي بخمسة وسبعين قرشا، وقيص نوم لفاتن بجنيه واحد وخمسة وخمسين قرشًا. انطلقت بعدها لأستقل «الترولِلي» رقم (٣٣) المكتوب على يافطته «الكيت كات». غادرته مقابل «مسرح البالون»، وعَبرت كورنيش النيل، ودلفت من جوار المسرح في شارع فرعي. شارع «أبو المحاسن الشاذلي» يبدو هادئًا قبيل المغرب. يبدو شباك الشقة مفتوحًا على آخره، ليصطاد نسمة هواء في حر الصيف. يبدو صوت مُستأجِرها الأصلي «سيد خميس» مُجلجِلًا عبر الشباك الواقع في الدور الأرضي. أدلِف عبر بوابة حديدية مكتوب فوقها رقم (٢٧) بلون أزرق. وأتجه إلى باب الشقة لأجده مواربًا.

يأتيني صوت «اللباد» رسام الكاريكاتير:

ـ حضر عبد المعطي، وفي إيده المَزَّة.

أجيبُه ضاحكًا:

ـ نقبَك على شونة! دي بيجامة ليَّ، وقميص نوم للمدام!

تظهر خيبة الأمل على وجهه. وأسمع «الأبنودي» بلهجته الصعيدية:

ـ ياما جاب الغراب لأمه!

أتطلع حولي، فأجد «صلاح عيسى» و«طارق البشري» و«محجوب» و«عز الدين نجيب» يجلسون أيضًا على حصيرة بسيطة على الأرض. تدور مروحة مكتب موضوعة في ركن الحجرة؛ لتخفف من صهد حرارة يولية. أخذت مكاني، واستندت إلى «شلتة» تفصل ما بين ظهري والحائط. والدة «سيد خميس» ـ الفلاحة الأصيلة ـ تعد طعامًا على قد الحال. تبدأ المناقشة حول مآل ثورة يولية. اتضح أن «محجوب» أيضًا كتب مقالًا عن الثورة سيدور حوله نقاش. تبدو تأثيرات الثورة الثقافية في «الصين» واضحة في أحاديث المناقشين، وكأن «الماوية» أصبحت موضة هذا العام والعام الأسبق. الانتقادات واضحة لسلوك وسياسات «عبد الناصر»، والضُّباط الذين يحيطون به.

أنظر إلى ساعتي، فأجد عقاربها تجاوزت التاسعة والنصف. تُصِر أم «سيد» على أن أتناول العشاء معهم. أعتذر متحججًا بأن «فاتن» متعبة، وأن القلق سيصيبها لتأخُّري. أنصرف، وأترُك دِفء الأصدقاء، ومناقشاتهم التي تمنحني الشعور بأننا نقرر مصير الكون بأفكارنا. عندما

وصلتُ إلى البيت، وجدت «فاتن» تنتظرني بفارغ صبر. أدركتُ لهفتَها الزائدة عن الحد، بينما نظرات العتاب تخترقني.

ـ اتأخرت ليه يا عبده؟! الساعة قربت من حداشر! إنت مش كان وراك كتابة النهارده في الفصل اللي ماخلصتهوش؟

أشعر أحيانًا بأنها غيورة بشكلٍ لا يطاق. تُريد أن تتحكم في ذهابي وإيابي، وبذكائها تستخدم مبررًا تعرف ضعفي تجاهه: الكتابة، والبحث الذى أقوم به عن مصر المملوكية. أظهرتُ ابتسامة باردة، واحتضنتها قائلًا:

ـ أنا ما تعشتش بره، ممكن نتعشى سوا.

أعطيتها اللفافة التي في يدي. فضَّتها فوجدت قميص النوم اللينو الجديد، والبيجامة الرجالي. ضحِكت، وذهبت لتُعِد العشاء. انتهزت الفرصة، فذهبت إلى غرفة النوم. قمت بتجريب البيجامة الجديدة، لا بأس بها. تبدو الأكمام طويلة بعض الشيء، سأطلب منها أن تقوم بتقصيرها. ذهبت إلى الصالة بالبيجامة الجديدة، حاملًا معي الراديو الترانزستور. محطات الإذاعات الأجنبية، لم يبقَ منها سوى «صوت أمريكا» يعمل في هذا التوقيت بوضوح. موجات التشويش التي تبثها المخابرات مزعجة. تُسبِّب لي صُداعًا. أنصِتُ إلى اللحن المميز لمقدمة برنامج «أنباء وآراء»، ويتبعه صوت مذيع باللهجة المصرية يُقدم تحليلًا إخباريًّا للموقف في

«اليمن». قوات الإمام تزحف من الشمال نحو «صنعاء»، وتكاد تحيط بها.

أنتبه إلى صوت «فاتن»، وهي تنبئني بأن العشاء جاهز. الواضح أنها طبخت أرزا وبامية ولحمًا. عندما لا أرجع في الظهيرة إلى منزلى، تُصِر زوجتي على أن تكون وجبة العشاء طعامًا مطهوًا! «فاتن» رغم ثقافتها وطيبتها، مثالُ للمرأة المِصرية التقليدية. تُشبه أمي وجَدتي. لا نتبرم من صوت «الراديو» الذي يصاحب تناولنا للطعام، أو يتقاسم معنا فراشنا. اتفقت معها على شراء جهاز تلفزيون بالتقسيط من شركة «النصر». غدا سأمُر على مقر الشركة بشارع «عدلي»، وأُقدِم طلبًا بالشراء مشفوعًا بموافقة إدارة الجريدة بالخصم من المرتب. سبعة جنيهات هي قيمة مقدم الحجز، وبعدها يتم التقسيط على ثلاث سنوات.

انتبهت إلى صوت «فاتن»:

ـ عجبتك البامية؟

ـ تسلم إيديكِ.

بعد العشاء، قامت «فاتن» بغسل الأطباق ومسح طاولة السُفرة. لم تنبَس بكلِمة. تركتني أستمع لبرنامج عن موسيقى «الجاز» الأمريكية. عندما دخلت إلى غرفة النوم، فوجئت بها مستلقية بقميص النوم الجديد ذي «الديكولتيه» الواسع الذي يكشف عن منبت ثدييها. لاحظت أن قميص النوم قصير، لا يصل طولُه إلى ركبتيها.

لم ألحظ ذلك عندما اشتريته. موضة الفساتين «الميني» و«الميكرو»، وقمصان النوم القصيرة انتشرت كالنار في الهشيم. كانت عيناها تنظران إليَّ في حنان وإغراء. ألقيت بجسدي بجوارها، وأحطت جيدها بذراعي. جذبتها نحوي، وتحسست قسمات وجهها بشفتيَّ. أغلقتْ عينيها في استمتاع، وربما حياءً. ما زال الخجل يكسو قسماتها عندما نمارس الحب. امرأة تقليدية حتى النخاع، رغم تعليمِها الجامعي وموافقتها على ارتداء الملابس القصيرة حسب الموضة.

غرقنا في لُجة من حواس. عندما انتهينا، فوجئت بصوت الراديو يصدَح من الصالة. قمت من المخدع، وأغلقته. عندما رجعت، وجدت «فاتن» تنظر إليَّ بريبة. سألتني:

- إنت متأكد إن التلفزيون اللي إحنا هنشتريه، مِش هيعطَّلك عن الكتابة وشُغلك؟

هززت رأسي ممانعًا:

- أنا جايبه عشانك، صعبتِ عليَّ وأنا طول الليل باكتُب واقرا، وسايبك لوحدك.

شَدَّت «الكوفرتة» الخفيفة عليها لتنام. نِمتُ بلا غطاء، لحر يولية لا يُطاق. كانت النافذة مفتوحة. تساءلت بيني وبين نفسِي: ما سرُّ الخجل الذي تمتع به زوجتي؟ هي ليست من أصول ريفية مثلي، هي بنت «القاهرة»! لكنها متحفظة في داخلها. تلبسُ حسب الموضة، بينما عقلية

جدتِها تسكنُ عقلَها!

فاصل

سبتمبر ١٩٦٦..

ذهب الطالب الجامعي «أحمد» إلى منطقة تجنيد الإسكندرية في معسكر «مصطفى كامل» لتحديد موقفه التجنيدي. كان معروفًا بأنه سيحصل على تأجيل الخدمة العسكرية، ليكمل دراسته الجامعية. مر بمرحلة الفرز الروتينية. لاحظ في ساحة المعسكر قسوة، وضربًا، وسبًّا بأقذع الشتائم من ضباط الصف وصغار الضباط لفلاحين شباب متقدمين للتجنيد. «أحمد» من قيادات منظمة الشباب؛ لذا لم يُصَدِّق ما يحدث أمام عينيه. كاد أن يتدخل، لولا زملاؤه الجامعيون الذين نصحوه بالهدوء، ففي الغد سيحصُل على تأجيله ويمضي إلى حال سبيله.

في الصباح التالي، ذهب إلى منطقة التجنيد. عندما اشتد القيظ، أمر صف الضباط الشباب بالجلوس القرفصاء تحت الشمس الحارقة في الفناء. بعد فترة ليست بالهينة، قام أحد المقرفصين بإخراج علبة سجائر من جلابيته، وهمَّ بإشعالها. انقض عليه الجنود بالضرب الشديد. انتفض «أحمد»، واعترض صائحًا. كادوا أن ينقضوا عليه، لولا أنه أسرع بتهديدهم بالاتصال بالقيادة العليا. اقتادوه إلى مكتب ضابط شاب مستغرق في حديث تلفوني غرامي مع خطيبته. انفعل الضابط بعد قطعه المكالمة، وسأله:

ـ عاوز إيه؟

ـ مش عاوز غير العدل والقانون!

أمر الضابط صف الضابط بتأديبه، لكن أحمد حذَّر الأخير من أي تصرف أهوج. جن جنون الملازم، فقام بصفع «أحمد». لم يسكُت الأخير، بل قام بتكتيف الملازم وألقى خطبة عصماء عن العدالة والاشتراكية. سَبَّ الملازم «عبد الناصر» واشتراكيته. كان «أحمد» عضوا باللجنة المركزية لمنظمة الشباب الوليدة، فذهب من فوره إلى مبنى أمانة الاتحاد الاشتراكي بميدان «المنشية».

حاول مقابلة أمين الاتحاد الاشتراكي بالمحافظة، وكان شقيق «عبد الناصر»، فلم يجده. التقى بزميله أمين شباب الإسكندرية الذي أبلغه بأن عديلَه يعمل مديرًا لمنطقة التجنيد، وأنه يستطيع تسوية الأمر. في صباح اليوم التالي، علم «أحمد» أن المنطقة الشمالية العسكرية «شدت» طوارئ، وأن إذاعة إسرائيل تحدثت عن تمرد عسكري في «الإسكندرية». ذهب الشاب إلى المنطقة العسكرية من جديد، وقابل عقيدًا وعميدًا، علم منهما أن أزمة تلوح في الأفق، وأن الشباب سببُ فيها. انتفض رجل نحيف يلبس ملابس مدنية، وقال باستعلاء:

ـ أنا لا يوجد عندي ضابط عمل كده.

عرف «أحمد» أن من يحدثه هو اللواء قائد المنطقة، ولكن بزي مدني. احتدم النقاش بينهما. تساءل «أحمد»:

ـ كيف يكون المشير «عامر» رئيسًا للجنة تصفية

الإقطاع، وفي نفس الوقت ما يُمارس تحت رئاسته هو الإقطاع نفسه، بل هي العبودية؟

تراجع القائد، وحاول استرضاءه:

- هنجيبلك الظابط اللي بتقول عليه، وهنخليه يبوس راسك!

رفض أحمد، واستمر تنقله من حجرة إلى حجرة عدة ساعات. أدرك أنهم يقبَلون كل اقتراحاته، عدا إبلاغ «المشير» بما حدث. انتهت الأزمة بمصاحبة «أحمد» في المساء لثمانية ضباط من الرتب المتتالية إلى مبنى الاتحاد الاشتراكي بالمنشية إلى مكتب «الليثي عبد الناصر» الذي لم يكن حاضرًا. انتهت الزيارة إلى تحسين المعاملة في منطقة التجنيد، والأهم من ذلك التأكيد على عدم إبلاغ المشير!

في أول اجتماع للجنة المركزية للمنظمة في أكتوبر، وكان اجتماعًا مشهودًا، عاتب كثير من الأعضاء «أحمد» على ما فعله. اعتبروا ما حدث منه «جهلًا بالموقف».

٧

طوال المساء كانت صورة «كريمة» الكهلة تُطارِدُني! أعدَّت زوجتي «جين» العشاء. تزوجت «جين» متأخِرًا في بداية الثمانينيات من القرن الماضي. جلسنا وحيدين؛ فالولدان قد كبِرا واستقلا بحياتيْهما. كبيرُهما مهندس كمبيوتر يمتلك شركته الخاصة الصغيرة، تزوج زميلة له وأنجبا لي حفيدين يتعلمان في المدرسة. أما الصغير فهو محاضر بالجامعة، وما زال مُتردِّدًا في الزواج بزميلته ذات الأصل اللاتيني. يعيشُ منفصلًا عنًّا في شقة «ستوديو» في قلب نيويورك، ويمارس حياة الانطلاق مستعذِبًا عزوبيته. قد يجيئان غدًا، أو بعد غد. لاحظت «جين» اضطرابي من ردودي المقتضبة عليها.

سألتني:

- بالك مشغول يا «همزا»! ما الأمر؟

- لا شيء. مصر مضطربة، وكل مدنها تشتعل بالمظاهرات.

- ولماذا تهتم؟! والداك قد رحلا من الحياة، ولم يعد لك هناك ما يهمك.

لم أشأ أن أدخُل في مجادلةٍ معها. هي تهتم فقط بعالمها الصغير، وشئون الولدين، والحفيدين، وأصدقائها وصديقاتها. اعتزلتْ عملَها كمحاسبة في شركة كبيرة منذ سنوات،

وتقضي وقتَها في شئونها الصغيرة. أنهيتُ عشائي بسرعة، وصعدتُ للطابق الأعلى حيث غرفة مكتبي. بدأت أُدير محطات الكابل التلفزيونية التي اشتركتُ بها. بعضها تعرِضُ ما حدث في القاهرة اليوم. منذ ساعتين ظهر «مبارك» على شاشة التلفزيون المصري بعد منتصف ليل القاهرة، وألقى بيانًا شاهدت مقتطفاتٍ منه. تبدو نظراته زائغة ومرتبكة رغم محاولتِه اكتساب نبرة الثقة في كلماتِه. أقال الحكومة، ووعد بتشكيل وزارة جديدة، وتَوَعَّد الذين هددوا أمن مصر وشعبها.

نشرات الأخبار تمتلئ بلقطات مصورة لحشود بشرية، واشتباكات مع الشرطة. مرةً أخرى تظهر صورة «كريمة» وكأنها تطارد ذاكرتي. تظهرُ في مخيلتي وجوه أشخاص، وملامح أمكنة مر عليها زمن لا يستهان به. «منظمة الشباب الاشتراكي»، والقصر الذي اتخذته مقرًّا رئيسيًّا لها في شارع «حسن صبري» بحي «الزمالك» الراقي والهادئ. «أمانة الشباب» المعلقة في الدور التاسع بمبنى «الاتحاد الاشتراكي العربي» على «كورنيش النيل» بجوار «المتحف المصري»، وفندق «هيلتون النيل». أتذكر ابتسامة «كريمة» التي قابلتها للمرة الأولى في معسكر «حلوان»، وكيف اجتذبت اهتمامي رغم بساطة مظهرها.

كانت دورة التثقيف الثالثة أو الرابعة التي نقيمها، وبحكم موقعي كقيادة بارزة في المنظمة، كان عليَّ أن أتواجد من حين لآخر في معهد إعداد القيادات. الدارسون طلاب

وعمال في أغلبهم، والفتيات ما زِلن قِلةً يدخلن مجال العمل السياسي بأملٍ وثقة. في تلك الدورة رأيتُ «كريمة»، فتاة بسيطة وأنيقة وذكية. تلُم شعرَها في ضفيرة، تكوِّرها خلف رأسها. عينان عسليتان تأسِران من ينظر إليهما. أظافرُ يديها وقدميها نظيفة لامعة، لم تعرف بعد طريقها إلى الطلاء، وابتسامتها تُضيء ألفَ شمس. لفتت شجاعتها انتباهي بشِدة في مناقشة بإحدى خيمات الدراسة. الكلُّ يتحدث عن «أعداء الشعب»، فتأتي تلك الفتاة لتسأل عن تصنيف «الرأسمالية الوطنية» ما بين معسكري الشعب وأعدائه. لا تَهَاب رُدُود زميلاتها وشعاراتهن، وتطرَحُ تساؤلاتِها البسيطة بإخلاص!

لم يكن صعبًا عليَّ أن أعلم أصلَها وفصلَها. فلكلِّ عضو في المنظمة استمارة تفصيلية، تُبيِّن أفراد أسرته وعملهم وأصولهم الطبقية، وتُظهِر موقعه الوظيفي ومدى تقدمه وعطائه لمجتمعه المحلي. «كريمة» إنسانة مكافحة، ابنة بواب بسيط. واحدة من هؤلاء الناس الذين قامت الثورة من أجلِهم، وما زالوا يعيشون تحت خط الفقر. انجذَابي نحوها لم تكن لتصده أي اعتبارات، أو تحفُّظات. بالطبع، فكرتُ في المقاومة العنيدة التي قد يبديها والداي ـ مُمثلا الطبقة المتوسطة ـ تجاه ارتباطي بها، لكن العاطفة والإيمان بالمساواة تغلَّبتا على أي تردد داخلي.

مشاهد الشباب الغاضب على شاشة التلفاز أمامي، تُذكِّرني بالماضي. تدُق بمطرقة ثقيلة رأسي، وتُلح على ذهني بسؤال

مصيري في حياتي: لماذا، وكيف انضممت لمنظمة الشباب منذ أكثر من خمسة وأربعين عامًا؟ وأين كُنت قبل انضمامي إليها؟

جامعة القاهرة بقبتها العتيدة، تتناثر الحدائق الخضراء ما بين مبانيها. ساعة الجامعة ذات الدقات الشهيرة تُعلِن تمام الثالثة ظهرًا. أكاد أرى نفسي شابًّا بين خمسة من الطلاب العرب الوافدين، نجلسُ على العشب. لعلَّه كان الاجتماع الأول الذي أحضره في الخلية، بعد أن فاتحني «يوسف» زميلي الفلسطيني في الكلية بالانضمام لحركة «القوميين العرب». قبلها، كنت قد قرأت بعض أدبياتها. كان نقاشنا بصوت منخفض، فرغم أن الحركة نصيرة لسياسات «عبد الناصر» وتعتبره أبًا روحيًّا لها وزعيمًا للعرب، فإنها تأخُذ موقفًا يبدو مستقِلًّا عنه. مخبرو جهاز المباحث العامة منتشرون، تمتد آذانهم الطويلة لتلتقط حتى الهمسات والإيماءات. مجلة «الحرِّية» الناطقة باسم الحركة تصلُ إلى أيدينا دون حظر، أو مطاردات. صفحاتُها فى حجم «التابلويد»، لكنها مثيرة وثائرة. نحن في عام ١٩٦٠، لم يتبقَّ على تَخرُّجي في الكلية سوى عامٍ واحد. علم الوحدة بين مصر وسوريا ذو النجمتين يرتفع على مبنى إدارة الجامعة، وصورة «عبد الناصر» في عَنان السماء.

تنبَّهتُ على صوت «يوسف» وهو يقول:

ـ الحركة تزداد عددًا، وتنتشر بثبات في كثير من الأقطار العربية. حزب البعث له أكثر من وجه. يدَّعي القومية

العربية، ويتدثر بشعار الوَحدة العربية، بينما هو يحاربها منحازًا إلى الرجعية.

أبدِي استغرابي وتعجُّبي. دولة الوحدة قائمة، وعلمها ذو النجمتين الخضراوين يرفرف على الإقليمين «الجنوبي» و«الشمالي». ينبري «يوسف» بحزم قائلًا:

- الجيش السوري تسيطر عليه خلايا بعثية متآمرة. معلومات التنظيم أنهم يثيرون الفتنة والكراهية ضد الضباط المصريين هناك.

أدركتُ بعدها بعام صحة معلومات وتحليل «يوسف». الحركة تعتبر «عبد الناصر» زعيمًا روحيًّا لها، يجسد مبادئها وأحلامها. مناضلوها يقبعون في سجون «عبد الكريم قاسم»، وتخوض نضالًا سِرِّيًّا ضده، وضد الرجعية العربية. خليّتنا تضم عداي و«يوسف» يمنيًّا، ولُبنانيًّا، وبحرينيًّا. أفهمني «يوسف» أن «الاتحاد القومي» تنظيم سُلطوي تسللت إليه قوى الثورة المضادة، وعَلِمتُ منه أن هناك تنظيمًا للبعث يعمل داخل مصر. الأنكى من ذلك، أن «البعث» يبدو نشِطًا في ضم بعض الطلاب المصريين من جامعة القاهرة.

كنت من أول العناصر المصرية التي انضمت للحركة، وسُرعان ما نهض تنظيم «الإقليم الجنوبي» بزعامتِي. حدث الانفصال، وتفتت الوحدة، وبقيَ اسم «الجمهورية العربية المتحدة» وعلمُها تحملهما «مِصر». تأكد بعدها «عبد الناصر» من أن حركة «القوميين» هي حليفُه الرئيسي في

المنطقة. اتخذت الحركة بالمقابل من «ناصر» زعيمًا ورمزًا لها، إلا أنها رفضت الذوبان في تنظيماته الفضفاضة. بالتدريج، أخذت «الحركة» تعطي تنظيمات الأقاليم حرية التنظيم والحركة. في «ظِفار وعُمان» انطلقت «جبهة تحرير ظفار»، وفي جنوب اليمن ظهرت «الجبهة القومية»، وكوَّن الفلسطينيون «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين».

كانت «مصر» استثناءً عجيبًا! رغم أن تنظيمنا اشتد عوده، فإننا فوجئنا بالقيادة القومية للتنظيم تخبرنا بأنها قررت حل التنظيم المصري، وتسليم أسماء أعضائه للرئيس «عبد الناصر». أتذكر ذلك المساء في عام ١٩٦٥، عندما التقى بي الرفيق «محسن إبراهيم» بكازينو «غرناطة» بمصر الجديدة، هذا المكان الذي كان جزءًا من أرض سباق الخيل في «هليوبوليس». ذهبت إلى هناك، فوجدته يرتدي بذلة صيفية بنصف كم. كنت قد التقيته من قبل مرتين؛ مرةً في لبنان، ومرةً في القاهرة. بادرته:

- حمدِ الله على السلامة،وِصِلت إمتى؟

- من يومين.

- إيه الأخبار؟!

- اسمع يا حمزة! وفد الحركة اتفق مع عبد الناصر على أن يدخل تنظيم مصر ضمن صفوف الاتحاد الاشتراكي العربي. وبما أن كل الأعضاء من الشباب، فمن الطبيعي إنهم يدخلوا منظمة الشباب الاشتراكي اللي بيكوِّنها عبد

الناصر هلق، وفي بِداية سِرّية.

ـ بس إنتم ما خدتوش رأينا.. ما خدتوش رأي أصحاب الشأن، تنظيم الإقليم المصري!

ـ كده أحسن لكم، عبد الناصر رمز لنا، ومو طبيعي يكون هناك تنظيم يعمل في مصر إلى جانب حزبه وتنظيمه.

أحسست بالمفاجأة وكأنها لطمة على وجهي. الرجعية وقوى الثورة المضادة موجودة أيضًا داخل الاتحاد الاشتراكي. أجهزة الأمن والمخابرات ستعصِف بنا، ولن تُسامِح محاولاتنا للتنظيم المستقل. كيف تصرفت القيادة القومية بهذا النزق والخِفة؟!

يبدو أن اصفرار وجهي، والصدمة التي بدت على ملامحي قد أثارا اهتمام الرفيق محسن، فوضع كفه على كتفي قائلًا:

ـ أخ حمزة، هذا أحسن لكم وللثورة العربية كثيرًا. جهودنا يجب أن تتحد مع جهود عبد الناصر في إنشاء تنظيم للشباب المؤمن بالثورة وقوميته في مصر. لاحظ أن «ناصر» يحتاجكم كمخلصين له وسط غابة هلامية مِمن يتظاهرون بالإخلاص له، ولثورة يولية! عينا الأخ «محسِن» تبرُقان بذكاء غير عادي. نبرة الاطمئنان التي كسَت صوته؛ جعلتني أهدأ وأستسلِم لقرار القيادة. علِمتُ منه أنه يقيم مع «هاني الهِندي» و«جورج حبش» بفندق

«عمر الخيام» بالزمالك. في نهاية اللقاء، شدَّ بقوة على كفي، ثم قال بنبرة تقريرية:

ـ خيي حمزة، أعطيتُ كشفًا بأسماء منتسبي التنظيم في مصر إلى السيد سامي شرف. سيتصل بك، وسيصبح مسئولًا عن انضمامكم إلى منظمة الشباب. يعطيكم العافية يا شباب.

تركني «محسن إبراهيم» في حيرة. لماذا يقابلني في «غِرناطة»؟ ألا يعلم أنه مُراقب؟! هل يظن نفسه أذكى من أجهزة الأمن والمخابرات؟ أدركتُ أنه يجب عليَّ إخبار أعضاء الحركة المصريين سريعًا. سأعقدُ اجتماعًا بمسئولي الخلايا خلال الساعات القادمة، وهم بدورِهم سيخبرون الباقي. عبد الناصر زعيمُنا، وربما سيكون من الأفضل أن نعمل من خلال «منظمة الشباب»، وما أشيع عن تنظيم سري داخل «الاتحاد الاشتراكي».

لم يمر يومان حتى جاءني صوت «سامي شرف» عبر تلفون منزل والدي في ساعة متأخرة من المساء. حدد لي موعدًا في «فيلَّا» في شارع «الخليفة المأمون»، ما زلت أتذكر رقمها، ثمانية وستين. اتضح أن الفيلَّا أحد مقرات التنظيم السري الذي أنشأه «عبد الناصر»، والذي أُطلِق عليه اسم «طليعة الاشتراكيين». أصبحت مسئولية السيد «سامي» مجموعة «القوميين» وتسكينهم في مختلف المواقع في التنظيم السياسي الناصري. ومن تلك «الفيلَّا» إلى قصر أكثر فخامة وضخامة في شارع «حسن صبري» بالزمالك،

القصر الذي أصبح مقرًّا لمنظمة الشباب، بعد أن كان أحد مقرات التنظيم الطليعي، لكنه في الأصل كان ملكًا للأميرة «شكرية حليم»، كما علمتُ فيما بعد. هذا القصر كان مقرًّا لاجتماعات ونشاطات شباب الثورة الذي اعتبرَ «ناصر» أباه الروحي، بينما اتضح فيما بعد أن الزعيم الأب لم يكُن يثق بأبنائه!

إلى هذا القصر، جاءت «كريمة» مع إحدى زميلاتها في لجنة المنظمة بقسم «قصر النيل»؛ لتشارك في ندوة تثقيفية نظمتُها حول «تحويل مياه نهر الأردن». كانت الدعوة بمبادرة مني رغم وجود مندوبين آخرين من نفس قسم «قصر النيل». أثارت الفخامة المعمارية للقصر من الخارج دهشتها. كانت الحديقة قد أصابها الإهمال، بينما امتلأت غرف القصر الرحبة بمكاتب معدنية وخشبية لكوادر المنظمة المركزيين. امتلأت صالة الاستقبال الواسعة بالدور الأرضي بكراسي الخيزران، التي أجَّرناها من أحد محال الفراشة. لا تزال جدران الصالة تحتفظُ ببقايا لوحات طبيعية مرسومة على الحائط بألوان باهتة. لم يتبقَّ من أثاث القصر القديم سوى نجفة عملاقة من الكريستال تدلَّت من سقف الدور الثاني للقصر لتضيء البهو وصالة الاستقبال بالدور الأرضي. نظرت «كريمة» إليها باستغراب. عندما سألتها فيما بعد عن تعلق نظراتها بها طوال الندوة، أجابت بجِدّية بالغة:

ـ النجفة كانت كبيرة قوي، وحِتت الكريستال الكبيرة

عليها تراب كتير. كنت خايفة طول الوقت إنها تقع على راسنا! مش يمكن السُّلُوك اللي شدَّاها لفوق تنقطع؟!

وأضافت وهي تخفي ضحكةً أصرَّت على أن تفلت منها:

ـ كانت أول مرة أشوف فيها نجفة زي اللي بنشوفها في أفلام الباشوات!

قبل هذه الندوة بثلاثة أشهر، حدث لقاؤنا المنفرد الأول في «جروبي» شارع «عدلي» بمبادرة شجاعة مني. كُنت مترددًا، أُقدم قدمًا وأؤخر أخرى. «كريمة» تُعجبني، ولونها الأسمر القريب من لون الكاكاو بالحليب يجذبني. ابتسامتها الناصعة البيضاء الرائقة، وتناقضها مع لمعة بشرتها أطارا كل قيود وتحفظات يفرضها منصبي القيادي في «المنظمة». شجاعتها في إبداء رأيها بعفوية، ودون حسابات مسبقة أكدت لي أنها تتمتع بنقاء سريرة، وبساطة آسرة. في «جروبي»، اتفقنا على بدء محاولة للتفاهم والانسجام بيننا. كُنت أعرف أنني أحببتها من أول نظرة، ومن يوم حديثنا معًا في «حلوان»، لكنني خفت أن تجفل غزالتي مني؛ فقررت ألا أقتحمها بكل عنفوان عاطفتي.

ذهبنا ذات مرة إلى سينما «كايرو» في حفلة الساعة الثالثة ظهرًا؛ حيث كان يُعرض فيلم «صوت الموسيقى» لـ«جولي أندروز» و«كريستوفر بلامر». كان الفيلم طويلًا جدًّا؛ فاستغرقت مدة العرض حوالي ثلاث ساعات! كانت «كريمة» تنظر إلى ساعة يدها الرخيصة كل عشر

دقائق، خوفًا من أن نتأخر على أبيها. تلتمع عيناها وهي تتابع الأحداث المتلاحقة. تكاد تشهق، بينما أصابعها الرقيقة تحتضنها كفي في حنان. قصة الراهبة وحبها للكابتن الأرستقراطي «جورج»، ورعايتها لأطفاله السبعة شدت انتباهها وعواطفها بقوة. دخول النازيين إلى سويسرا، وهروب العائلة والراهبة إلى السويد، ورفض الكابتن رفع علم النازي على بيته أعطوا الفيلم مذاقًا سياسيًّا خفيفًا. أغاني «جولي أندروز» البديعة، وأشهرها «دو ري مي» جعلت جسد «كريمة» يهتز من الانفعال. عندما انتهى العرض هبَّت واقفةً، وانصرفت مسرعة دون أن ألحق بها!

في لقائنا التالي سألتها:

ـ مشيتِ ليه قبل ما أودعك؟

ـ خفت أتأخر!

ـ لولا إني كلمتك في الشغل، ما كناش خدنا ميعاد النهارده.

ـ معلش، يا ترى عجبك الفيلم؟

ـ فيلم واخد كذا جايزة أوسكار، ما يعجبنيش إزاي؟!

ـ تعتقد الفروق الطبقية والسبع أطفال والنازية، كل ده ما قدرش يقف في طريق حب الراهبة للكابتن الغني. شايف إن ده طبيعي؟

ـ طبعًا يا كريمة، طبيعي ومنطقي. ما دام في إرادة وتحدٍّ

إنساني.

تكررت لقاءاتنا في أماكن كثيرة في القاهرة. كنا نشعر بأننا نمتلك الدُّنيا، ونحن نسير متشابكي الأيدي على كورنيش النيل. ابتسامات بائعي كيزان الذرة المشوية على مواقد الفحم، ونداءات أصحاب عربات التِّرمس: «كل الأحبة.. اتنين اتنين» لم تكن تفزعنا. كانت «القاهرة» آنذاك امرأة متحررة، ترتدي الفساتين القصيرة، وتترك شعرها ليعبث به هواء الحُب. لم أكن متشككًا قط في قُدرَتِنا على بلوغ النهاية السعيدة التي نراها في الأفلام المصرية، بينما بدت «كريمة» غير مُصدِّقة لإمكانية اقتراننا في زواج يقبله المجتمع. يأتيني صوتُها:

ـ يعني إنت متأكد من أن اشتراكية الثورة خلاص انتصرت، وهنتجوز رغم فروق الطبقات؟

ـ إنتِ مش قريتِ في المدرسة فصول الميثاق في مُقرر اللغة العربية؟ ما سمعتيش عن تذويب الفوارق بين الطبقات؟!

ـ أنا مِش بس قريت وفهمت، أنا امتحنت فيه كمان. لكني مش مصدقة! لسه فيه ناس في العالي، وناس في الواطي.

ـ لا، صدَّقي، كُلّنا ولاد تسعة!

عندما علِمت «كريمة» أن أسرتي تسكن بشارع «شُبرا»، ندت منها تنهيدة ارتياح. ارتسمت على شفتيها ابتسامة

ساخرة وهي تقول:

- لا تعاتبني ولا أعاتبك، صحيح أسكن فوق السطوح مع عيلتي، لكن في شارع قصر النيل بجلالة قدره!

«شُبرا» هي الحي الذي نشأت فيه، مدارسه وملاعبه وشوارعه ما زالت تراود ذاكرتي. طُفتُ العالم، ورأيت كثيرًا من المدن والأحياء، إلا أن موطن الصِّبا يظل مستقِرًّا في القلب رغم الزمن والمِحن. والدي يعمل مهندسًا، ووالدتي معلمة بمدرسة «شبرا الثانوية للبنات». لي شقيقتان أصغر مني في العُمر بسنوات قليلة.

بعد عشرة أشهر من اللقاءات بيني وبين «كريمة»، قررتُ أن أتخذ خطوة إلى الأمام في علاقتنا. عندما أخبرتُ والدتي بحكايتي الكاملة مع «كريمة»، وأصلها وعمل والدها، لطمتْ بقوة براحة يدها على صدرها صارخة:

- يالهْوِتي!

كنت أتوقع رد فعلها؛ لذلك لم أنفعل. تلقيت صرختها بكل هدوء، وبدأت مناقشتها:

- يا ماما، إحنا في مجتمع غير المجتمع اللي كان أيامك إنتِ وبابا. إحنا في بلد اشتراكي، العِبرة فيه بالعمل. لا فرق بين عمل وآخر ما دام شريفًا.

- وإخواتك البنات ذنبهم إيه؟ ما فكرتش إنك هتميِّل بختهم؟

أدركت وقتها أن المعركة غير سهلة كما توقعت. بعدها بيوم، انتهزت فرصة وجود والدي بالبيت بعد مشاهدة مباراة كرة قدم فاز فيها فريقه المُفضل، وأخبرته برغبتي في الزواج بـ«كريمة». تلقى أبي المفاجأة برباطة الجأش، اقترح عليَّ أن نناقش المسألة على مقهى قريب من «دوران شُبرا». كنت أرقُب ملامح وجهه التي تبدو محايدة، وأنا غير مرتاح. خرجنا إلى الشارع صامتين. لم يشأ أن يتحدث إلا بعد أن جلسنا إلى طاولة في ركنٍ قصي على رصيف الشارع. أومأ لي برأسِه قائلًا:

- وبعدين؟

- وبعدين إيه؟ عاوز أخطُبها، وأتجوّزها!

- وتعتقد المسألة بالسهولة دي؟ أفهم إنها طالبة في الجامعة وبنت مكافحة. لكننا عايشين في مجتمع لم ينضج لتقبُّل زيجات من طرفين غير متكافئين اجتماعياً. هل فكرت في إخواتك البنات، وإنك هتِكسَر نِفسُهم؟! يا ابني الحياة مش كُتب ونظريات وشعارات.

شعرتُ بدُوَارٍ يُمسِك برأسي، عشرات اللقطات مرت أمام عيني لكريمة ولي معًا. سعادتي أمامي في متناول يدي، لكنني عاجز عن الإمساك بها. نتحدث ليل نهار عن المساواة، ونستخرج أحاديث شريفة عن العدل والاشتراكية، ونشاهد أفلامًا سينمائية ومسلسلات تلفزيونية عن زواج أولاد الأغنياء بالفقراء! وعندما

نصطدم بالواقع الحي، نجد الطبقية أساسًا لكل العلاقات الاجتماعية.

كانت عينا والدي مصوبتين نحوي، تنتظران رد فِعْلي على ما قاله. أجبتُ بضيق شديد:

ـ حضرتك مهندس في مصنع قطاع عام دلوقتِ، وبتقعد معِ ممثلي العُمال في مجلس الإدارة.. تقدر تقولي إن وزن صُوتك في أخذ القرارات أكثر من أوزان أصواتهم؟!

ـ يا ابني الشُّغل حاجة، والجواز حاجة تانية خالص. ممكن تكون إنت وهي متكافئين من ناحية التعليم والثقافة، لكن في أسلوب الحياة لا أعتقد. فكّر كويس. ياما الواحد في شبابه افتكر إنه بيحب، وفاق وعرف إنها مجرد نزوة.

كنت أعرف أنها بداية المعركة من أجل «كريمة»، وقتها لم أُدرِك أن هناك حواجز أخرى غير طبقية، تقف في طريقنا. جاء صوت والدي في نبرة رجاء وتوسُّل:

ـ يا بني فكّر كويس، الدنيا مش صربعة!

كنت قد اتفقت معها على جس نبض والديَّ على الزواج قبل أن أتقدم إلى والدها لخطبتها. تذكرت كل المعارف والملكات والخبرات التي اكتسبتها من العمل السياسي، وبدأت في استخدامها للضغط على عائلتي والتفاوض مع والدي. لا يُمكن الحصول على كل شيء مرة واحدة، ولكن بالنفس الطويل والمثابرة نصل إلى ما نصبو إليه. ألم يقل «ماو تسي تونج» إن مسيرة ألف الميل

تبدأ بخطوة واحدة؟

فاصل

على شاشة جهاز التلفزيون ظهرت الصورة. واضحٌ أن المشهد تم التقاطه من أعلى بواسطة كاميرا مثبتة ومخبأة في أعلى الحائط. جلس ضابط في حلة مدنية يراقب عن كثب. امرأة فاتنة، ورجل وسيم، وطفلة على أعتاب المراهقة. يضع الرجل ذراعه على كتف المرأة، ويميل على أذنها هامسًا. يضع يده في جيبه، ويخرج سلسلة مفاتيح ومحفظة جيب. يضعهما على منضدة بأسة في منتصف الصالة. يصطحب المرأة، ويتجهان إلى باب غرفة مغلق. يدير المقبض، ينفتح الباب فيدخلان الغرفة. يُوصد الباب من جديد.

ينظر الضابط إلى شاشة أخرى مجاورة، عين الكاميرا تنظر من علٍ. سرير عليه ملاءة حمراء. يجلس «المندوب» وبجانبه المرأة. يحيطها بذراعيه، ويفتح سوستة فستانها من الخلف. يتبادلان القبلات. يدخل يده في طوق ثوبها، ويعبث بصدرها. يتبادلان القبلات الطويلة. وفي هذه الأثناء، تظهر الشاشة الأولى اقتراب المراهقة من المنضدة. تمسك بالمحفظة، وتفردها. أناملها تخرج أوراق بنكنوت من ذوات عشرة الجنيهات. تأخذ بعضها وتعيد الباقي. ترجع المحفظة إلى موضعها. يشهق الضابط المتلصص في غرفة المراقبة:

- بنت الكلب!

على الشاشة المجاورة، يحاول المندوب أن يخلع عن المرأة ثوبها. تتملص من ذراعيه، ويبدو أنها تقول له شيئا. تُقبِّله، وتسبقه إلى الباب. تصيب الدهشة الضابط، ويبدو محبطًا.

يدق جرس التلفون في غرفة المراقبة، يرفع الضابط السماعة. يتحدث مع شخص يبدو رئيسا له:

ـ عملية الكنترول ما تمتش يا أفندم!

يستمع إلى حديث ما، ويرد قائلا:

ـ نسيبها إزاي؟! دي أختها سرقتنا!

يصمت مرة أخرى، ويردد:

ـ حاضر يا أفندم.

٨

أقواس النصر ظهرت في الشوارع والميادين، والشعارات المكتوبة بالأسود والأحمر على القماش الأبيض قد علِّقت بين عواميد الإنارة. الأجواء احتفالية بامتياز، وكثير من الأطفال ارتدوا بذلات طفولية تحاكي زي ضُباط الجيش. منظرهم مبهج، ومُضحِك في نفس الوقت. «كَابَات» الضباط التي يلبسونها تبدو أكبر من مقاس رءوسهم، فتنزاح إلى أسفل وتُغطِّي أعينهم! يسيرون دون أن يرَوْا ما أمامهم، بينما تشدُّهم أكف الآباء والأمهات لتجنبهم الاصطدام بالمارة، أو التعثر والوقوع على أسفلت الطريق.

بالأمس ذهبت مع «فاتن» إلى مسرحية «ياسين وبهية» بمسرح «الجيب». المسرحية عُرِضت العام الماضي، لكننا نشاهدها ضمن «ريبرتوار» مسرح «الجيب» هذا العام. عبرنا جِسر «قصر النيل» على أقدامنا. كانت «فاتن» سعيدة مبتسمة، فها نحن نذهب إلى المسرح معًا دون أن يصاحبنا أصدقاء. اتجهنا ناحية اليمين بعد مدخل حديقة «الأندلس». ووصلنا إلى «الحديقة الفرعونية» حيث مدخل مسرح «الجيب». المسرحية من تأليف «نجيب سرور» وإخراج «كرم مطاوع»، كلاهما شاب موهوب. قاعة المسرح صغيرة، لا تضم سوى مائة كرسي. تبدو على وجوه المتفرجين سيماء المثقفين؛ حيث يكثُر مرتدو العوينات الطبية. دقة واحدة، دقتان اثنتان، ثم ثلاث

دقات، بعدها ابتدأت المسرحية. لاحظت أن «فاتن» مشدودة إلى الحوارات المسرحية التي اتخذت شكلًا شِعريًّا يجيده المؤلف. العجيب أن موهبة «نجيب سرور» المتفجِّرة تأليفًا وإخراجًا وتمثيلًا وشِعرًا، لا تجد منه حرصًا على صيانتها والحفاظ عليها. عَلِمت من بعض أصدقائه حكاياته في «موسكو» و«بودابست»، ذهب إلى «موسكو» في نهاية الخمسينيات، وفي مؤتمر طلابي انهال على نظام عبد الناصر ودولة الوحدة بالتنديد والنقد لاضطهاد الشيوعيين وغياب الديمقراطية. أعطاه السوفييت أوراقًا ثبوتية، لكنه سرعان ما انتقدهم؛ فطردوه من بلادهم. ذهب إلى «المجر»، وهناك استبد به الحنين إلى الوطن؛ فرجع إلى مصر. احتضن موهبته مسئولو الثقافة والمسرح.

أفقتُ على صوتٍ يأتي من خشبة المسرح:

«في ناس بتشرب عسل وناس بتشرب خل

وناس تنام ع السرير وناس تنام ع التل

وناس بتلبس حرير وناس بتلبس فل

وناس بتحكم على الحُر الأصيل ينذل»

المسرحية تحكي عن الإقطاع وجرائمه في الريف المصري. ربما أعادوا عرضها بمناسبة أحداث «كمشيش». بعد أربعة عشر عامًا من الثورة، نكتشف أن الإقطاع ما زالت له سطوته في الريف. ورغم أن «نجيب سرور» يُمثِّل في مسرحية «أجاممنون» لإسخيلوس في نفس المسرح، لكنها

قد توقفت لتُفسِح المجال لمسرحية تُلحُّ عليها الظروف. كنت منبهراً ومشدوداً للحوار المسرحي الذي ينتقل من شِعر الفُصحى إلى شعر العامية في سَلاسةٍ غريبة. الظاهرة التي أفكر فيها، هي بروز شعر العامية وتبوئه الصدارة في العامين الأخيرين. المعركة لم تعد بين شِعر الفصحى الحر، وبين الشعر الموزون، بل المُقفى. هناك قادم جديد يدقُّ الأبواب بقوة، بل يقتحمها عنوة، إنه شِعر العامية.

انتبهت إلى نهاية المسرحية، فنظرت في ساعة معصمي ووجدتها العاشرة. خرجتُ مع «فاتن» التي تأبطت ذراعي. اشتريت عُقدًا من الفل والياسمين من بائع متجول، يقف على ناصية كوبري «قصر النيل». وضعته حول عنقها، فابتسمت راضيةً. أجمل ما في زوجتي، أنها ترضى بالقليل. أما أسوأ ما فيها، فهو غيرتها وإصرارها على أن أبتعد عن أصدقائي. تؤمن بي كباحث وكاتب، وتُوفِّر لي الظروف الملائمة لموهبتي. لكنني، أحيانًا كثيرة، أشعر بها كقيد حديدي غليظ يُمسِك بمعصمي. نسمة الهواء الصيفية التي تهُب علينا من صفحة النيل، داعبت وجهينا بحنان. تطاير شعر «فاتن» إلى الوراء، فبدَت أكثر فتنة وجمالًا. القاهرة في الليل غانية حسناء، ونيلُها حياة أبدية. عندما وصلنا إلى ميدان «التحرير»، استرعى انتباهي الإعلان الضخم لفيلم «الناصر صلاح الدين» فوق مبنى «جامعة الدول العربية» الذي سلطوا عليه كشافات ضوئية في الليل. الفيلم تم عرضه منذ ثلاث سنوات، لكن

الإعلان ما زال يعلو مبنى الجامعة! وجه الممثل «أحمد مظهر» في خوذته يبدو واثقًا من النصر، وإصبع سبابته تُشير إلى الأمام بثبات.

عندما وصلنا إلى سكننا بحي «السيدة زينب»، أعدَّت «فاتن» عشاءً خفيفًا يليق بنهاية يوم صيفي. غمَّسنا برغيفيْ خبز بلدي قطعة جبنة بيضاء كبيرة، وازدردنا معها قطع البطيخ المبردة في الثلاجة. كانت قطع البطيخ ناضِجة مسكرة، ومُرَمَّلَة. سألتني زوجتي:

ـ البطيخة حلوة قوي، جبتها بكام؟

ـ الكيلو بتلاتة تعريفة، قطعت معايا ربع جنيه.

ـ يحفظها نعمة من الزوال!

تُدهشني كثيرًا «فاتن» بتقبلها المُتع البسيطة التي نحصل عليها. هي بلا شك زوجة مثالية مخلصة، لكنها تقليدية للغاية. تشبه والدتي في طيبتها وبساطتها رغم تعليمها العالي وانخراطها في سوق العمل. هي من النوع الذي يفضل الخطو بجوار الحائط، أو للدِّقة الاختباء داخل الجدار. تعرف أنني صحفي أعمل بالشئون العامة، وهي بالتأكيد تعرف آرائي السياسية المشاغبة، لكنها لا تعلم أيِ ارتباطات تنظيمية كانت تضمني مع أصدقائي. فكرنا معًا في انتهاز فرصة إجازة عيد الثورة الذي يجيء يوم السبت؛ ليأخذ كلانا يوم الخميس إجازة عارضة. ثلاثة أيام كفيلة بالذهاب إلى مصيف رأس البر، والهروب من قيظ

القاهرة. لكن كان لصحة والدتها رأي آخر، وعكة أمها أطارت فرصة الهروب من القاهرة. حمدتُ الله على شرائي تلفزيون «نصر» ١٩ بوصة منذ شهر من المقر التِّجاري لشركة «النصر» للتلفزيون بشارع «عدلي». كان ثمن الجهاز خمسة وثمانين جنيهًا نقدًا، لكنني بضمان مرتبي ومرتبها اشتريناه بالتقسيط على ثلاث سنوات. وجوده كضيف جديد يشاركنا البيت، فرض طقوسًا مبتكرة في المساء. تلك الطقوس جعلت زوجتي تعتقد أنه قد يغنيني عن لقاء الأصدقاء المتمردين. لم تستطع ساعات البث، التي وصلت إلى عشرين ساعة مقسمة على قنواته الثلاث، أن تُغيِّر من عاداتي في الخروج أحيانًا بعد الظُّهر!

ظهر «الريس» في المساء المبكر ليوم الجمعة ٢٢ يولية على شاشة التلفزيون، ليلقي خطاب عيد الثورة في سرادق بميدان «الجمهورية» (عابدين سابقًا). تبدو نبرته الخطابية أكثر تواضعًا من قبل. تحدث عن السلبيات والمشاكل التي تواجه الحكومة.

«عندنا مشاكل موجودة. مشاكل في المستشفيات. توسعنا إحنا في بناء المستشفيات، والجمعة دي سامع أنا شكوى إن بعض المستشفيات ما فيهاش دوا. الناحية الإيجابية إن إحنا بنينا مستشفيات، الناحية السلبية إن بعض المستشفيات ما فيهاش أدوية».

ندَّت من «فاتن» صيحة تعجب، وقالت:

ـ طب المستشفيات ما فيهاش إلا «راوند» و«شربة خروع» وأحيانا «أسبرين»، والدكاترة بيغزلوا برِجل حمار. الأجزاخانات الخاصة ليه ناقص فيها «سيربازيل»، دوا الضغط بتاع أمي؟!

لم أُعلِّق على ما قالته، وتذكرت صِدام «عبد الناصر» مع نقابة الأطباء. وكيف أقيل النقيب الدكتور «رشوان فهمي» من منصبه، وتم رفده من جامعة الإسكندرية منذ أسبوعين! كانت كل جريرة الرجل، أنه اعترض على ما قاله «الريس» عن «قصر العيني» في خطاب له: «**إننا نجحنا في إدارة قناة السويس، وفشلنا في إدارة قصر العيني.. الداخل فيه مفقود، والخارج منه مولودا**». في الحفل السنوي لكلية طب جامعة القاهرة لتوديع الأساتذة المحالين على المعاش، دافع الدكتور «رشوان» عن الأطباء، وأظهر الظروف الصعبة التي يعملون فيها. قال: «أعطوا قصر العيني الإمكانات المتاحة لقناة السويس، وسترون ما يمكن أن ينجزه». لم يتأخر عقاب الدكتور «رشوان»، فتم بعد أيام فرض الحراسة عليه، وفصلوه من الجامعة! كنت قد علمت بما حدث من مراسل الجريدة المختص بالصِّحة. قامت الثورة فِعلًا بعمل الكثير في مجال الوقاية والوحدات الصحية في الريف، ولكن بالطبع هناك سلبيات كبيرة في العلاج بالمستشفيات العامة ونقص في الأدوية. «مصر» تحاول تصنيع الدواء، ولعل وجود شركات مشتركة حكومية مع شركات سويسرية عالمية، هو الاستثناء الوحيد

في مجال الصناعة.

تحدث «ناصر» أيضًا عن مشكلة المواصلات التي تفاقمت بشكل خطير: «**الحل الوحيد النهارده إن أنا أزود التذاكر. لما حزوِّد التذاكر اللي يركب له محطتين تلاتة ويستسهل إنه يدفع قرش، يستخسر يدفع قرشين في المحطتين تلاتة. وبهذا الناس تمشي شوية جنب الأتوبيسات. هو ده الحل العملي أن نرفع تمن التذاكر**».

جلست زوجتي بجانبي وأنصتت بجدية إلى «الرَّيِّس». ظهرت علامات الاهتمام والجدية على وجهها. أدركت بدوري، أن الأزمة الاقتصادية لا يُمكن تجاهلها. مغامراته في اليمن وغيرها، ندفع ثمنها باهظًا اليوم. بدا وكأنه يصارح الشعب بالصعوبات والمعاناة المتفاقمة. ماذا يريد أن يقول؟! هل يقول: أنا أشعر بكم، وأعيش معكم؟! تحدث عن أزمة المساكن الخانقة، وعن معدل زيادة السكان الذي أصبحنا فيه ثاني دولة في العالم بعد «باكستان». رغم أن خطابه قصير نسبيًّا هذه السنة، فإنه مُقلِق.

تحدث عن «كمشيش» والإقطاع: «**لا بد أن نُصفي الإقطاع تصفية كاملة.. بنصفيه في كل مكان، واللجنة** (لجنة تصفية الإقطاع برئاسة المشير عامر) **دي لجنة مستمرة، لم ينتهِ عملها، ستبقى باستمرار**».

في نهاية خطابه هاجم «السعودية» رغم توقيع «اتفاق جدة» معها لتسوية أزمة «اليمن». هاجم «بورقيبة» رئيس

تونس، وأطلق عليه أنه «**عميل مهووس**». وكان مِسك الختام إعلانه عدم الذهاب إلى مؤتمر القمة في «الجزائر» هذه السنة، لأنه لا يستطيع الجلوس مع القوى الرجعية في مؤتمرات قمة مقبلة. نظرتُ إلى «فاتن» وتساءلتُ متعجبًا:

ـ أُمال كان قاعد مع الرجعية من شهور إزاي؟!

أحسستُ بأن الخِناق قد ضاق عليه، فأصبح يتخبط بشِدة. الناس ربطت الأحزمة على البطون، بل مستعدة أن تظل جائعة في سبيل مستقبل سعيد لأولادها. أمل المصريين كبير في أن تتبوأ «الجمهورية العربية المتحدة» مكانة عالية في العالم. ألم يقولوا إننا ثالث دولة تغزو الفضاء بعد أمريكا وروسيا عندما أطلقنا الصاروخ «**القاهر**» منذ أربعة أعوام؟ مشاريع غزو الفضاء، والطائرة النفاثة المقاتلة، والصواريخ الجبارة التي يبلغ مداها مئات الكيلومترات.. كُلها من قوت المصريين. حرب اليمن فقط هي التي كشفت المستور. مغامرة دون كيشوتية بعد مقامرة الوحدة المشئومة. ذهبت الوحدة، ولم يبقَ منها سوى علمها واسمها اللذين تمسك بهما عبد الناصر، بينما تخلى عن اسم «مصر».. أقدم اسم في الوجود!

صباح السبت ٢٣ يولية، يبدأ التلفزيون العربي إرساله مبكرًا. العرض العسكري سوف يبدأ من «مدينة نصر»، الفقرة الثانية في العرض صواريخ «القاهر» و«الظافر» و«الرائد» المحمولة على عربات ثقيلة. العربات تتحرك ببطء شديد، تبلغ سرعتها ثمانية كيلو مترات في الساعة. «الرَّيِّس»

و«المشير» على المنصة محاطان بكبار رجال الدولة، والضيوف، وكبار قادة القوات المسلحة. مذيع الحفل يتفنن في إلهاب حماس الحضور والمشاركين في الاستعراض. أنظر إلى «فاتن»، فأجدها تتيه فخراً وكبرياء. تقول بطمأنينة:

- داحنا لو حاربنا إسرائيل، هنفشها أكيد، بس يا ريت تدينا الفرصة نبهدلها.

أبتسم مجاملًا لها، فأنا أعرف خسائرنا، ومصيبتنا في «اليمن». تذهب زوجتي إلى والدتها، فأنتهز الفرصة لأخرج باحثًا عن أصدقائي. أزمة التلفونات أصعب من الأزمات الأخرى. يمكنك أن تقدم طلبًا لإدخال هاتف منزلي، لكنك ستنتظر عشرين عامًا قبل أن تحصل عليه، وربما قد تموت قبل الاستمتاع بصدى كلمة «ألو» في بيتك. ذهبت إلى محل البقالة على ناصية شارعنا، وانتظرت دوري للحديث من تلفونه. دفعت قرشين صاغ، ورفعت السماعة وطلبت رقم مقهى «إيزافيتش» بميدان التحرير. رد عم «جمعة»، وأخبرني بوجود «غالب هلسا» و«سيد خميس». أنطلق إلى هناك، لأجد شِلة الأصدقاء قد اكتملت. لاحظت في أثناء النقاش، بعض الأشخاص على طاولات أخرى في المقهى ينظرون إلينا، بينما يسترقون السمع إلى نقاشاتنا. شممت رائحة شِياط تأتي من ناحية مطبخ المقهى، وفوجئت بصاحب المقهى الصِّربي يقوم من مقعده ليندفع إلى الداخل. اتجهت أنظارنا تتابعه، وظهرت

أمارات القلق على وجوهنا. بعد دقائق معدودات، خرج الرجل من المطبخ قائلًا بصوت عالٍ:

ـ الحَمدُ لله، ربنا ستر!

أشار لي بيده، فذهبت إليه حيث يجلس وراء مكتبه. همس بصوت خافت:

ـ خلِّي بالك يا خبيبي، إنتم متراقبين!

وجِمتُ، وعُدتُ صامتًا إلى طاولتنا. لم أقل شيئا للأصدقاء، واستأذنت بعد قليل للمغادرة. تساءلت في داخلي: أليس ممكنًا أن يكون صاحب المقهى متوهِّمًا؟ كيف يعمل المخبرون السريون في إجازة عيد الثورة؟! هل أصاب الرجل الخرَف؟!

في المساء، كنت بالبيت مع «فاتن». شاهدنا معًا حفل عيد الثورة الفني الساهر الذي أقيم في «نادي الضباط» بالزمالك. ستار خشبة المسرح ينفتح على حديقة «نادي الضباط» التي امتلأت بصفوف المتفرجين الجالسين على كراسٍ متراصة. انتظرنا وصول «الرِّيِّس». بعد عشر دقائق من ثرثرة مذيع النقل التلفزيوني، دخل حديقة النادي من ناحية المسرح «زكريا محيي الدين» و«عبد الحكيم عامر» و«علي صبري» و«السادات» و«حسين الشافعي». الغريب أن «عبد الناصر» دخل الحديقة وحده بعدهم بثلاث دقائق، وحوله السكرتارية والحراس الشخصيون. كان من المعتاد أن يتحلق حوله رفاقه في مثل هكذا مناسبات!

أزعجتني ملاحظتي تلك. هل هناك ما يحسب له «الزعيم»؟ مؤامرة مثلًا لاغتياله، أم أنه أراد أن يستأثر بعاصفة التصفيق التي دوَّت لدقائق؟!

جلس «عبد الناصر» في الصف الأول مع «عامر» وبقية القيادة. غنت «أم كلثوم» أغنية وطنية جديدة لشاعر شاب، أسمع اسمه أول مرة: «محمود الماحي». اللحن كان للسنباطي، والأغنية اسمها «الفجر الجديد». لم تلفت نظري الكلمات، قصيدة تقليدية تشبه قصائد المدح الجاهلية. أنهت «أم كلثوم» الأغنية بكوبليه ختامي، حاز تصفيق الحاضرين:

«وفتاكِ عبدُ الناصِرِ

بطل الكفاح الصابِرِ

لم تعطنا الدُّنيا سواه ولا نريد لها سواه

شدت يداه لنا الصَّباح من الدُّجى

سلمت يداه.. سلِمت يداه.. سلِمت يدااااه»

كانت مفاجأة الحفل أغنية «عبد الحليم حافظ» الوطنية الجديدة «صورة» التي ألفها «صلاح جاهين»، ولحنها «كمال الطويل». ظهر «حليم» على المسرح في الواحدة والنصف صباحًا، بعد أن أنهت «ثومة» وصلتين من الغناء. تحدث مطرب الثورة إلى الجمهور قبل أن يغني مغتاظًا من «أم كلثوم»:

ـ أنا مش عارف إذا كان غنايا بعد أم كلثوم شرفًا لي أم مقلبًا منها، لأن الوقت بقى متأخر على ما أعتقد!

صفق الجمهور، وتناثرت تعليقات عالية من الحاضرين «معاك للصبح يا حليم». انسابت الأنغام من آلات الفرقة الماسية، وصدح «حليم» بأغنية عيد الثورة الجديدة بالتناوب مع المجموعة:

«ناصر واحنا كلنا حواليه.. ناصر ناصر ناصر

وعيون الدُّنيا عليه.. ناصر ناصر ناصر

والنصر بيسعى إليه.. ناصر ناصر ناصر

والشعب دليله وإلهامه

قربوا من فكره وأحلامه يا للي عليكم كل كلامه

في الصورة طالقكم قُدامه، قيادات شعبية قلتم إيه؟»

تنطلق أصوات الكورس بكل قوة وحماسة:

«قلنا يا زعيمنا قلوبنا أهي أيامنا أهي ليالينا أهي

في يوم الدم.. وهبنا الدم.. هنبخل بالليالي ليه

«صورة صورة صورة كلنا عاوزين صورة

صورة للشعب الفرحان تحت الراية المنصورة»

في منتصف الأغنية انطلق حمام أبيض من قفص جريد، حمله إلى خشبة المسرح شخص ما. طار الحمام

في سماء النادي الصيفي المفتوح. كانت «فاتن» منجذبة بكل كيانها إلى الشاشة، وإلى نجمها المفضل، بل المطرب المحبوب لكل نساء مصر وقتها. كان مرض «حليم» ويُتمه دافعين لا يمكن مقاومتهما لتعاطف الأمهات والشابات معه. غنى «عبد الحليم» أغنيتين أخريين في الحفل: «على حسب وداد قلبي»، و«أنا كل ما أقول التوبة». أغنيتان قصيرتان تناسبان حالته الصحية. كنت قد جلست إلى طاولة السُّفرة، وفردت أوراقي أمامي استعدادًا للكتابة بعد إنهاء «ثومة» وصلتيها. نامت زوجتي في أثناء مشاهدة أغنية «حليم» الأخيرة. لم أنتبه إلا على صوت الوشيش العالي المميز لانتهاء الإرسال، فقمت أوقظها لتذهب لتنام. كانت تغط في نومها، فأحضرت وسادة وضعتها تحت رأسها، وأفردت جسدها على الأريكة. نظرتُ إلى ساعتي، فوجدت عقاربها تشير إلى الثالثة والنصف صباحًا. أطفأت الأنوار، وذهبتُ إلى غرفة النوم.

عندما ذهبت ظهيرة الأحد إلى الجريدة، قابلت مدير التحرير الذي حضر الحفل الساهر جدًّا بالأمس. كانت عيناه حمراوين من ليلة الأمس، وأمامه على المكتب كوب كبير مليء بالقهوة السوداء السادة. قلتُ له:

ـ حاسب على صحتك، إنت لسه وراك عيال!

ـ ما تخافش، عمر الشقي بقِي. احمد ربك إنها قهوة مش «كونياك» زي اللي بيشربه الشيخ «محمد».

كان الشيخ «محمد» حاصلًا على «العالمية»، وله عمود يومي في جريدتنا يلفت بشدة نظر القراء. تقدمية الشيخ «محمد» الذي انتسب في شبابه لتنظيمات يسارية، وسَعة اطلاعه، جعلتاه قادرًا على إثارة القضايا الاجتماعية والفقهية في شجاعة متناهية. هو لا يُحرِّم الفن والسينما، ويُحلِّل شرب البيرة بينما يحرم نبيذ العنب، وله أسانيده المعتبرة. يجلس إلى مكتبه، وأمامه فنجان شاي من الخزف، يملؤه بين حين وآخر عامل البوفيه من زجاجة «كونياك» أعطاه إياها الشيخ. فوجئت بمدير التحرير يهمس مقربًا رأسه من سطح مكتبه:

ـ ما خدتش بالك من الحَمَام اللي طار إمبارح في أغنية عبد الحليم؟

ـ أخدت بالي طبعًا، واضح أن الأغنية كانت كلمات، ولحن، وغناء، وإخراج كمان!

ـ لا، بسلامته «حليم» خلى ابن خالته يجيب قفص حمام، ويطيرُه في سما نادي الضباط في نُص أغنية «صورة»!

ـ أنا شُفت المنظر ده في التلفزيون.

ـ اللي إنت ما شفتهوش بقى، لما نزل رجالة الحرس الجمهوري اللي مستخبيين في الشجر بتاع النادي، وقبضوا على ابن خالة «حليم».

كان يضحك، بينما أنا أفكر في الحمام الذي طار بعيدًا، والحرس الذي هبط من السماء على الأرض!

بعدها بأيام، فوجئت بمدير التحرير يستدعيني إلى مكتبه، وينبئني باختيارى لمتابعة وتغطية مؤتمر المبعوثين الذي سيبدأ فى مُجمع الكليات النظرية بجامعة الإسكندرية. أبديت استغرابي؛ فمحررو التعليم والشباب موجودون، وينتظرون هذه الفرصة. فهمت منه أن المؤتمر سياسي في المقام الأول، ويحتاج تغطية أوسع. أنبأني بأن رؤساء تحرير الصحف والمجلات سيحضرون بضعة أيام فيه. مدير تحرير جريدتنا رجل طيب كما يقولون: «ما تتبلش في بُقه فولة». في هذه المرة، أصر على أن يصطحبني إلى شرفة مكتبه، وقال بصوت هامس:

ـ المؤتمر ده مهم قوي، واضح إن «الريس» هيروحه ويتكلم فيه، ويناقش المبعوثين.

ـ غريبة! ليه؟

ـ أصل في عيال مبعوثين عاملين دوشة. بيزايدوا على «الرِّيّس»، ورافعين شعارات يسارية متطرفة.

ـ إزاي؟ مش فاهم!

ـ المشير لما راح باريس أول السنة دي، قابلهم وحصلت مناقشات بينه وبينهم. في اجتماعين للأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي، ولأمانة الجيزة تمت إثارة هذه الواقعة. واضح إن في تمرد من مبعوثي الدولة إلى الخارج، وده موضوع حساس جدًا.

تساءلت عن مغزى اختياري لهذه المهمة الصحفية، وخاصة أن هناك زملاء كثيرين يستطيعون القيام بها.

ضحك مدير التحرير، وقال:

ـ عشان إنت فيك لطشة يسار، وتقدر تفهم الكلام اللي هيتقال. وبعدين يا سي عبد المعطي، حد يلاقي تصييفة معتبرة وما يروحش! خد مراتك معاك وقضيلك كام يوم في بنسيون!

ظللت أفكر في هذا التكليف المريب. هل فعلًا الجريدة لم تجد غيري إلى جانب محرر التعليم، وربما رئيس التحرير لتغطية هذا المؤتمر؟! عندما أخبرت «فاتن» بمهمة الإسكندرية أبدت حماسًا، خاصةً أن والدتها قد برئت من مرضها.

هكذا وجدت نفسي مع «فاتن» في «بنسيون» بالإسكندرية في صبيحة ٢ أغسطس.

فاصل

١ يونية ١٩٦٦ - جريدة الأهرام..

المانشيت الرئيسي للصفحة الأولى:

السلطات الملكية في السعودية تعتقل عددًا من المواطنين المصريين.

٧ يونية ١٩٦٦ - الأهرام..

موشي ديان يزور فيتنام الجنوبية ليدرس سير الحرب هناك، ويقدم للرئيس الأمريكي جونسون تقريرًا باقتراحات بشأن إدارتها.

في مناقشات مجلس الوزراء عام ١٩٦٦..

السيد زكريا محيي الدين رئيس مجلس الوزراء يقول: «الفلاح عاش طول عمره بجلباب واحد، وفي السنوات الأخيرة تعود أن يعيش بجلبابين، وليست هناك مُشكلِة أن يعود إلى الجلباب الواحد مرة أخرى لِسنة أو سنتين لضرورات التنمية».

يونية ١٩٦٦..

يتلقى السيد أنور السادات رئيس مجلس الأمة دعوة لزيارة واشنطن ضمن «برنامج قادة المستقبل» التابع لوزارة الخارجية الأمريكية. يوافق عبد الناصر بشرط أن يصطحب وفدًا برلمانيًا معه. استغرقت الزيارة عشرة أيام.

يولية ١٩٦٦..

ذو الفقار علي بوتو يزور القاهرة بعد تركه وزارة الخارجية، ويبلغ عبد الناصر بعدوان إسرائيلي وشيك تم بحثه في مؤتمر حلف الأطلسي في تركيا.

٢٢ أغسطس ١٩٦٥ ـ الأهرام..

لقاء بين ناصر وفيصل في جدة لبحث حرب اليمن. ذهب الرئيس للسعودية على متن باخرة من ميناء «برنيس».

٢٤ أغسطس ١٩٦٦ ـ الأهرام..

توقيع اتفاقية جدة بين ناصر وفيصل.

الاتفاقية تقضي بعمل استفتاء شعبي لشعب اليمن لتقرير مصيره في موعد أقصاه ٢٢ نوفمبر عام ٦٦، والدخول في مدة انتقالية حتى الاستفتاء، وتعاون الطرفين على تشكيل مؤتمر انتقالي.

٩

منذ أن غادرت «حلوان»، وأنا أفكر في الحديث الذي جمعني بأمين مساعد «المنظمة» الشاب. أخرجت نصف الورقة التي عليها أرقام هواتفه من حقيبة يدي. وتأملت خطه الواضح. حروف وأرقام واثقة، رغم أن خطَّه لا يعبأ بقواعد رسم الحروف التي كانوا يعلمونها لنا في المدارس في كراسات تحسين الخطوط المخصوصة. سألت نفسي: «ماذا يريد حمزة مني؟». ملأت رأسي احتمالات عديدة؛ منها أنه يأمل فيَّ كقيادة نسائية في «المنظمة». لكن الشكّ راوَدَني، وهل من المعقول أن يختارني ليدفع بي للأعلى، وهناك عشرات من الفتيات يتفوقن عليَّ في دورة «إعداد القيادات»؟! هل يريد أن يتسلى بي كشاب في عنفوان شبابه، أم أنه يريد صداقتي؟ ولعل الاحتمال الأضعف في مُخيلتي، كان جدية «حمزة» في الارتباط العاطفي معي.

قررت ألا أتصل به، وإن احتفظت بورقة أرقام تلفوناته في حقيبة يدي، وبالأدق في كيس النقود الجلدي. في اليوم الثالث بعد رجوعي من «حلوان»، فوجئت بزميلة لي تطلب مني أن أرد على تلفون يطلبني بالاسم. جهاز الهاتف في الغرفة المجاورة يرقد على مكتب رئيسة قسم النسخ. رفعت السماعة، بينما كانت الرئيسة تراجع بعض الأوراق المطبوعة. جاءني صوته:

ـ صباح الخير، أنا حمزة. ما تصلتيش ليه؟

شَلَّتني المفاجأة، فصمتُ برهة. جاءني صوته متعجبًا ومترددًا مرة أخرى:

- هو في حد جنبك؟!

اضطررت إلى أن أختلِقَ عبارة أقولها، حتى لا تنتبه رئيسة القسم إلى ارتباكي:

- أيوه يا أفندم، هاحضر الاجتماع الجاي بإذن الله!

- اجتماع إيه؟ آه فهمت.. هتخلصي الشغل إمتى؟

- الساعة اتنين.

- خلاص، قابليني الساعة أربعة في حديقة جروبي بشارع عدلي.

- حاضر يا أفندم!

طوال الوقت الذي قضيته في الشركة، كنت أتساءل: ما الذي جعلني أوافق على لقائه في مكان خارج مقرات «المنظمة»؟! من الواضح، أن الموضوع لا يتعلق بأنشطة «منظمة الشباب»، بل هو شخصي محض! خرجت من مقر الشركة، واخترقت شوارع جانبية لأصل إلى ميدان «سليمان باشا». هناك سمعت صوت «شادية»، يصدح من مُكبِّر صوت مُعلق على باب محل للملابس الجاهزة: «ولا قدك مية يا بو العين العسلية.. إن شا الله تاخدني لشط الجنة الدهبية.. وان رحت معاااك وطاوعني هوااااك.. حهرب على أول مركب حتعدي عليًا». شقاوة صوت

«شادية» لم تمنعني من التمعُّن في كلمات الأغنية. كيف ستهرب من حبيبها ومن الجنة على أول مركب يمرّ عليها؟! هل حبيبها مراوغ يلعب بها، ويتسلى بها؟!

ذهبتُ إلى البيت، أو بالأحرَى إلى الغرفتين اللتين تسكن فيهما عائلتي فوق السطوح. بعد تناولي الغداء، غسلت وجهي في دورة المياه المشتركة. تأملتُ وجهي في مرآة قديمة بالغرفة، ووضعت بودرة خفيفة على وجهي. أخرجتُ إصبع أحمر الشفايف، وخططت به شفتيّ. «حمزة» يتمتع بوسامة لافتة، ويشغل منصِبًا سياسيًّا يؤهله ليكون من حكام البلد. لماذا يطلب اللقاء بي في حديقة «جروبي»؟! صحيح أن محطات الإذاعة تكرِّر أنه لا فرق بين وزير وخفير، وأننا كلنا أولاد تسعة أشهر، ولكن الواقع شيءٌ آخر. ما زلنا نسكن فوق السطوح، ويعيش أبي على ما يجود به سُكَّان العمارة. هؤلاء الذين ينظرون إلينا ككائنات أقل منهم شأنًا، خلقنا الله لنقوم بخدمتهم صاغرين.

عندما دخلت المدرسة الإلزامية، كنت، مع أطفال فقراء مثلي، نرتدي مرايل تيل «نادية» ذات اللون الكاكي. لأول وهلة كان من الصعب أن تفرق بيننا، وبين ميسوري الحال ومتوسطي الناس. لكن إذا دققت النظر، وجدتنا نحمل أكياسًا من قماش الدمور الكالح تضم دفاترنا وكتبنا المدرسية. وإذا نزلت بنظرك إلى مستوى أقدامنا الصغيرة، اكتشفت أن أقدامنا العارية في برد الشتاء لا

تدفئها أحذية ولا جوارب، بل شباشب بائسة أو أحذية من قماش رخيص. وإذا استطاع الأهل تدبير حذاء، فهو في الغالب قديم ممزق جاد به علينا الموسرون بعد أن ملُّوه. طفولتي ليست سعيدة، وبالمقابل ليست بائسة كل البؤس. خدمة سُكان العمارة، ومشاوير شراء حاجيات العائلات التي تقطن شققها ليست بالهينة على طفلة صغيرة. طِفلة ينتزعونها من فراشها الفقير؛ لتحضر أصنافًا من البقالة، أو تقف في صف طويل وفي يدها حلَّة لتشتري بقرشين صاغ فول مدمس وعشرة أرغفة من الخبز الصابح.

وهل كان يخلو الأمر من الخِدمة داخل الشُّقق؟! وهل يمكنني نسيان ما حدث لي ذات مرة؟!

كان الساكن في إحدى الشقق بالطابق الرابع، قد غابت عائلته في إجازة منتصف العام. ذهبت إلى بلدتها في شمال الدِّلتا. كنت معتادة على مساعدة ربة المنزل في التنظيف، أو الإتيان بما تريده من عند البقال. وكان الرجل موظفًا حكوميًّا في الخمسينيات من العُمر، يبدو عطوفًا، يحتفظ دائمًا في جيب سترته بالباستيليا المغلفة «نادلر»، وباكوَات أقراص النعناع «إيكا» المستطيلة الصغيرة، كان يهديني إياها إذا قابلني أمام البيت، أو إذا تصادف صعوده مع نزولي على السِّلم. في هذا اليوم، ناداني لأشتري له جُبنًا وزيتونًا من البقال. وعندما أحضرتهما، أدخلني مسكنه وطلب مني غسيل المواعين بالمطبخ ملوِّحًا ببريزة ورقية. كنت في السنة الخامسة الابتدائية. أحضرت كرسي الحمام،

ووقفت عليه، وانحنيت على الحوض المعدني. فوجئت به يحتضنني بقوة من الخلف، ويداه تتشبثان بصدري الصغير. وحشٌ انفلت من عقاله! أحسست بعضوه منتصباً، يكاد يخترق جلابيتي الرخيصة. صرختُ بكل ما أوتي لي من قوة صرخةً واحدة. كانت نافذة المطبخ نصف مفتوحة، فرَن صوتي في المنوَر كاستغاثة قط جريح. جفل الوحش المطبق على جسدي، وتراجع للخلف. استدرتُ وعيناي تذرفان الدموع بغزارة. رأيتُ وجهه مضطرباً، وعلى شفتيه ابتسامة مترددة. كان يلوِّح بورقة العشرة صاغ. قال متوسِّلًا:

- خُذيها يا كريمة!

كنت كفأرٍ اصطاده قط شرس، وحاصره في زاوية الحجرة. أطلقت ساقيَّ للريح، وعدوتُ ناحية باب الشقة. لم يحاول منعي. ملامحه المتوترة ظلت تطاردني. جاء صوته متوسلًا:

- يا بنتي، إنتِ فهمتِ غلَط!

لم أخبر أبي، لكني حكيتُ لأمي ما حدَث. أخفت والدتي الأمر عن والدي، لكنها منذ ذلك اليوم منعتني من معاونة السُّكان في شراء متطلباتهم. ظلت محاولة الاعتداء عليَّ تؤرقني في أحلامي. لم أتخلص من آثارها السلبية إلا بعد سنوات. انخراطي في العمل والدراسة، فضلًا عن انضمامي لمنظمة الشباب أنسياني مرارة تلك التجربة.

ازددت ثقة بنفسي، وبقدرتي على الحصول على مكان لائق محترم. هي «الثورة» إذن يا «كريمة»، لم تنجز العدالة والمساواة المطلقة. لكنها خلقت حدًّا أدنى من الكرامة الإنسانية، وكفلت التعليم للفقراء.

أخطو واثقة إلى موعدي مع «حمزة». أدخل «جروبي» من ناحية باب حديقته المطل على شارع «عدلي». أنزل بضع درجات لسُلم حجري، لأجد نفسي وسط طاولات وكراسٍ من خيزران تحوطها حديقة، وورود، ونباتات متسلقة. أول موعد مع رجل بمفردي، قلبي يخفق بقوة. أشعر به يثب من صدري، ويسبِقني فأحاول اللحاق به! ها هو «حمزة» ينتظرني، يجلس إلى طاولة على اليمين. وقف عندما اقتربت منه، احتوى كفه كفي في حنان. أزاح الكرسي المقابل لكرسيه إلى الخلف بكلتا يديه. انتظرَ حتى جلستُ على الكرسي، ثم استدار ليأخذ مكانه. كادت ضحكة أن تفلت مني؛ فأنا لم أتعود تلك المشاهد الكاريكاتيرية التي نشاهدها على شاشة السينما! في عائلتنا يعاملون النساء باحترام، ولكن ليس بهذه القواعد البروتوكولية التي تذكرني بألعاب السيرك.

بادرني بصوت بدا مترددًا بعض الشيء:

ـ كنت خايف ما تجيش.

أجبته متعجبةً:

ـ وليه ما أجيش؟ أنا اتفقت معاك!

نظر إليَّ في ولَه، وشاب وجهه احمرارُ الخجل:

- اسمعي يا كريمة، أنا من ساعة ما شفتك في معسكر حلوان، وانتِ شاغلة بالي. مش قادر أفكر أو حتى أشتغل. حاسس إن في كيميا بيننا. وِشِّك دايمًا قدامي، وابتسامتك جوايا!

اضطربت من هذا الهجوم العاطفي الصاعق. كان عليَّ أن أخفي الزلزال الذي ألَمَّ بي. انتابت أصابعي، بل جسدي رعشةٌ حاولت أن أخفيها. تماسك صوتي، وأنا أقول له:

- مِش ملاحظ إنك اتسرعت قوي! إحنا ما لحقناش نعرف بعض. يا دوبك إنت عرفت أصلي وفصلي، وأنا قعدت معاك دقايق بسيطة في الحديقة اليابانية. لِسه ما عرفناش بعض كويس، عشان نتكلم عن حُب وعواطف.

- لا، أنا طول دورة إعداد القيادات حاسس إني مشدودلِك، زي ما أكون منجذب لمغناطيس مش قادر أقاومه. يمكن إنتِ ما لاحظتيش، لكني كنت متابعك وواخد بالي مِنِّك. عجبتني عفويتك وصِدقِك.

- بس العفوية والصدق ممكن تلاقيهم عند بنات كتير!

- صحيح، بس إنتِ كُلِّك على بعضك عاجباني. شكلك، لونك، حركاتك، طريقتك في الكلام والتفكير. كفاحِك اللي يخليكِ تشتغلي وتروحي الجامعة. إنتِ شخصية مش

عادية، ما قدرش أقاوم وما أحبهاش.

ـ كده هاخد مقلب في نفسي. ما قدرش أنكر إنك جذبت انتباهي في معسكر القيادات. لكن المسائل ما بتتاخدش خبط لزق كده. خلينا نتعرف على بعض أكتر، ونشوف هنتوافق مع بعض ولا لأ.

بدا «حمزة» مقتنعًا بحديثي، وإن ظهرت على وجهه بعض علامات خيبة الأمل التي سَرعان ما تغلب عليها. غرقت في حديث معه عن أذواقنا في كل مجالات الحياة. ضاع تحفظي أمام بساطته وصراحته. مرةً أخرى، دخلت السياسة والهموم العامة في حوارنا. أردت أن أصارحه بتساؤل يؤرقني بشدة. انفلتت الكلمات مني دون ترتيب، وفي عفوية:

ـ في حاجة حصلت من تلات شهور محيراني قوي!

ـ إيه؟ خير، اللهم اجعله خيرًا!

ـ كان في ميدان التحرير دوشة كبيرة قوي، نزلت من الشُّغل عشان أتفرج. عشرات الآلاف من الناس ماشيين ورا نعش. البوليس محاوطهم، وبيحاول يسرق النعش منهم. الناس خدت النعش بالقوة ومشيت بيه. بصراحة اللي حصل شدني جدًّا. مشيت على الرصيف لغاية ما وصلوا سيدنا الحسين. سألت واحد ماشي معاهم، فقال لي: ده مصطفى النحاس مات!

ـ آه، دي جنازة النحاس زعيم حزب الوفد قبل ثورة

يولية.

ـ غريبة، مش الراجل ده رجعي، ومن الثورة المضادة!

ـ العدد الكبير اللي مشي في جنازته بيقول إن الرجعية لسه موجودة في البلد، ولسه مسيطرة على عقول الناس.

ـ أنا كنت مذهولة وأنا باسمع هتافات زي: «اشكِ الظلم لسعد يا نحاس»، ولما وِصلُوا الحُسين هتفوا: «يا ابن بنت الزين.. جالك الحبيب الزين!».

ـ أنا سمعت عن الجنازة، وعرفت إن للأسف كان فيها شباب زينا بس مضحوك عليهم، وتم اعتقال كثير من الوفديين اللي شاركوا فيها.

ـ أغرب منظر شفته، مِعلِّم ابن بلد حط النعش على عربية موتى، ووقف عليها يرقص فرحان!

ـ فرحان ليه؟!

ـ عشان غَلبُوا البوليس، وخدوا الجثمان منه! ههههه!

ـ الثورة لسه ما تجذرتش وسط الناس؛ أصحاب المصلحة الحقيقية فيها.

قال العبارة الأخيرة، ونظر إليَّ وحاجباه مرفوعان في دهشة وتعجب:

ـ تصوري إن في شباب من المنظمة انقبض عليهم في الجنازة دي! مالهم ومال النحاس؟! موميا سياسية عاوزين

يرجعولها الروح!

انطلقنا في حديث مترامي الأطراف. كانت عيناه تبرقان من السعادة، كلما اكتشف أننا نشترك في الإعجاب بشيء ما، أو أننا متفقان في موضوع عام أو خاص. اتفقنا على موعد آخر للقاء آخر، وللنزهة معًا. كفاه أمسكتا بكفيَّ على الطاولة. كانت حرارتهما مرتفعة، أو ربما خُيل لي ذلك. هل كانت يدي باردة من الخوف الذي يسبق مغامرة الحُب؟!

أصْررتُ على أن نفترق، وألا يسير معي في الشارع. فبيتنا قريب، ومن الممكن أن يرانا أحد الجيران أو أصدقاء أخويَّ.

كنت أعلم أن الفوارق الطبقية بين أسرتينا قد تصبح عائقًا، مستحيل الوثوب عليها. ولكن ألسنا في «المنظمة» التي تعلِّمنا أن قيمة الإنسان بعمله، وأن اشتراكيتنا تسعى لتذويب تلك الفوارق، وأننا - نحن الاثنين - من قوى الشعب العامل أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة؟ انقسمت الدُّنيا عندي إلى مرحلتين: ما قبل «جروبي»، وما بعده! حتى الأغاني التي كنت أسمعها من قبل، صِرتُ أشعُرُ بكلماتها وكأنها معانٍ لم أكتشفها في الماضي.

«صياد ورحت اصطاد صادوني.. يا عدوية

طرحوا شباكهم رموش العين.. صابوني

يا عدوية!

عدوية أهيه.. أهيه

ضحكتها نهاااار

عدوية أهيه

أهي، أهي، أهي

شمس وأسرار

إوعوا تحلوا المراكب.. والله يا ناس ما راكب

ولا حاطط رجلي في المية.. إلا ومعايا عدوية

عدوياااااااا»

أغانٍ ليست كأغاني الماضي المنشَّاة عند الكواء. أغانٍ تصف حب الناس العاديين الغلبانين والشقيانين. بدأتها «شريفة فاضل» بأغنية: «فلاح كان فايت بيغني من جمب السور.. شافني وأنا بجمع كم وردة في طبق بنور.. قطع الموال آآه ااه.. وضِحك لي وقال: يا صباح الخير يا صباح الخير.. يا اهل البندر.. يا صباح النور». صحيح، أن فلاح «شريفة فاضل» يتطلع لأهل البندر في تسلق طبقي واضح، ولكن أليست قصتي مع «حمزة» بها بعض التشابه؟ أغاني «رشدي» تزيح «حليم» المعبود «البريمو» للفتيات. «تحت السَّجر يا وهيبة، ياما كَلْنا برتقان.. كُحلة عينيكِ يا وهيبة.. جارحة قلوب الجدعان»، هذه الأغنية «الصَّدْمة» التي اجتاحت شوارع المدينة بلهجة الغلابة في الأرياف، تمتلئ بأوصاف لم يعرفها الغناء المصري من قبل. تشبيهات وجُمل

لا يمكن أن يغنيها «عبد الوهاب»، أو «حليم». فكرتُ كثيرًا في «الأبنودي» الشاعر، كيف اختار لفظًا مثل «السجر»، كما ينطق الفلاحون «الشجر»؟ هل لم يخف ألا يتقبله الناس المعتادة على «محلاها عيشة الفلاح» و«بلاش تبوسني في عينيا»؟ أغاني الصيادين والصنايعية والفلاحين تذاع في الإذاعة، وتتناقلها أفواه الناس. أشعر أحيانا بالظلم؛ فأغاني أهلي في النوبة لم تصل إلى القاهرة بعد! سألت مرة والدي الأمي عن ذلك الغياب، فأشاح بظهر يده، وعلى فمه ابتسامة أقرب إلى الامتعاض، مضيفًا:

- يعني يا بنت ستين كلب، عاوزاهم يفتكرونا! طب ليه يفتكرونا؟ لَغونا وبينسفونا، حتى لما يحبوا يجيبوا بَرَبَري في السيما يخلوه مسخرة. ده حتى «علي الكسار» دهنوا وشه بالهباب الأسود عشان يقلدنا!

لم أستطع أن أجيبه. أحسست بخنجر يخترق صدري، ويمزِّق ما بيني وبين «حمزة». تذكرت احتفالات عيد الثورة الماضي، والمطرب «محمد العزبي» يصبغ وجهه وكفيه بالأسود ويغني:

«ناصر.. عامر..

اليجولا ما حد دوسا»

ألم يجدوا نوبيًا واحدًا قادرًا على أن يقول ذلك الكوبليه، ويحرك يديه إلى الأمام والخلف في زيه النوبي؟

تكررت لقاءاتي مع «حمزة»، كنت حريصة على أن تكون

في أوقات الظهيرة أو العصر، حتى لا أثير ريبة أهلي. كنت أجلس فوق السطوح متخذة من سوره الحجري مسندًا لكوعي، بينما ترتاح رأسي على كفي. بحر التفكير في مصير قصتي مع «حمزة» يغرقني بموجاته المتلاطمة، وفي لحظات تصفو صفحته ويصير هادئًا منبسطًا. تأتي المقدمة الغنائية لمسلسل «الضَّحِية» التلفزيوني من شرفات ونوافذ الأدوار العليا للعمارة التي نعيش فوقها، وشبابيك العمارات المجاورة. تخف حركة المشاة في الشارع ويأتي صوت ملتاع مجروح:

«يا للي انت ماشي على الطريق بمدَاس

ما تدوسش أحسن تحت مِنك ناس»

نوافذ مضاءة، وأزواج وزوجات يظهرون من خلالها. أحضان، وقُبلات، ومشاجرات. متى يُصبح لي ولحمزة بيتٌ وبابٌ يُغلق علينا؟!

في مفاجأة من العيار الثقيل، زارنا ابن عمي «زكي» في طريقه إلى قريتنا في الجنوب. ظهر تعبُ الرحلة الشاقة من «اليمن» على وجهه. حطت به طائرة نقل عسكرية من طراز «أنتونوف» في مطار «ألماظة». التف أخوايَ ووالدايَ حوله. كانت حقائبه ثقيلة، فتح واحدة منها وأخرج بعض الهدايا منها لأخويَّ ولي. كان يصوِّب نظراته لي بين كل حين وآخر. أصبح صوته ذا نبرة عالية، يتكلم بثقة وتعالٍ:

ـ من أربع شهور ونص أنا هناك. دي أول أجازة لِيَّ. قُلت أزوركم قبل ما أروح البلد. ما شاء الله كريمة كِبرت وبقت عروسة!

يحكي عن طائرة النقل العسكرية التي جاء على متنها، كيف وضعوا البضائع التي اشتروها من «عدن» وحقائبهم وسطها، وألقوا عليها شبكة متينة مثبتة بحلقات في أرضية الطائرة. جلس الجنود العائدون في إجازة في أركان الطائرة كموازين لجسم الطائرة، ووضعوا كمامات الأكسجين على أنوفهم. الطائرة مكيفة فقط في كابينة القيادة.

سأله والدي:

ـ هو ما فيش طيارات مدنية تبع شركة الطيران المتحدة تيجوا عليها؟!

ـ في طبعا يا عم إدريس، بس كتير من الضباط بيفضلوا الطيارة دي؛ لإنها بتشيل مشترياتهم الكتيرة اللي وزنها تقيل. كمان، هي زمن رحلتها من صنعاء لمصر أقل من الطيارة المدنية بساعة.

ـ ومرتاحين يا ابني هناك؟

ـ التموين عال العال؛ معلبات وبقوليات.. وكل واحد من الوحدة بينزل أجازة بيجيب معاه أكل مطبوخ؛ إشي صواني رقاق ومكرونة وكشك وحمام محشي ولحوم محمرة، ده غير المنتجات المصرية من زتون أسود وبسطرمة ومربى

وحلاوة طحينية. ده حتى اللمون البنزهير الصغير بتاعنا بيبعتوه الأهالي لنا. ما بنحتاجش إلا الجراية (العيش).

هتف أخي الأصغر:

- الله ده عيشة آخر ألاجة بقى!

رد «زكي» وبانت تقطيبة بين حاجبيه، جاء صوته بنبرة تقريرية مكسوة بالمرارة:

- مش آخر ألاجة قوي، تعرف إن أتباع الإمام سمّموا آبار الشرب. المية بتيجي في خزانات كبيرة على بواخر من ميناء الأدبية من مصر!

شهقت أمي، وضربت بكفها على صدرها:

- يا لهوي!

استطرد «زكي» مستشعراً أن الأهل يجب أن يعرفوا أن أبناءهم لا يرفلون في النعيم المُطلق هناك:

- إحنا مش عارفين مين من اليمنيين بيحارب معانا، ومين ضدنا. كل شوية القبائل تغير مواقفها وانتماءاتها. تاخد مننا دهب، وتاخد من السعوديين والإمام دهب تاني. إحنا في المدن ونقاط ارتكاز، والملكيين بيساندهم طيران إنجليزي ومرتزقة في الجبال وحوالينا. لو واحد غِفِل وغمض عينيه في الحراسة يندبح بخناجرهم. حِدة نظرهم رهيبة، بيمسكوا البندقية بإيد واحدة وينشنوا. رصاصة واحدة تجيب أتخن تخين. رُصاص مخصوص يخترق الجسم وينفجر جواه اسمه

«دم دم»!

نظرت أمي إلى أبي نظرة ذات مغزى، قال بعدها والدي:

- ربنا يحميكم يا ابني!

منذ فترة طويلة أشعر فيما يفكران فيه. يرون في ابن عمي «زكي» زوجًا مناسبًا لي؛ فهو نوبي مثلنا، والنوبيون لا يعطون بناتهم لغيرهم. بل الأكثر من ذلك، يعتبرون زواج النوبي بامرأة غير نوبية نقيصة كبرى. ذهاب «زكي» إلى حرب «اليمن» عطَّل خطتهم. يتصرفون وكأنهم يعيشون في قرية نوبية منذ أوائل القرن الحالي. لا يفهمون أن الدُّنيا تغيرت، وأن التعليم يُساوي بين الرءوس والأعراق. «زكي» أيضًا لمَّح لي عن إعجابه قبل أن يسافر إلى «اليمن».

قررت أن أتدخل في الحديث قائلة:

- لكن واجب الجمهورية العربية المتحدة مساندة الثورة في اليمن، مِش كده يا زكي؟!

رد «زكي» بسرعة:

- طبعًا.. طبعًا.

واصلت كلامي:

- «الرِّيِّس» يخوض معركة الشعب العربي ضد الرجعية، وأنظمتها الملكية في المنطقة. ده دور مصر بكل إمكانياتها وقدراتها الجبارة. أكيد هتبقى في خساير بسيطة في الأول،

لكن الجماهير العربية هتنتصر، مش كده ولا إيه؟!

صمت «زكي»، وهز رأسه بالموافقة، وإن ظهر في عينيه ترددٌ صامت. لم يتحمل والدي ما قُلتُه، وظهر الامتعاض على وجهه. كانت عيناه حمراوين من الغضب. صاح بصوتٍ عالٍ أفزع الجميع:

- إنتِ بتستهبلي ولا إيه! وِلادنا بيموتوا هناك بعيد عن بلدهم، وانتِ قاعدة تقولي يُفط وشِعارات. بدل ما نصرف فلوسنا على الفقرا اللي ماليين بلدنا، قاعدين نبعزقها على نقل مية الشُّرب والتموين لجيشنا هناك. كُل ده عشان إيه؟ عشان الفشخرة والبُقِين اللي بيقولهم كل شوية.

كِدت أن أقاطعه، وأرُد على ما يقوله من أقاويل الثورة المضادة، لولا أن أمي قد وضعت يدها على ذراعي، وزجرتني بنظرة منها. أخفض «زكي» عينيه إلى الأرض، وبدا مُحرَجًا. واصل «إدريس» غضبته:

- بدل ما يضيَّع أرواح ولادنا وفلوس بلدنا على بلد في آخر الدنيا وشعب مش متفق مع بعضه، يشوف التعويضات بتاعت أراضينا وبلادنا في النوبة. تعويضات عِرة ما دفعهاش!

صَمتُ، وتحججت بذهابي إلى دورة المياه المشتركة على السطح؛ لأهرب من مناقشة لا طائل منها. كانت غرف السطح الأخرى مليئة بعائلات وأطفال فقراء، وكان بعضُها يستخدم كمخازن لبعض الباعة المتجولين. نحن قبل

المغرب بقليل، وشمس العصاري تتأهب للرحيل. كانت أصوات عائلتي تصل متقطعة إلى أُذُنيَّ. سمعت صوت «زكي»:

- المُشير بيزورنا باستمرار، دي آخر مرة في مؤتمر للضباط هناك قرر إن كل ظابط عاوز جهاز منزلي.. بوتاجاز أو تلاجة أو سخان.. ياخد جهاز واحد. في الأول كانوا بيخصصوا وحدة واحدة لكل كتيبة كل شهر. الأجهزة دي بتيجي من عدن، وعدن رخيصة قوي. أنا حجزت تلاجة.

سمعت صوت أمي:

- ياه، هو الحاجات دي مترطرطة في اليمن؟!

- في عدن، وبتيجي اليمن، وساعات نروح نشتريها من عدن! دا إحنا سمعنا إن الرَّيِّس طلب من المُشِير التحقيق مع بعض أعضاء مكتبه. في كميات كبيرة من الأجهزة المعمرة بتتشحن على طيارات نقل الجيش، وبيتاجروا بيها في مصر!

بعد دقيقتين سمعت صوت «زكي» مرة أخرى:

- مش مُناسِب يا عمي إدريس، أخطُب كريمة في الأجازة دي؟

طال صمت والدي بعض الوقت، وأجاب:

- يا ابني لما ترجع من اليمن نهائي، تخطبها بإذن الله. هو

إحنا هنلاقي أعز منك يصُونها.

خرجت أمي من الحجرة لتجدني أستند إلى سور السطح، وكُلِّي إنصات لما يدور بالداخل. أخبرتني بطلب «زكي» الاقتران بي، وهزت رأسها هامسةً:

- هو إحنا مجانين نديكِ لواحد مش عارفين هيرجع من الحرب ولا لأ! أبوكِ عاقِل، أجِّل الموضوع ده.

في هذه اللحظة أدركتُ الحقيقة، وأن أمامي وأمام «حمزة» وقتًا قصيرًا يجب أن يتقدم فيه لأهلي، وأن يُقنع عائلته بزواجنا.

«اتفاق جدة» الذي وقعه «عبد الناصر» مع «فيصل» في «جدة» منذ شهور، يتعثر. فهمت من حديث «زكي» أن المعارك تشتد. قواتنا أصبحت متمركزة في «صنعاء» و«الحُدَيْدة»، وتُحاصِرها قوات «الإمام البدر». أما أنا فمحاصرة مِن تقاليد بالية، وعائلة تدافع بشراسة عن نقائها النوبي وحماية شعبها من الانقراض، أو الذوبان في ثلاثين مليونًا من المصريين!

فاصل

غرفة مكتب المشير الواسعة تشهد اجتماعًا هامًّا. ثلاثة أشخاص فقط في الغرفة. علي شفيق يُقطِّب ما بين حاجبيه، بينما يقف وراء المشير يتابع باهتمام الحديث. يُشعِل المشير سيجارته، ويتوجه بكل وجهه إلى محدثه:

- مش ممكن نسيب النادي الأهلي في الورطة اللي هو فيها يا «مرتجي». الرَّيِّس قال لي أشوف حل.

- صحيح يا أفندم.

- أنا النهارده هاصدر قرار بتوليك منصب رئيس الأهلي. اعتبر إن ده تكليف عسكري.

- حاضر يا أفندم!

- أنت قائد القوات البرية، وتستطيع أن تعيد الضبط والربط لفريق الأهلي. اللوا «سليمان عزت» قائد البحرية ورئيس الأوليمبي بيحقق نتايج كويسة. شكله هياخد الدوري السنة دي.

- هعمل كل ما في جهدي يا أفندم.

- احلق للعيبة على الزيرو، وشدهم في معسكر، واعملهم طوابير ذنب. مش معقول الأهلي يوصل للمركز العاشر، وينزل لدوري الدرجة التانية.

ينصرف اللواء «مرتجي»، ويقترب «علي شفيق» ضاحكًا

من المشير:

- والله ما شفت زملكاوي قلبه على الأهلي زيك!

يبتسم المشير في عذوبة وتواضع:

- نعمل إيه يا شفيق، إذا كان الرَّيِّس أهلاوي؟

١٠

رائحة اليود المشبع تأتي من شرفة غرفة «البنسيون» المُطِلة على «كورنيش» الإسكندرية. أخرُج إليها، فأُبصر الحركة الدائبة في ميدان «سعد زغلول»، ومحطة «الرمل». ما زلت مستغربًا إيفاد الجريدة لي، صحيح أنني - كأي صحفي - عضو في «الاتحاد الاشتراكي»، لكنني لست في «التنظيم الطليعي». أخبرني رئيس التحرير منذ عام بأنني مرشح للدخول إلى ذلك التنظيم السِّري للثورة، لكنه صَمَتَ بعد ذلك متجاهِلًا الموضوع. حمدتُ الله أنهم ابتعدوا عني، وتركوني في حالي. لم أكن أصلح لعضوية هذا التنظيم؛ فليس من طبعي التجسس على الناس وكتّابة التقارير! ما زالت «فاتن» في السرير تقرأ جريدة «الأهرام». طلبتُ منها أن ترتدي ملابسها؛ لنخرج ونتناول إفطارنا في مطعم «محمد أحمد». كعادتها، سألتني:

- طب إنت مش هتتأخر على المؤتمر كده؟!

تظن أنها حريصة - أكثر مني - على عملي. أفهمتها أن مناقشات صباح اليوم غير مهمة، وأن زميلي المختص بالتعليم والجامعات سيتابع الجلسات الصباحية. انطلقنا إلى مطعم «محمد أحمد»، بصعوبة وجدنا مكانًا شاغرًا به. كانت أول مرة نتذوق فيها «فاتن» الفول الإسكندراني بطريقة هذا المطعم الشهير. فول بصلصة الطماطم، وقطع السجق، والثوم، والليمون! تفنن أصحاب المطعم في إدخال

مكونات عديدة إلى صحن الفول المصري، وأقراص الفلافل الساخنة! نظرت إلى «فاتن» التي جلست أمامي، وفتحت فمها لتطفئ الطعم الحريف بدفقة هواء تلقفها. سألتني بينما كان أحمر شفاهها قد بهُت من لقيمات الفول المدمس:

- إنت جيت هنا كتير قبل كده؟!

- لا، مرات قليلة.. ليه؟

- أحسن تكون بتعزم الستات هنا دايمًا!

ضحكتُ بصوت عالٍ، وأدركت أن غيرة «فاتن» القاتلة لا فكاك منها. شرحتُ لها أن هذا المطعم كان يمتلكه يهودي اسمه «بنيامين»، وباعه لعامل لديه في عام ١٩٥٧. سافر «بنيامين»، وبقيَ المطعم، وبقيَ أمامه سور «المدرسة الإسرائيلية للبنات» التي أصبحت تحمل اسمًا آخر. عندما انتهينا من الإفطار، أخرجت «فاتن» إصبع أحمر الشفاه ومررته على شفتيها. خرجنا معًا من المطعم، وسِرنا في شارع «سعد زغلول». انتشرت موضة «الميني جيب» و«الميكروجيب» هذه الأيام في مصر. أحيانًا أتساءل في نفسي: هل هذه الموضة مناسبة للفتاة والسيدة المصرية؟! ظلَّت فساتين المصريات ردحًا من الزمن تقف حافتها في منتصف الرُّكبة. وفي العام الأخير، أبت صرعة «الميكروجيب» إلا أن تكشِف الرُّكبة، ومساحة كبيرة من الفخذين. ابتسمتُ عندما تذكرت قول أحد أصدقائي بأن

رُكب المصريات ضخمة، وليست جميلة وانسيابية كتلك التي تتمتع بها الأوروبيات. جاء صوت «فاتن» بغتة:

ـ ما تبُص قدامك، قاعد تبحلق في رِجلِين الستات ليه؟

فضحتني نظراتي ونظارتي الطبية! نحن في شهر «يولية»، حرارة الجو تزداد بدرجة الرطوبة العالية التي تشتهر بها «الإسكندرية». البحر ينفث بخار الماء، كمُدخِّن شَرِه ينفخ دخان سجائره في وجوهنا. ترتدي «فاتن» فستانًا يكاد يلامس الحد الأعلى للرُّكبة، فستانًا بلا أكمام. الفتيات والنساء يسرن في الطريق في موضات مختلفة: الفستان «الشِّوال» القصير(فستان بلا تضييق على الوسط، لا يحتاج من الترزي إلى جهد كبير)، والبلوزة والبنطال، والقميص والجوب القصير، وأنواع أخرى من صرعات الموضة. تنتشر في الصحف والمجلات المصرية الرسوم الكاريكاتيرية عن القيمة الاقتصادية الكبيرة للفساتين القصيرة، وكيف أنها وفرت على رب الأسرة الكثير من المصاريف التي تتطلبها أمتار القماش للفساتين الطويلة. في نفس الوقت، يرتدي الشباب القمصان ذات الألوان الزاهية والكم القصير. لم يعد اللون الأبيض أو الزهري هو القاعدة للقميص الرجالي. بدأ الشبان في قص شعورهم على طريقة «عبد الحليم حافظ»؛ حيث ترتخي خصلات شعر طويلة على جانب الوجه، وتكاد أن تغطي العين. موضة تربية السوالف ووصلها بالجزء الأعلى من الصدغ بدأت هي الأُخرى على استحياء. أتأمل كل ذلك مُدرِكًا

أن العالم أصبح أكثر قربا من بعضه أكثر من أي وقت مضى!

عندما اقتربنا من ميدان «المنشية»، تركتها تدلِف وحدها إلى داخل محل «هانو» الشهير. وضعتُ نفسي في تاكسي؛ لأنطلق إلى المجمع النظري لجامعة «الإسكندرية» بحي «الشاطبي». الإجراءات الأمنية على بوابة الجامعة مُشدَّدة، لكنني لا أرى «الحرس الجمهوري» بزيه الشهير والبيريه الأزرق. أُظهِر التصريح الصحفي الخاص بي؛ فيسمحون لي بالدخول. هناك عدة اجتماعات للجان المؤتمر، رئيس المؤتمر هو السيد «كمال رفعت» أمين الدعوة بالاتحاد الاشتراكي. تلتقي وفود المبعوثين بالسادة الوزراء والمسئولين، فيبدو المؤتمر حتى الآن كدورة تثقيفية وتوعوية لهم. تتخلل تلك اللقاءات زيارات إلى مواقع مختلفة في الإسكندرية؛ منها زيارة إلى القوات البحرية بدعوة من الفريق أول «سليمان عزت». دخلتُ إلى اجتماع إحدى اللجان، فوجدتها تناقش محاضرة عن التطبيق الاشتراكي في (الجمهورية العربية المتحدة - ج.ع.م). زملائي من محرري الصحف يتابعون أنشطة المؤتمِرين. استرعى انتباهي وجود أعضاء وعضوات من منظمة الشباب يقومون بالتنظيم، وتلقي الاقتراحات، وإيصال أسئلة المبعوثين. افتتح المؤتمر السيد «علي صبري» الأمين العام للاتحاد الاشتراكي مساء يوم ٣٠ يولية، وتحدث عن «الديمقراطية والتنظيمات الشعبية». في

الصباح التالي رد على أسئلة المبعوثين في ثلاث ساعات. علمت من مصادري الخاصة، أن هناك لجنة من ثلاث قيادات بالمنظمة تطبع المحاضرات وتوزعها على الدارسين، وتقوم بمتابعة المناقشات والاقتراحات. قمت بصياغة تقرير عن أنشطة اليوم للمؤتمر، وأملَيته عبر الهاتف بالمركز الصحفي للجريدة.

اقترب مني شاب في العشرينيات من عمره في أثناء مراجعتي للمركز الصحفي. فوجئت أنه يقرأ لي ما أكتبُه بجريدة «الجمهورية». عرّف نفسه بأنه الأمين المساعد للمنظمة. اسمه «حمزة»، أدركت أهمية وجوده ضمن لجنة تتابع المناقشات والاقتراحات. تحدثت معه عن المناقشات التي دارت في لجان المؤتمر المختلفة، فوعد بإعطائي نسخة من التقارير عنها. سألته عن إمكانية عمل تحقيق صحفي معه ومع عدد من قيادات المنظمة والمبعوثين، فلم يُمانِع. جلسنا بالكافتيريا الملحقة بمكان المؤتمر، وعبر حديثي معه تأكدت من إخلاصه لعبد الناصر وقضية التحول الاشتراكي. أثار انتباهي اهتمامه بقضايا التحرر العربي. تحدث عن ثورة اليمن، وحركات تحرير ظفار، وانتصار القوميين في العراق. سألني:

- هل تقرأ مجلة «الحُرية» التي تصدر في بيروت، وتُوزَّع في مِصر؟

أجبته بأني صحفي، وأن من مقتضيات وظيفتي أن أقرأ الصُّحُف والمجلات التي تصِلنا. شعَرتُ بأنه متأثر بأفكار

«القوميين العرب». كان سعيدًا بمناقشات المبعوثين في اللجان المختلفة. عندما سألته عن «منظمة الشباب»، أجاب وطلب ألا أكتُب إجابته، وأن أحتفظ بها لنفسي:

- يا أستاذ عبد المُعطي، المنظمة دي هي الأمل الحقيقي لبناء الاشتراكية في مصر. دي تنظيم بيتبني بجدية، مش زي الاتحاد الاشتراكي اللي لامم الرأسمالي على الاشتراكي على الوُصولي.

أثارتني إجابته، وظللت أُفكِّر فيها لأيام!

في أحد الأيام، كانت جلسة السيد «كمال رفعت» ساخنة، حيث تحدث في الصباح عن «طبيعة المرحلة الحالية التي تجتازها الجمهورية العربية المتحدة»، وفي المساء في لقاء مفتوح مع المبعوثين اقترح أن يزور وفد من المبعوثين «اليمن» للتعرف على حقيقة الموقف هناك، كما رد على سؤال قائلًا: «إذا حصلت إسرائيل على القنبلة الذرية فإننا، كما قال الرئيس، سنشن حربًا وقائية ضدها». بعدها بيومين، كان لقاء السيد «فتحي الديب» الذي أجاب عن سؤال مُحرِج لأحد المبعوثين عن «العاصفة» و«فتح» قائلًا: إن منظمة التحرير الفلسطينية هي الأكثر انضباطًا وتنظيمًا، وإن «فتح» تقوم بعمليات فردية وأفرادها مخلصون. أفصح «الديب» بأن لقاءً تم بين الاتحاد الاشتراكي و«فتح» هذا العام!

في إحدى الأُمسيات، رجعت إلى «البنسيون»، فوجدت

«فاتن» قد اشترت مايوهًا حريميًا لتستحم في شاطئ «الإبراهيمية» القريب. ضَحِكتُ، وتساءلتُ:

- هو إنتِ فاكرة إني ممكن ألاقي وقت زي النهارده، أنزل معاكِ البحر؟!

- أنا قلت يمكن نلاقي فرصة، ولو ما لقيناش أنزل وحدي الصُبح بدري قبل الساعة تسعة.

أردت إسعادَها، فوعدتها أن أُدبِّر يومًا في نهاية المهمة للذهاب إلى شاطئ «المعمورة». جلسنا في شرفة الغرفة على كرسيين من الخيزران متجاورين، ولم نشعل ضوء الشرفة. صوت موج البحر يأتي من بعيد، ومعه جلبة أصوات المصطافين في الشارع. اقتربت برأسها مِني، ووضعته على صدري. أحطتها بذراعي. كانت رائحة شعرها الزكية تغزو أنفي، وتدغدغ مشاعري. «فاتن» امرأة تخاف أن تفقد زوجها. هذا ما يفسر تشبثها بي، وخشيتها عليَّ من أصدقائي ومعارفي. لست قِديسًا بالطبع؛ فلديَّ نزواتي القصيرة. من ذا الذي يرفض الجميلات في زمن «الميكروجيب»؟! أفَقت من هواجسي على نظرات عينيها التي تعلقتْ بوجهي. رفعت بإصبعين من راحتِي ذقنها؛ حتى أنظر في عينيها. ألقٌ، وحيرة. وضعت شفتيَّ على شفتيها، واستغرقتنا قبلة طويلة حانية. ضممتها بذراعيَّ إلى صدري، ونهضنا متجهين إلى داخل الغرفة. أطفأنا «الأباجورة» الموضوعة فوق «الكومودينو»، واستلقينا عاريين على السرير. أعطت «فاتن» لي نفسها بسخاء، ألقمتني ثدييها. تأوهاتها أثارت

كل ما فيَّ من رغبة. أحسست بأنها تبذل نفسها، كما لو كانت ليلتنا الأخيرة.

قبيل الصباح، خرجت إلى الشرفة لأُدخِّن. صفحة البحر هادئة، لا أكاد ألحظ فيها زبد الموج الأبيض. راياتٌ حُمر قد رُفِعت على سواري نقاط مراقبة الغطاسين؛ لتنبئ بمسالمة البحر لأجساد المصطافين. دخلت الغرفة، فوجدت «فاتن» ما زالت نائمة. كانت ملاءة خفيفة تستر نصفها الأسفل، بينما ظهرها العاري مواجه لي. قبلت ظهرها قبلة خفيفة، وسحبت الملاءة حتى كتفيها. ارتديت ملابسي في هدوء. أخرجت ورقة من حافظتي، وكتبت عليها:

«أُحِبك.. اليوم ٦ أغسطس، سيلتقى الريس بالمبعوثين. يجب أن أكون هناك وأتابع ما يحدث».

خرجت في هدوء. سيأتي «عبد الناصر» بعد الظهر، لكنني يجب أن أذهب مبكرًا توقيًا لأي مفاجآت. جلست على مقهى بالكورنيش، كنت أقضم سندوتشات الفلافل وأزدرِدُها بكوب من الشاي، وفي نفس الوقت، كنت أطالع إحدى الصحف. ما زالت مباراة النهائي في كأس العالم لكرة القدم تحظى بتحليل النقاد الرياضيين رغم مرور ستة أيام عليها. الكل يحاول أن يجيب عن: كيف استطاعت «إنجلترا» العجوز الفوز على «ألمانيا» ٤ ـ ٢؟ مقال يحتل صفحة كاملة عن بدء أفول كرة أمريكا اللاتينية، وزعيمتها البرازيل! شاهدتُ المباراة بعد موعدها بيومين على مقهى بالأنفوشي، أذاعتها قناة ٥ في السهرة بعد

العاشرة مساء.

ظهر جنود «الحرس الجمهوري» أمام بوابة الحرم الجامعي، وداخل الكليات. حالة استنفار قصوى، وتفتيش للصحفيين والحُضُور. جهد جبار، عدد كبير من المبعوثين والمبعوثات، ناهيك عن كثرة المنظمين والصحفيين والمسئولين. تم إعداد ثلاثة مبانٍ بالمدينة الجامعية بالشاطبي، بها ٤٥٠ سريرًا للمبعوثين. كما خُصِّص مبنى خاص للمبعوثات اللائي بلغ عددهن ١٥٠ طالبة. يجذب اهتمامي تركيز الرئاسة على المؤتمر؛ فلقد حولت جريدة «الطلبة العرب» إلى جريدة يومية تصدر طوال أيام المؤتمر. عدا ذلك، تم إعداد مركز استعلامات للترجمة إلى الإنجليزية والفرنسية لمعاونة مراسلي الصحف والوكالات الأجنبية. جلسنا في مُدرج كلية الحقوق الضخم، ننتظر دخول «عبد الناصر». في المساء دخل الرئيس وسط عاصفة من التصفيق من المبعوثين، وأعضاء «منظمة الشباب» الذين توزعوا في أنحاء المدرج. لم يكن عصيًّا علينا كصحفيين، أن نلاحظ رجال الخدمة السرية مُندسِّين وسطنا. يجلس «عبد الناصر» على المنصة ما بين المشير «عامر» والسيد «علي صبري».

بدأ «عبد الناصر» حديثه بمطرقةٍ على رءوس المبعوثين: **«لم يكن هدف المؤتمر إنكم تيجوا هنا تشوفوا المشاكل وتحلوها؛ لإن صعب قوي إنكم تِحِلوا المشاكل، وفي هنا آلاف الناس في قدرتهم إنهم يحلوا المشاكل». أصبح**

واضحًا لي أن الأجهزة قامت بواجبها في تحريضه على «الجيل الصاعد»! بعد عِدة جُمل عن الصناعة يواصل: «النهارده الصُبح سمعت نقلًا عن مؤتمركم بعد الظهر إن فيه طبقة جديدة! لما نمسك المجتمع بتاعنا ونحلله هنلاقي في طبقات كتيرة جديدة بالنسبة لما كنا نراه قبل الثورة... لا يمكن أن تكون في طبقة جديدة؛ لإن ٥ آلاف جنيه مش ممكن تعمل طبقة جديدة. لكن بقَول فيه طبقة جديدة فعلًا موجودة النهارده، ولكن مش اللي بيقصدوهم الرجعيين اللي بيتكلموا في البلد، باقول في طبقة جديدة طالعة في البلد وهي طبقة المقاولين وطبقة تجار الجملة. بعد تصفية الرأسمالية القديمة، خلقنا فعلًا رأسمالية جديدة موجودة بالنسبة لتجار الجملة. بالنسبة لمقاولي القطاع الخاص بالبناء، دول بياخدوا تقريبًا ٦٠٪ من المباني الموجودة في البلد. وفي خلال ٣ سنين قررنا إن إحنا حنعمل على إن تجارة الجملة كلها تكون تابعة للدولة، ونزود القطاع العام بالنسبة للمقاولات بحيث إنه يوصل إلى ٨٠٪. الكلام اللي بيتقال على طبقة المديرين وطبقة مجالس الإدارات وطبقة الضباط.. الضباط ما حدش فيهم بيوصل لـ٥ آلاف جنيه في السنة ولا حتى «عبد الحكيم»! يعني مرتبه أقل من ٥ آلاف جنيه». أصَمَّ أذنيَّ تصفيق حاد في القاعة. جاء صوت «ناصر» في موجة جديدة أنعشها التصفيق.

أحسست باعتدال مزاجه وهو يواصل مرتجلًا: «يعني هم

بيقولوا طبقة جديدة ليه؟ بيقولوا دول كانوا زمان بيتعشوا في «سميراميس» أو ما كانوش بيروحوا «شبرد».. دلوقتِ أما تروح «شبرد» أو الروف بتاع «شبرد» تلاقي الطبقة الجديدة. ده بهذا التعبير لا يمكن إن إحنا نعتبر إنها طبقة. ما هي الاشتراكية كان مش فقر ولا حُزن، الاشتراكية إن إحنا عاوزين كل الناس». تصفيق من القاعة يقاطعه، لكنه لا يأبه به. يرفع صوته: «إن إحنا نِدِّي الفرصة لكل الناس. بيقولوا :كل واحد جاي من بره جايب معاه عربية مرسيدس، ودول بيقصدوا طبعًا حضراتكم، وما بيقصدوش الموجودين هنا». انفجرت القاعة بالضحك والتصفيق. قلت في سريرتي: «ربنا يستر علينا». فكرت في هذا العام، والذي قبله، وكم القضايا والاعتقالات التي تمت فيهما بذريعة النشاط المعادي. قضايا تنظيمات يمينية ويسارية تمتلئ بها الصحف. أجهزة أمنية ذات يد باطشة، تخنق أي رأي مغاير. أعلنت الحكومة عن إلغاء الأحكام العرفية وحالة الطوارئ، لكن سلطات «المشير» و«المباحث الجنائية العسكرية» تقوم بأكثر من الواجب!

انتبهت على صوتِه: «إحنا ما عندناش رقابة على الصحف، لكن عندنا توجيه.. إيه بقى المقصود بحرية الصحافة؟ هل يعني معنى حرية الصحافة إن الصحافة تشتمنا؟ إحنا في ناس بره بيشتمونا وبنعتبر دول كفاية».

بعد حديثه، بدأت المداخلات من القاعة. أشعر بتدفق صريح لأفكار جديدة، خاصة من مجموعة المبعوثين في

فرنسا، والنمسا، وبعض البلدان الأوروبية الغربية. أتذكر اللقاءات التي عقدها «المشير» معهم، وأهاجت مسئولي «الاتحاد الاشتراكي»، هذا الجيل يتمرد على قادته، وينحو ناحية اليسار! انتبهت إلى موضوع يثيره الطلاب، ولم أكن أتصور أن يصارحوا «الرَّيِّس» به. أسئلة متلاحقة عن البيروقراطية العسكرية، والتفرقة ما بين طلاب البعثات المدنيين وبين العسكريين. يسأل مبعوث من وفد «بريطانيا» عن تلك التفرقة في المُرتَبَات. يرد «عبد الناصر»: **«ضباط الجيش حياتهم مش سهلة، أولًا هو يمكن نشغله ٢٤ ساعة في اليوم. ضابط الجيش ما بياخدش (أوفر تايم)، وعدد كبير منهم فاتحين بيتين. وبعدين ضباط الجيش بيموتوا، وبعدين في كل العالم العسكريين واخدين ميزات. بالنسبة للبعثات أنا مش هقدر أجاوب على هذا السؤال. أنا سألت المشير النهارده، ووجدت إنه ما عندوش فكرة خالص عن الموضوع اللي أثير هنا، أو فيه كلام إن العسكريين بياخدوا عشرة جنيه بدل في اليوم.. هل ده حقيقي.. غير حقيقي؟ ما عرفش. اتفضل..»**.

يقف مبعوث مجهول الاسم ليتحدث: «إذا كان عضو بعثة عسكري بيدرس دكتوراه ومعاه عضو مدني بيدرس نفس الدكتوراه وفي نفس الجامعة، العسكري بياخد بدل سفر يتوقف على رتبته العسكرية ويصل إلى عشرة جنيهات يوميًّا، بينما المبعوث المدني مرتبه معروف وثابت ويقل عن ٢ جنيه في المتوسط. وده السبب الحقيقي في شعور

بعض المبعوثين المدنيين تجاه المبعوثين العسكريين، ويطالبوا بشدة أن يتساوى الجميع طالما أن الاثنين ليسا في ساحة حرب أو ميدان قتال!».

يرد الريس: «**أنا مش هاعرف أجاوب على سؤالك، المشير عامر هيشوف الموضوع، ولكن ما تصورش إن العملية هيكون فيها مساواة في تصوري. أنا سألت المشير قبل ما آجي، ما لقتش عنده فكرة أبدًا أعضاء البعثات بره بياخدوا إيه. يعني إنهم ياخدوا عشرة جنيه؟ قالي: مستحيل.. دا الكلام اللي حصل**».

يقف مبعوث من «تشيكوسلوفاكيا» مقاطعًا: «أنا باخد المنحة بتاعتي، ونفس زميلي اللي بيدرس في نفس الجامعة وعند نفس الأستاذ المشرف بياخد المنحة ٣٢ جنيه، وبعدين وهو خارج من هنا يكتب «مُهِمة» ويُصرف له بدل سفر يومي حسب الرتبة العسكرية بتاعته! بعض الأساتذة بيسألونا: زميلك بيتغدى النهارده في لوكاندة الهيلتون في البلد، وانت رايح تتغدى ليه في السيدة زينب؟!».

ألحظ أمارات الضيق على وجوه بعض المسئولين. أشعر بأن «عبد الناصر» يستشعر الحرج،، فيأخذ المبادرة للخروج من المأزق: «**بالنسبة لهذا الموضوع إن شاء الله بنصحى.. ونحِل**». ترتفع ضحكات متواصلة من المدرج، فيواصل عبد الناصر مبتسمًا: «**المشير يحل هذا الموضوع، مع الوضع في الاعتبار لفرق الرُتبة. يعني إذا كان ضابط قائمقام أو**

مقدم أو جنرال مش معقول بتبعته عشان ياكل في السيدة زينب، برضه عاوزين الجنرال يروح ياكل في الهيلتون.. مِش كده؟!».

تمتد المناقشات لتصل مدتها إلى خمس ساعات. يكاد ليل الإسكندرية أن ينتصف. أسمع صوت عبد الناصر: «**عندي اقتراح هنا من ناس عايزين آجي بُكره**». يتحدث إلى أحد مساعديه، مبديًا عدم رغبته في الحضور. تنفجر القاعة بتصفيق حاد يستجدي حضوره غدًا. يتحدث موجهًا نظراته الحادة إلى الجميع: «**الحقيقة قبل التصفيق دا كنت حقولكم إن أنا مش عايز آجي**». يضحك: «**ومستعد أسهر معاكم النهارده لأي وقت.. أنا مش شايف حاجة ما تقالتش يعني**». صوت يأتي من المدرج يقول إن هناك أشياء لم تذكر. يرد عبد الناصر: «**طب، شكرًا. بُكره.. بُكره الساعة سبعة زي النهارده**». أنظر إلى صحفي يجلس بجواري، فأجده نائمًا ورأسه راقدًا على صدره. ألكزه بكوعي برفق؛ كي أخرج من وراء «البِنش». ينتفض مفزوعًا قائلًا:

- حصل إيه؟!

يوزع نظراته حوله، ويهمس:

- حد أخد باله؟

عندما رجعت إلى «البنسيون»، وجدت «فاتن» تنتظرني في قلق. بكلمات مختصرة، شرحت لها ما حدث. لم أرغب في أي عشاء؛ فقد كان عقلي مشغولًا بما حدث

اليوم. ظهر مانشيت أحمر أمام عينيّ: «**جيل الثورة يتمرد على قيادتها**». مانشيت مستحيل أن يُنشَر هذه الأيام!

في مساء اليوم التالي، بدأ عبد الناصر حديثه: «**إخوانّا بتوع فرنسا، أنا مش شايفهم هنا وبادور عليهم. أنا إمبارح النسخة أما قلت إن أنا قريتها، ما كانش قصدي إن أنا برفض إني آخد النسخة منكم وبالعكس.. يعني إذا كانت معاكم فين هي؟ وأنا مستعد آخدها**». ضحك الرئيس؛ فضحك الجميع معه. كنت أعرف حكاية وفد مبعوثي فرنسا، ومذكرتهم التي صاغوا فيها رأيهم في بيروقراطية الدولة، وظهور طبقة رأسمالية طفيلية جديدة في مصر من أعضاء مجالس الإدارات، وكبار العسكريين، والمقاولين. بالأمس حاول أحدهم أن يتحدث ويقرأ وجهة النظر الجماعية، لكن «عبد الناصر» رفض أن يتحدث باسم جماعتهم. وعلى إثر ذلك امتنع أعضاء البعثة عن الحديث. أسماؤهم كان قد تم نشرها منذ ثلاثة أسابيع في الأهرام؛ من بينهم «السيد ياسين» و«حسن حنفي» و«حسام عيسى» و«رشدي راشد». انصبت جلسة نقاش اليوم مع «الرّيّس» عن مشاكل المبعوثين المالية وإعفائهم لمبلغ معين من الجمارك، والتأجيل للتجنيد، ومشكلة وجود درجات مالية لهم في الجامعات المصرية عند العودة من الخارج. الساعة قاربت الثانية عشرة ليلًا، انتبهت إلى عبد الناصر يُنهي الجلسة، وقبل أن ينهيها يتساءل: «**إخوانّا بتوع فرنسا عايزين تتكلموا، ولا مش عاوزين؟ لأن باعتين**

يقولوا هيبعتوا للسيد علي صبري، والسيد زكريا محيي الدين بمشكلاتهم، وأنا أشكرهم على هذا الإعفاء».

بعد إنهاء عبد الناصر كلمته، فوجئ الحاضرون بإعلان «كمال رفعت» عقب انتهاء الجلسة انتهاء أعمال مؤتمر «المبعوثين العرب»، غريب أمر هذا البلد، يصرون على طمس اسم «مصر»، فيتجاهلون أن المبعوثين مصريون! أهم ما قاله «رفعت»: **«إنه بعد لقاءات الرئيس جمال عبد الناصر بالمبعوثين أصبح لا محل لأي لقاءات أخرى، ولا أعمال للجان التي تفرعت عن المؤتمر لبحث مشاكل المبعوثين؛ لأن الرئيس عبد الناصر قد حل المشاكل في أثناء اجتماعهم به».** كتمتُ ضِحكتي؛ فقد كان معلنًا من قبل أن المؤتمر سينتهي في ١١ أغسطس وليس في ٧ منه، يبدو أن ما أثاره طلاب البعثات قد تخطى الحدود المسموح بها، وقد آن وقت إسدال الستار على مسرحية الديمقراطية.

استاءت «فاتن» عندما أبلغتها بانتهاء مأمورية عملي، صاحت:

- والإجازة اللي خدتها من شغلي، أعمل فيها إيه؟!

- معلش، إحنا نقعد بُكره كمان، وبعدين نروَّح على مصر.

على طاولة صغيرة على رصيف محطة مصر بالإسكندرية، جلست «فاتن» أمامي وعلى وجهها أمارات الضيق. فرَدتُ صفحات جريدة «الأهرام» أمام عينيَّ، فغطت

وجهها. كنت أشعر بتضايقها لرجوعنا إلى حر القاهرة. في إحدى الصفحات الداخلية وجدت إعلانا اجتذب اهتمامي:

«محلات هانو في القاهرة والإسكندرية تعلن عن توافر

مايوهات جانسن وارد إنجلترا للسيدات والرجال،

طواقي بحر وبونيهات وارد ألمانيا الغربية،

إيشاربات حرير طبيعي وارد فرنسا،

تُباع بمناسبة أعياد الثورة».

فاصل

كان مدير مكتب القائد، وكانت زوجته مطربة فاتنة. بعد «النكسة» وجد نفسه مُفلِسًا معزولًا من منصبه مقطوعًا من راتبه، بينما قاطعت الإذاعة والتلفزيون زوجته. انصرف عنهما الأصدقاء والمعارف والأتباع. ذهب إلى صديق قريب من «الزعيم»، واستنجد به ليحدث الزعيم عن جوعه وحال أسرته.

في أول فرصة وجدها الصديق للتحدث مع «الزعيم» في لقاء منفرد، أثار شكوى الرجل. نظر «الزعيم» إليه قائلًا:

- إنت ما تعرفش اللي عمله معايا؟

- لا!

- في سنة ٦٢ طلعت إشاعة إن القوات المسلحة انضمت كلها لحكيم، وأصبح لا يقف معي سوى الطيران. في الظروف دي جه صاحبك اللي بتتوسط له بمدفعية الجيش ووجهها إلى بيتي، وقال: لو طيارة واحدة حلقت من أي مطار في مصر هنضرب بيت «عبد الناصر» بالمدفعية!

١١

لم أكن أعرف أن أمامي الكثير من تعقيدات الحياة، تلك الحياة التي كنت أظن أنها مقبلة عليَّ بوجه مبتسم مرحب. حكايتي مع «كريمة» تتعقد، وقِصتي مع منظمة الشباب تدخل في أطوار جديدة خطرة. أشعر بأن مساحة المناورة أمامي ضئيلة محدودة. آمالي عريضة تصل إلى السماء، والواقع يُضْيِّق الخناق عليَّ. كيف بدأت الدنيا تدير لي ظهرها؟ كيف تتبدد الآمال العريضة رويدًا رويدًا، لأجد نفسي ووجهي إلى الحائط؟

مقابلتي الأخيرة مع «كريمة» أثارت القلق داخلي. كُنَّا داخل الأتوبيس النهري في طريقنا إلى «القناطر الخيرية» في يوم جمعة. أبلغت «كريمة» عائلتها بأن «منظمة الشباب» تقوم بنشاط خدمي في «شبرا الخيمة». اتجه الأتوبيس إلى الشمال من محطته الرئيسية على كورنيش النيل بالقرب من ميدان «التحرير». نسمة الصباح تداعب وجهينا في حنان، وتضفي علينا قطرات الماء المتناثرة مع حركة «الموتور» انتعاشًا جميلًا. نظرنا إلى صفحة «النيل» التي اضطربت بفعل حركة «اللنش»، أمواج متعاقبة تحيط بنا. قالت «كريمة»، وهي تنظر ناحية «الجزيرة»، دون أن تدير رأسها إلى وجهي:

- النهارده شُفت الشَّك في عيون أبويا وأمي، لاحظت إنهم مش مصدقين حكاية يوم الخدمة العامة ده.

ـ غريبة! بس أهلك عارفين إنك نشيطة في المنظمة، وياما سابوكِ تحضري دورات تثقيفية بالأيام، وتباتي بره البيت!

ـ مش عارفة، حاسَّة إن أبويا شايل في نفسه ومتضايق.

ظلَّت تنظر إلى «النيل»، وناحية «الزمالك». لفنا صمتٌ عميق، بينما كان صوت الماء المنساب عكس اتجاه حركة «اللنش» الكبير يعلو في تصاعد. أنظر حولي، فأجد عددًا قليلًا من الركاب في هذا الصباح الباكر ليوم الإجازة الأسبوعية. يتحرك بائع متجول يحمل رفًّا من خشب جيئة وذهابًا. على الرف المعلق في رقبته بحبل، أقلام حواجب ومصاحف ورقية صغيرة وأمشاط وفرشات أسنان. يجلس في صف أمامي أحد الركاب الذي قام بفرد صحيفة «الأهرام» أمام وجهه. أقرأ في صفحة داخلية عنوانًا: «اللائحة الجديدة لمنظمة الشباب الاشتراكي تُعلَن يوم ٢٢ يولية بعد أن تمت مناقشتها على المستوى الشعبي». تلمس كفي ذراع «كريمة»، فتلتفت إلى ما أنظر إليه. أهمسُ لها:

ـ عشرة أيام بس اتبقت على إعلان قيام المنظمة.

تبرُق عيناها، وتبتسم. المنظمة تضم ٣٠ ألف عضو وعشرين موجِّهًا سياسيًّا، ولها لجنة مركزية من ٥٧ عضوًا. صحيح أن مستوياتها القيادية تُفرَض من أعلى، وأن اللجنة المركزية تقوم بتعيين لجان المحافظات والأقسام، لكنها مرحلة انتقالية ستتلوها انتخابات بالتأكيد فيما بعد. لحظة

الإعلان تتوج جهدًا استمر ثلاث سنوات لتكوين هذا العدد من القيادات الثورية الشابة. مراحل ثلاث، ودورات مكثفة، وعرق أيامٍ وليالٍ.

يبدو مرسى «روض الفرج» من بعيد، فيتجه إليه الأتوبيس النهري. أحتوِي بكفي كف محبوبتي. يظهر كازينو «روض الفرج» على «الكورنيش» وسط أشجار خضراء. في بدايات القرن العشرين، كان ساحل «روض الفرج» مكانًا للسهر والفرفشة والمسارح والملاهي الليلية. الآن، تبقى منه فقط منتزه مورق و«كازينو» لمواعدة العشاق. انتبهت على همسات «كريمة»:

- بدأ الكلام في البيت عندنا، والتلميح عن رغبة ابن عمي في الجواز بي.

- دي أول مرة تقوليلي الكلام ده!

- وما كنتش عاوزه أقوله، حاسَّة إننا بنسبح ضد التيار.

أي تيار؟! هل هو تيار الفوارق الطبقية التي تفصل بيني وبينها؟ لم أُخبرها بالصِّراع الذي يجري داخل عائلتي بعد إعلان رغبتي في الارتباط بها. أنا واثق من قدرتي، وتصميمي على تجاوز معارضة عائلتي البرجوازية. فاجأتني «كريمة» بهمسات متعجلة مضطربة:

- تقاليد النوبيين تمنعهم من تزويج بناتهم بأغراب!

- أغراب؟! هو إحنا مش كلنا مصريين؟

تواكبت حيرة كلماتي، مع مغادرة «اللنش» الكبير لمرسى «روض الفرج»، بعد أن صعد ونزل منه ركاب معدودون. اتجه الأتوبيس النهري إلى منتصف مجرى النهر، ووجدتني أغرق في موجات متلاطمة من الحيرة والغضب. ران علينا صمت عميق، لم يفلح في إخفاء التوتر على ملامحنا. عندما وصلنا إلى القناطر الخيرية، وانطلقنا في حدائقها، امتد حوارنا لساعات حول الظروف التي تحيط بمستقبل ارتباطنا العاطفي. اتفقنا على أن نؤجل لقائي بعائلتها حتى ينتهي الاحتفال الرسمي بمولد المنظمة، وعقد مؤتمر المبعوثين العرب في الإسكندرية. حدثتها عن قدرتي على إقناع والدي ووالدتي بزواجي بها. في هذا اليوم، أدركت أن هناك هوة مجتمعية واسعة قد تفصل بيننا. هوة صنعتها وتخلقها ثقافة متخلفة تنتمي للماضي، وتعيش في الحاضر.

ألحظ ترتيبات أمنية مشددة حول بوابات جامعة القاهرة، وداخلها. صباحٌ صيفي حار. قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة تمتلئ بأربعة آلاف وخمسمائة شاب وفتاة. لافتات وشعارات الثورة معلقة على الجدران، وعلى واجهة الشرفة الضخمة للقاعة. اليوم موعد إعلان بدء نشاط منظمة الشباب العلني، بعد سنوات من العمل المتواري لإعداد القيادات. يتصدر السيد «علي صبري» المنصة، ويلقي خطابًا. أحاول النظر مليًّا في وجوه الحاضرين؛ لأرى محبوبتي. أعرف بوجودها معي في نفس

القاعة، لكنني أفشل في العثور عليها. آلاف الوجوه الباسمة المستبشرة، وعشرات الهتافات الحماسية الزاعقة، وأضواء مبهرة لكاميرات التلفزيون وآلات التصوير. أصابتني كل هذه الضجة البصرية والصوتية بدوار. تماسكتُ، فهذا اليوم هو الذي انتظرناه طويلًا.

في اليوم التالي أشتري جريدة «الأهرام»، فأجد كل صفحاتها تتحدث عن احتفالات عيد الثورة المقبلة، وخطاب الرئيس. تملأ صفحات الجريدة إعلانات التهنئة المدفوعة من المؤسسات، والنقابات العمالية والمهنية، ومجالس المدن والمحافظات، والشركات، والمصالح الحكومية. من باب التسلية قررت إحصاء عدد صفحات الإعلانات، فوجدتها تزيد على عشرين صفحة. قررت أن أرى النافع منها، فلم أجد سوى إعلانين يشيران إلى سلعة ضمن ديباجة التهنئة. لعل أبرزها إعلان شركة كفر الزيات للكيماويات:

«هذا هو كفروبيد ٥٥

مركز، فهو فعال

المبيد المنزلي الجديد»

انزوى خبر إعلان قيام «منظمة الشباب» في صفحة داخلية أمام طوفان التهاني والتبريكات. حمدت الله لأني وجدت ما أقرؤه في ملحق الجريدة الأسبوعي، كان به فصل من عمل أدبي جديد للأديب «توفيق الحكيم» بعنوان

«بنك القلق»، شكل فني جديد أسماه «مسرواية»، أي خليط من المسرحية والرواية!

بعدها بيوم، كانت صفحة الأهرام الأولى تزخر بمانشيتات حمراء وسوداء بمناسبة العرض العسكري الذي يُقام اليوم ٢٣ يولية. في الأعلى ثلاث كلمات ضخمة: **«الدرع والقوة الضاربة»**، ثم تأتي العناوين. أثار انتباهي عنوان غريب: **«لأول مرة المواجهة في المعدات بعرض ستة، المواجهة في الرجال بعرض عشرين في الصف الواحد»**. ابتسمتُ مستغرِبًا، وطرأ على بالي سؤال مضحك: هل يعتقد من حرَّر العنوان أن الحروب تخاض بطوابير وصفوف، وبعدد من في تلك الصفوف؟!

مر نهاران، جاءني صوتها عبر الهاتف:

ـ حمزة، عاوزة أشوفك النهارده!

التقينا أمام مدخل حديقة «الميريلاند» القريبة من ميدان «روكسي». ما زالت أشعة الشمس حامية رغم سماعنا أذان العصر. مقابل الحديقة يقع «المعهد الاشتراكي» الذي يُعِد الدراسات والأوراق. ذهبت عدة مرات إلى مكتبته منذ سنوات. وبجانبه مبنى إسلامي الطراز، كان فيما سبق مدرجًا لهواة سباق الخيل. كانت أرض السباق تشغل مساحة تزيد على ستين فدانًا، ثم تحولت إلى مبانٍ وعمارات جديدة، وحديقة أسمتها حكومة الثورة «الميريلاند» (الأرض المرحة). لم نتأخر «كريمة»، فلم

يطل انتظاري دقائق معدودات. اشتريت تذكرتين من شباك التذاكر الذي يقع على يسار المدخل. سعر التذكرة رُبع جنيه، مبلغ ليس بهيّن. تأبطت ذراع فتاتي التي أصرت على ألا نتجه يمينًا إلى الكازينو، وأن نخطو يسارًا في طرقات الحديقة الوارِفة الظلال. جلسنا على دكة خشبية قريبة إلى حد ما من ضلع الحديقة الغربي. التفتَت إليَّ، وعلى وجهها سحابة حزن:

ـ أبويا مش راضي أسافر إسكندرية، أُنظِّم مؤتمر المبعوثين. رمى على أمي يمين الطلاق لو رُحت!

ـ بس ده سابِك تحضري دورة «المعهد الاشتراكي»، واجتماعات المنظمة!

ـ قال لي سفر مدينة تانية لأ، إنتِ بنت والبنات ما يصِيعوش.

حاولتُ أن أهوّن عليها الأمر، فأبديت تفهمًا لمبرراته المحافظة. لكنني كنت في داخلي أتوجس من رد فعله إذا طلبتها للزواج. على بعد خطواتٍ منا، أطفال يدحرجون كرة من المطاط. عشاق يخطون في الممرات، ويسترقون قبلات خاطفة. خادمات يصطحبن أطفالًا، تركهم أهلهم الموسرون ليمرحوا في براح الحديقة، بينما ذهبوا هم إلى الكازينو حول البحيرة الدائرية الواسعة. لمستُ بأصابعي خصلة شعر تدلت على جبينها، وأعدتُها إلى ما وراء أذنها اليسرى. لأول مرة أنتبه إلى صوان أذنها

الصغير الجميل. ظهر الخجل على مُحيَّاها، فأطرقت بنظراتها إلى الأرض. أخبرتُها بأنني أنوي التقدم إليها بعد رجوعي من الإسكندرية. قمنا لنسير في الحديقة. عندما اقتربنا من سورها الغربي المطل على شارع «نهرو»، فوجئنا بجندي ضخم ينهرنا من داخل الحديقة صارخًا:

ـ رايحين فين إنتَ وهيَّ؟! ممنوع يا أفندي!

شلَّتني المفاجأة، وانكمشت حبيبتي كقنفذ مُكوَّر. كان الجندي يشير لنا أن نذهب إلى داخل الحديقة، بينما كنت مضطرب الفِكر والمشاعر. استرقتُ نظرة سريعة إلى ما وراء السور الحديدي، فوجدت شارعًا خاليًا من المارة به بضعة جنود من الحرس الجمهوري. أبصرت عبر نهر الشارع الواسع للغاية ثلاث فيلَّات من طابقين. شاهدتُ جزيرة عريضة خضراء، بها أشجار ذات زهورٍ مُلونة، تتوسط الشارع على امتداده. جاء صوت الجندي نافد الصبر:

ـ امشِ من هنا يا بني آدم، ما تجيبلناش الكلام!

اتجهت مع حبيبتي ناحية البحيرة والكازينو. غزَت علامات الاستغراب وجهها، ومعها رهبة ثقيلة. سألتني:

ـ يمكن في الشارع منشآت عسكرية!

وافقتها، مومئًا برأسي.

ما زالت الشمس لاهِبة. جلسنا تحت مظلة من قماش ملون. أمامنا شباب وأطفال يديرون بأقدامهم بدالات

عُلب خشبية سابحة في البحيرة. اقترحت عليها أن نستأجر واحدة منها، فابتسمت هازة رأسها بالرفض. ألححت عليها، فرمقتني بنظرة عتاب قائلة:

- إنت فاكرنا عيال صغيرين، ولا إيه؟!

أدركت أنها تخجل، أو ربما تخشى النزول إلى الماء. كانت تجلس بجانبي، وأنظارنا تتجه إلى البحيرة ومبنى الكازينو المكون من طابقين. أحتضنُ كفها بكفيَّ، ويلتصق كتفي بكتفها. ملمس كتفها العارية الناعمة، البارزة من فستان بلا أكمام، أثار حواسي. جاءني صوتها في البدء متردداً، ثم تشجع قائلًا:

- حمزة.. ابتدوا تاني في البيت يلقحوا كلام عن ابن عمي اللي في الجيش، حاسة إنهم عاوزيني أتجوزه!

أنصَتُ باهتمام إلى ما قالته، وتساءلت في نفسي: هل تريد «كريمة» أن تستعجل ذهابي لطلب يدها من أهلها، أم أنها تقاليد الأهل التي تمنع تزويج البنات بغرباء؟! بدوري سألتها:

- ورأيك إيه؟

- رأيي! أنا وانت مش بنحب بعض، واتفقنا خلاص؟!

- أيوه اتفقنا، استني بس يخلص مؤتمر المبعوثين العرب. بعدها هاجي أخطبك.

ابتسمت عيناها، فطار صوابي. أخذت يدها، وقبلتها غير

آبه بنظرات الجالسين قريبا منا.

كورنيش «الإسكندرية» مزدحم للغاية في الصيف. شواطئه الرملية مغطاة بالشماسي الملونة، والشقق السكنية القريبة منها امتلأت عن آخرها بالمصطافين. جئت مع فريق عمل معتبر من المنظمة؛ لنساهم في تنظيم مؤتمر المبعوثين. الإعداد لاستقبال مثل هذا العدد من الوفود، يحتاج جهدًا دائبًا. تحوَّل مجمع الكليات النظرية بالشاطبي إلى خلية نحل نشيطة تزخر بأصناف عديدة من البشر. قيادات من منظمة الشباب، ومبعوثون مصريون جاءوا من أنحاء العالم، وزعامات الاتحاد الاشتراكي، وصحفيون مصريون، ومراسلو وكالات أجنبية، ورجال أمن سريون وعلنيون، وضباط من الحرس الجمهوري. تعجبت: هل جاء كل هؤلاء من أجل مؤتمر لطلاب مبعوثين للدراسة في الخارج؟! السيد «كمال رفعت» أمين الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكي، هو رئيس المؤتمر. أشعر بأن قيادات الاتحاد الاشتراكي التي تتابع المؤتمر منقسمة ما بين «رفعت» وبين «صبري»، ما بين أمين الدعوة، وبين الأمين العام!

وزعنا أعضاء وعضوات المنظمة على أماكن اللجان والمدرج الكبير. مهمتهم الأساسية مساعدة المبعوثين، واصطحابهم، وتسهيل إقامتهم. أنا ضمن لجنة من ثلاثة تتابع طبع المحاضرات والوثائق، وتجمع التوصيات من اللجان. الحيرة التي بدت على وجه «كريمة»، ما زالت تلح على خاطري بين الفينة والأخرى. وسط كل هذا الصخب

والحركة الدائبة، استطاعت محبوبتي أن تجد مكانًا في تفكيري. استطعت في صباح أحد الأيام التسلل من المؤتمر. ذهبتُ إلى سنترال «محطة الرمل»، وطلبت نمرة تلفون عملها. وقفتُ أنتظر لأكثر من نصف ساعة وسط زحام المصطافين. توقعتُ أن يكون مكتب «السِّنترال» خاليًا في الصباح. من المفترض أن يكون المصطافون نيامًا بعد السهر، أو مستلقين على بلاجات المدينة، أو يستحمون في البحر! حينما نادتني موظفة الخدمة لأتوجه إلى إحدى كبائن المكتب، تنفستُ الصُّعَداء. انتظرتُ ممسكًا سماعة التلفون دقيقتين قبل أن أسمع صوت الجرس على الطرف الآخر. جاءني صوتها بعد أن نادتها زميلة لها:

- ألو!

- أنا حمزة.

لاحظت اضطرابها من المفاجأة. كنت أسمع صوت تنفسها المضطرب رغم صمتِها. قلت بسرعة، ودون تفكير:

- بحبك، واحشاني قوي.

لم يطل انتظاري، ردَّت بعد زفرة أطلقتها من صدرها:

- وأنا كمان!

وضعت السماعة، وخرجت. ذهبت إلى الموظفة وأنا في حالة هيام؛ لأدفع ثمن المكالمة الصباحية. دفعت خمسة عشر قرشًا. لاحظت أن عيني الموظفة تنظران مليًا في

عينيَّ. هل كانت تَسترِق السمع لحديثنا؟ هل لا يكفينا وجود رقيب مختفٍ يتنصت على المكالمات الهاتفية؟! خرجتُ مُسرِعًا إلى محطة الترام الرئيسية أمام «السّنترال»، وصعدت إلى الطابق الثاني في عربة الترام الواقفة في المحطة. وجدت مكانًا بصعوبة بجوار النافذة، نظرت عبرها إلى الشارع المُشمِس. استقبل صدري نسمة باردة، أثارتها حركة الترام إلى الأمام. حللت زرارين في أعلى القميص الأبيض الصيفي الذي أرتديه، وتعلقت أنظاري بمبانٍ جميلة على جانبي الطريق.

صباح ٦ اغسطس، أمامنا يومٌ تاريخي مزدحم بالأحداث. ذهبت مبكرًا إلى المؤتمر. سيحضر «الرَّيِّس» في المساء. عندما دخل «عبد الناصر» المُدرج، اهتزت الجدران بالتصفيق والهتافات. أعضاء المنظمة موزعون داخل القاعة، وبجوار جدرانها يتزاحمون مع رجال الأمن والمخابرات.

بدأ «الرَّيِّس» حديثه؛ فصمت الحضور. **«اللي أنا بدي أقوله إحنا مش أمريكا ولا فرنسا، ولا هولندا ولا تشيكوسلوفاكيا ولا السويد، ولا حاجة من دول خالص.. إحنا مصر المجتمع الزراعي، إحنا عايشين على ٤٪ من البلد، ما عندناش ثروات اُكتشفت.. بنصرف فلوس على استكشاف البترول وما بنطلعش بترول. هل معنى كده إننا نتوقف؟ لأ. وبعدين نصرف ونلاقي.. الإنتاج الصناعي زاد. في ٥٢ كنا ٣١٣ مليون جنيه، وصلنا**

الآن ١١٧٣ مليون جنيه. يمكن إنتم سمعتم نقد كبير على الصناعة. طبعًا في مصنع سقفه وقع، وواحد عِطِل. مصنع الجوت مثلًا حصل فيه عُطل في الآلات، هل معنى ده إن إحنا ما نصنعش؟!». سمعتُ أصواتًا تقول: (لا) من القاعة. كنت مصغيًا بكل حواسي لقائد ثورتنا. طرق سمعي صوته المجلجل: «عملية إذابة الفوارق بين الطبقات بالتدريج حتيجي، عملية الديمقراطية السليمة أيضًا بالتدريج بنوصلها.. النهارده لا أستطيع أن أعمل أحزاب في البلد؛ لأن في ثورة حتى نحقق للطبقات الفرصة ليكونوا قادرين على أن يدافعوا عن المكاسب اللي خدوها».

مرَّ بخاطري موضوعي مع «كريمة». هل تستطيع الثورة فعلًا إنهاء التفاوت الطبقي في المجتمع؟ هل يستطيع ابن البرجوازية المتوسطة أن يتزوج بنت البوّاب؟!

يطرق أذنيَّ صوته النحاسي المرتفع: «طيب واحد يقولي: طيب ما نعمل حزبين اشتراكيين. مش معقول أعمل حزبين اشتراكيين لسبب بسيط جدًّا، الآن في حزب رجعي موجود في البلد، ولكنه حزب غير معلن عنه، ولا حد يعرفه». تساءلت في نفسي: وهل معقول أن يضم الاتحاد الاشتراكي أكثر من ٦ ملايين عضو من كل لون ومشرب؟ كيف تتوحد مصالح الرأسمالي مع العامل؟ وكيف تلتقي أهداف الفلاح مع أغنياء الريف وبقايا الإقطاع؟ تعجبت، كيف يعتقد الزعيم أن التنظيم الطليعي السِّرِّي يستطيع قيادة تلك الملايين، وهو يسبح في تنظيم

سياسي فضفاض مليء بالانتهازيين؟!

بدأت المناقشات، فوقف مبعوث من «النّمِسا» ليسأل عن الجهاز السياسي داخل الاتحاد الاشتراكي، فيجيبه «ناصر»: **«إحنا بدأنا في تكوين الجهاز السياسي من سنتين، ولكن بطريقة سرية»**. تقف مبعوثة أيضًا من «إنجلترا» اسمها «خديجة صدقي»، لتطلب منه أن تصِل سُلطات لجنة «المشير»، أو لجنة تصفية الإقطاع إلى القطاع العام. يحسِم «الرَّيِّس» الأمر: **«المشير عامر عنده تعليمات بعد ما يخلص الريف حينتقل للقطاع العام»**.

قبل نهاية الجلسة الممتدة، تحدث المفاجأة التي توقعناها في المنظمة. اثنان من مبعوثي فرنسا يأخذان الكلمة. كانت كل المعلومات التي لدينا أن هذا الوفد يمتلئ بالمشاغبين وأبواق الثورة المضادة. أثار المبعوث الأول موضوع «الطبقة الجديدة»، أما المبعوث الثاني فكان أكثر جرأة. وجه حديثه إلى المنصة: «الفكرة الأساسية هنا لما جه المشير عامر لفرنسا، وضعنا له ثلاثة أسئلة: الأول خاص بالاتحاد الاشتراكي والتنظيم السياسي، والسؤال الثاني كان خاصًا بالطبقات العاجلة والتي لها خطرها الداهم؛ طبقة التكنوقراط والإداريين. والسؤال الثالث خاص بالحريات السياسية. الهدف الأساسي من المؤتمر إذن، هو مؤتمر للمثقفين والمواطنين».

بعدها وقف المبعوث «سمير رضوان» من «إنجلترا»، ليؤيد البقاء في «اليمن»، ويسأل: ماذا بعد انسحابنا من

مؤتمرات القمة العربية؟ في نهاية الجلسة الطويلة صارح «عبد الناصر» المؤتمرين: «**الحقيقة العملية قد تحتاج بعض الأحيان زيادة في الأسعار، ودي خطوة أخدناها في ديسمبر اللي فات، وقد نحتاج إلى موازنة بين الأسعار والأجور. بالنسبة للمعونة الأمريكية إحنا لغاية سنة ٥٦ ما كانش بناخد معونة أمريكية وبعدين أخدنا، وابتدوا يدونا وزودوها، ثم زودوها لغاية ما وصلت مبلغ كبير يمكن يطلع ٨٠ مليون جنيه. لغاية ما جُم السنة اللي فاتت وقطعوها، وده يمكن سبب لنا مشكلات. وبعدين همَّ إدونا ٦ أشهر، وبعدين وقفوا تاني المعونة ابتداء من أوائل شهر يولية اللي فات**». رفع «الريس» الجلسة الماراثونية، ووافق على أن يواصل غدًا في نفس الموعد. طوال الليل كنت أفكر فيما قاله، لماذا يستجدي «الأمريكان» الذين يحاربونه من وراء ستار في «اليمن»؟ أليس ما يقوله يعني أننا في مأزق اقتصادي طاحن؟ أجلنا الخطة الخمسية الثانية لعدم وجود استثمارات، وارتفعت أسعار بعض السلع الأساسية. تتحدث الصحف، ووزارة «زكريا محيي الدين» عن «عنق الزجاجة» الذي نحن فيه.

في اليوم التالي كانت المناقشات بين الريس والمبعوثين تتعلق بمشاكل عملية وجامعية للبعثات. فوجئنا بإعلان إنهاء المؤتمر قبل موعده بأربعة أيام من قِبل رئيسه السيد «كمال رفعت». في صباح ٨ أغسطس، حزمت حقائبي لأسافر إلى القاهرة. جلستُ في بوفيه محطة مصر

بالإسكندرية، ووضعت حقيبتي بجانبي على الأرض. أمامي على الأقل ثُلث ساعة قبل تحرك القطار. أحضر «الجرسون» فنجانًا من القهوة التركية السادة، وكوبًا من الماء تسبح على سطحه قطعة ثلج. نظرت في صفحة الاجتماعيات بالأهرام، فوجدت إعلانًا أثار انتباهي: «شركة صوت القاهرة للإسطوانات تعلن عن أغنية شادية الجديدة: آه يا اسمراني اللون». وفي مصادفة عجيبة وجدت مكبر الصوت في البوفيه يبثها من إذاعة القاهرة! تجمدت في مقعدي منصِتًا، عندما بدأت شادية الغناء. مسَّ صوتُها شيئًا داخلي، وانسابت الكلمات لتصل إلى شرايين قلبي:

«آه يا اسمراني اللون حبيبي الاسمراني

يا عيوني ناسياني عيون حبيبي الاسمراني

آه تحت الرمش عتاب وحنين وعذاب وعيون ما تنام

آه دُقت معاك طعم الأيام والوقت تغيب يا سلام

جوني سألوني، جوبتهم عني دموع عيني

علشانك أمشيها بلاد، حبيبي يا اسمراني

من غير ولا ميه ولا زاد، يا حبيبي يا اسمراني».

وجه «كريمة» تمثَّل أمامي، وملأ مجال بصري. غِبتُ عما حولي، وغرقتُ في عواطفي الجياشة نحوها. أفقت على صفارة القطار تنبئ بوشوك تحركه. كان فنجان القهوة وكوب الماء كما هُما، لم أمسسهُما. وضعت شِلنًا على

الطاولة، وحملت حقيبتي مهرولًا إلى الرصيف. قفزت في أول عربة صادفتها من القطار. تحرك القطار، بينما كنت أنسَلُّ بين عرباته، حتى وصلت إلى مقعدي المُدَوَّن على التذكرة الصغيرة المطبوعة على الكرتون المقوى. وضعت حقيبتي على الرف أعلى رأسي. كان جاري نائمًا، وقد بدأ في شخير متقطع. أصوات الأطفال العائدين من المصيف مع عائلاتهم صاخبة. تلاشت الضجة من حولي، ومعها صوت عجلات القطار الحديدية. أغمضت عينيَّ، وانسابت أغنية «شادية» من جديد داخل روحي.

فاصل

جريدة الأهرام - ٣ يونية ٦٦.. المانشيت الرئيسي:

«وسائل جديدة لتهريب الأرض تكتشفها لجنة تصفية الإقطاع»، وتحت العنوان خبر مفاده أن اللجنة برئاسة المشير عامر قامت بوضع ٢٥ ألف فدان تحت الحراسة، أي ضعف المساحة المفروضة وهي ١٢ ألف فدان.

وفي نفس العدد، في آخر صفحة في باب «من غير عنوان»: «يستطيع وكلاء الوزارات - ابتداء من غد - أن يذهبوا إلى أعمالهم، وهم يرتدون القميص والبنطلون بدلًا من البدلة الكاملة. كان السيد زكريا محيي الدين رئيس الوزراء قد أبدى توجيهاته في هذا الموضوع ضمن خطة أسلوب العمل في الوزارات».

وفي نفس الصفحة الأخيرة، تحت عنوان «أخبار الصباح»: «أصدر د. عبد القادر حاتم قرارًا ينص على عدم دخول مجلة «حوار» التي تصدر في بيروت، بعد أن تأكدت السلطات المصرية من أن المخابرات المركزية الأمريكية تمول إصدارها».

جريدة الأهرام - عدد ٢ يونية ٦٦..

يبدأ الأهرام غدًا في ملحق الجمعة نشر عمل جديد لتوفيق الحكيم، وهو محاولة جريئة بين المسرحية والرواية باسم «بنك القلق».

في نفس الصفحة الأخيرة من نفس عدد «الأهرام»، خبر تحت صورة للممثلة الإيطالية «كلوديا كاردينالي»، وهي جالسة بمايوه بحر يكشف عن ظهرها العاري، وهي تدير رأسها نحو الكاميرا التي خلفها.

يقول الخبر تحت عنوان (ماذا أصاب الرجال؟): «أبدت كلوديا دهشتها من أحوال الرجال متسائلة: إنهم كانوا في الماضي يحدقون في صدر المرأة، ثم تحول اتجاه نظراتهم إلى سيقانها بعد أن كشفت الموضة عن مفاتن الركبة.. لكن المثير حقًّا: أن بعض الرجال أصبحوا يوجهون أنظارهم إلى وجه المرأة!».

صفحة الوفيات بجريدة الأهرام، ٨ يونية ٦٦..

«ذكرى الأربعين لشهيد الاشتراكية والفلاحين صلاح حسين. يحييها الاتحاد الاشتراكي والفلاحون وعائلة الشهيد بتلاوة آي الذكر الحكيم، يتلوها مؤتمر سياسي، وذلك بمنزل القائد مساء غد الخميس الموافق ٩- ٦- ١٩٦٦».

تحت التنويه مباشرة، رسالة لوالدة الشهيد على عمود:

«ولدي وابن الثورة والشعب صلاح

دماؤك الغالية التي سالت على أرض كمشيش نار تحرق صدري. ما زلت أنتظر القصاص الثوري العادل من قتلة الشعب أبناء الخيانة. عاش للشعب زعيمه ناصر، وقائد قواته الثورية عامر.

والدة الشهيد أمينة مقلد».

١٢

أنقُر بأطراف أصابعي على حروف الآلة الطابعة. أمامي خطاب كتبَه بيده أحد المديرين إلى رئيس مجلس إدارة الشركة. مع مرور الوقت على عملي هنا، أصبحت قادرة على فك طلاسِم الخطوط الصعبة للمديرين والرؤساء. بالنسبة لي، أصعب الحروف في القراءة هو الهاء. يُكتب في أول الكلمة ووسطها وآخرها بأشكال مختلفة، ناهيك عن مبادرة البعض لإعطائه شكلًا مميزًا خاصًّا بهم. البعض الآخر يُهمِل في تدوينه، فيصبح عليَّ تخمين وجوده! في البدء، كنتُ أستغرق وقتًا في الطبع. لاحظتُ أن تلك الخطابات، بها كلمات مشطوبة ومصححة. من الواضح أنها تمر عبر أكثر من قلم، ومُصحِّح.

لاحظت زميلاتي في المكتب زيادة المكالمات التلفونية التي أتلقاها. ترقد آلة التلفون على سطح مكتب الست «الرَّيِّسة» في غرفة مكتبها، ولا أشُك في أنها تسترق السمع لأحاديث «حمزة» معي. في الآونة الأخيرة، تبتسم بطرف فمها كلما نادتني لأرُد عليه. أصبحتُ مُقِلة في ردودي على أسئلته الهاتفية، وإذا أجبتُ أقتضبُ كلماتي بشدة. بعد آخر مكالمة بيننا، وعند رجوعي إلى مكتبي غمزت «هناء» زميلتي في المكتب بعينِها، وأردفتْ بصوت مُنغِم منخفض:

ـ يا وردة الحب الصافي، تسلم إيدين اللي سقاكي!

تجاهلتُ كلماتها، وفرَدتُ جريدة «الأهرام» التي تحضرها «الرَّيِّسة» أمام وجهي. المانشيت الرئيسي للجريدة مكتوب بأكبر مقاس للحروف: «**توقيع اتفاق تنفيذي لصفقة الأسلحة الأمريكية لإسرائيل**». تحت العنوان الذي اعتلى الصفحة الأولى، عنوان ثانوي أكثر إثارة: «**قائد الطيران الإسرائيلي: لا أستطيع كشف طراز المقاتلات الجديدة، ولكن يمكنني القول إنها ستجعل إسرائيل متفوقة في الجو!!**». انتبهت بشِدة إلى علامتي التعجب في آخر العنوان. هل أراد رئيس التحرير السخرية من الجنرال الإسرائيلي، أم أنه مندهش حقًّا من تصريحه؟ علَت صيحة اندهاش من «هناء»، وتوقفت أناملها عن الطَّرق على مفاتيح الآلة الطابعة أمامها. قالت بمرح:

ـ عُقبالك يا كريمة، وعُقبالي أنا كمان!

تعجبت من كلماتها التي انطلقت دون مناسبة. أشارت إلى الصفحة الأخيرة من الجريدة. نَحَّيتُ الصفحة الأولى، ونظرتُ إلى الصفحة الأخيرة. وجدت نِصفها العُلوي بالكامل يمتلئ بصور زفاف «منى عبد الناصر». ابتسمتُ متأملةً صُوَر الفرح، وأغلقتُ عينيَّ متخيلة حفل زفافي مع «حمزة». قلبتُ الجريدة، ورجعتُ إلى الصفحة الأولى، فوجدت خبرًا وعنوانًا يشغلان أربعة أعمدة، بينما تقبع صورة الزفاف أعلاه. اندهشتُ، كيف لم ألاحظه، وانشغلتُ بمتابعة الموضوع الرئيسي للجريدة؟ كان عنوان الخبر فقط من أربع كلمات: **زفاف منى عبد الناصر.**

قرأتُ الخبر بشغف: «سافر العروسان بعد الزفاف لقضاء أسبوع في فندق «سيدي عبد الرحمن»، ثم يعودان بعد ذلك إلى شقة استأجراها في عمارة القوات المسلحة بشاطئ «سان إستيفانو» في الإسكندرية، حتى يقضيا إجازة المصيف خلال هذا الشهر والشهر القادم».

لَفَتَ نظر «هناء» إعلان في الصفحة الأخيرة للجريدة: **«الليلة الافتتاح الكبير لفرقة الفنانين المتحدين.. مسرحية «أنا وهو وسموه».. على مسرح كوتة بالإسكندرية»**. قالت في دلال:

ـ فؤاد المهندس وشويكار مكسرين الدِّنيا.. بعد مسرحية «أنا وهو وهيَّ» بيقدموا مسرحية جديدة!

لم أشأ أن أخبرها بأن عائلتي لا تمتلك جهاز «تلفزيون» نشاهد عليه المسرحيات والأفلام والتمثيليات. هززت رأسي موافقةً، ورسمت على شفتيَّ ابتسامة.

تتواتر لقاءاتي مع «حمزة»، وأشعر بأن حياتي قد اخضرَّت بعد لقائي به. أحيانًا أتساءل: كيف كنت أعيش بلا حُب؟ كيف احتملت طعم الشقاء قبله؟ نعم، أنا طالبة مُجِدة، وموظفة مكافحة، وعضوة في «المُنظمة». لكنني لم أشعر بأنوثتي إلا معه! أنظر إلى ساعة يدي، وأستعجل حركة عقاربها. بعد انتهاء العمل، سأقابله اليوم في «مصر الجديدة».

موقف مترو «مصر الجديدة» ليس بعيدًا عن مقر

عملي. سِرتُ على قدميَّ من شارع «التحرير» إلى ميدان «التحرير»، ثم اتجهت ناحية «المتحف المصري». مشيتُ محاذية لسور المتحف، ثم اتجهتُ يسارًا معه. بالقرب من «كورنيش النيل» بعشرات الأمتار، كانت قطارات المترو الخضراء ذات السقف الأبيض بلون الكريمة، تقف متوازية، وبينها أرصفة مخصصة لانتظار الرُّكاب. على الأرصفة مقاعد حجرية، وبعض باعة كعكات السِّمِيط وغزل البنات. على رأس أحد الأرصفة، بسطةٌ خشبية لبيع الصُّحف والمجلات. اشتريتُ كيسًا من غزَل البنات بتعريفة، ومجلة «بناء الوطن» بأربعة قروش صاغ. تأكدتُ من قطار المترو الذي سيصيبه الدور للتحرك، وجلستُ به. اخترتُ مكانًا بجوار الشُّباك، وتمنيتُ ألا يتأخر في المحطة. ينقطع أحيانًا التيار الكهربائي؛ فتتحول قطارات وعربات المترو إلى طوابير طويلة من جُثثٍ هامدة. بدأت أقضِم قطعة غزَل البنات، فتذوب في فمي بمذاقها السُّكري. ارتفع منسوب السُّكر في دمِي، فانتعشت. فتحتُ المجلة، ودفنتُ رأسي بها لأقرأها. تحقيق على عدة صفحات عن حرب «اليمن»، وبطولات جنودنا هناك. صورة ابن عمي «زكي» تراءت في مخيلتي. يتحدث التحقيق عن قمم جبال وتبَّات مرتفعة تم إطلاق أسماء شهدائنا عليها. قطع استرسالي في القراءة صوت رجل خمسيني يرتدي جلابية:

ـ هو المترو ده يا مزمازيل رايح «النُّزهة»؟

ـ لا يابا، ده رايح ميدان «الحجاز».

أشرت إلى مترو ذي يافطة حمراء بجوارنا؛ ليركبه. ما زالت الأُمية منتشرة ما بين الشعب. لِذا كانت يافطات المترو في مقدمته ومؤخرته ملونة، ومضاءة ليلًا. يافطات قطارات خط «النُّزهة» ذات لون أحمر، و«الميرغني» ذات لون أصفر، و«عبد العزيز فهمي» الذي أستقله ذات لون أخضر! حمدتُ الله أنه لم يطُل انتظاري. صعد الكمساري في حُلته الزرقاء الداكنة، وبدأ في بيع التذاكر. دفعت قرشين صاغ في التذكرة، ومرةً أخرى، حاولت قراءة صفحات المجلة من جديد. لم أستطع المُواصَلة، كانت قصتي مع «حمزة» تشغل تفكيري. عبر النافذة، رأيتُ رجالًا ونساءً يتأبطون بعضهم بعضا. يبدون كأزواج متحابين، مستبشرين بالمستقبل. مبنى «الاتحاد الاشتراكي» القريب والمرتفع، ذو الثلاثة عشر طابقًا، يظهر بضخامته باعثًا على الطمأنينة. في الدور التاسع تقع «أمانة الشباب»، كم من مرة ذهبت إليها برفقة قيادة قسم «قصر النيل» بالمنظمة. دوَّى بوق الكمساري؛ فتحرك قطار المترو. شق المترو طريقه إلى ضاحية «مصر الجديدة» عبر وسط البلد المزدحم. تنفست الصعداء عندما وصل إلى ميدان «رمسيس». استغرق وقتًا طويلًا حتى يصل إليه. الآن فقط، سيسير في مسار خاص يفصِله سور حديدي عن شارع «رمسيس»، ثم في معزل خاص تحيطه جدران مرتفعة حتى قبيل ميدان «روكسي». على تلك الجدران شعارات مكتوبة بالبوية الحمراء، بإمضاء «منظمة الشباب بالقاهرة». ينفتح مشهد الميدان أمامي، بينما يسير المترو في

شارع واسع عريض حتى يصل إلى محطة «الميريلاند». تتوتر أعصابي خشية أن يمَلَّ «حمزة» الانتظار الطويل، ويذهب دون لقائي.

وجدته يقِفُ تحت شجرة أمام باب الحديقة، ينظُر إلى ساعة يده. قفز قلبي من صدري ليسبقني إليه. عندما رآني ابتسمَ. اقتربتُ منه، وقلتُ:

- متأسفة على التأخير، إنت عارف المواصلات!

ضحِك، وأشاح بكفه:

- كويس إنِّك وصلتِ النهارده، أنا عارف المواصلات صعبة.

كان وجهه محمراً بشدة من حرارة شمس الصيف. طرأ سؤال على بالي، و«حمزة» يقف على شباك التذاكر: ما الذي يجعله متمسكًا بي؟! هو من طبقة صاعدة ميسورة نوعًا ما، وأنا من عائلة فقيرة! قطع صوته تساؤلاتي الصامتة. أمسكَ بمِرفقي، ودخلنا الحديقة. بهرني تنسيق الحديقة من الداخل، ووفرة الأشجار والنباتات بها. عائلات تتنزه، وأطفالُ يجرون هنا وهناك. اقترح «حمزة» أن نجلس في الكازينو، لكنني فضلتُ أن أستطلع الحديقة أولًا. جاءني خاطر: متى سيكون لي ولحمزة أطفال يلعبون في هذه الحديقة؟! عيني لم تخطئ وجود خادمات ومربِّيات يراقبن أطفالًا هنا أو هناك. التناقض واضح ما بين عائلات تجلس في الكازينو حول البحيرة الصناعية،

وبين خادمات فقيرات يجلسن في الحديقة. نحن في عام ١٩٦٦، وما زالت الفوارق الطبقية واضحة، وكبيرة. أبديتُ ملاحظتي، فأومأ «حمزة» برأسه موافقًا. لكنه أردف:

- ظاهرة الخادمات في البيوت لم تنتهِ، لكنها تناقصت بشكل كبير. المصانع اللي عملتها الثورة بتستوعب أعداد كبيرة منهم النهارده. حتى الخِدمة في البيوت اتغير شكلها. أغلب بيوت المقتدرين بيشتغل فيها شغالات وبيروّحوا بيوتهم آخر النهار.

أراحني حديث «حمزة» الذي بدا مُقنِعًا ومنطِقيًّا. تتم التحولات بالتدريج في مجتمعنا، وليس بطريقة مفاجئة. لكن سؤالًا ظل يُحيِّرني: أليست «الثورة» تُعجِّل بالتحولات بطريقة أسرع وبشكل جذري؟! أبقيت السؤال داخِلي، ولم أشأ أن أطرحه وقتها على حبيبي. كان الأهم بالنسبة إليَّ، مصير الحُب الذي يربط بيننا. جلسنا على مقعد خشبي بالحديقة، وأفضيتُ بهواجسي إليه. وعدَني بأن يتقدم لخطبتي بعد مؤتمر المبعوثين بالإسكندرية. نبرة الصِّدق في حديثه أعادت الاطمئنان إليَّ. لم أخفِ عنه رغبة ابن عمي في الزواج بي، وتقاليد النوبيين في إعطاء بناتهم لنوبيين مثلِهم. جُلْنا في الحديقة، واقتربنا من سورِها الغربي. ظهر جندي من الحرس الجمهوري من وراء السور، وأمرنا بالابتعاد فورًا! كان الشارع العريض - غرب الحديقة - مُغلقًا. ظل هذا اللغز يُحيِّرني، حتى قابلت

«هناء» فيما بعد في العمل. هي تسكن في حي «مصر الجديدة»، ومن المؤكد أنها تعرف لماذا أغلقوا هذا الشارع. سألتُها، فضحكتْ بصوت عالٍ، حتى أثارت فضول من يجلسن معنا بحجرة المكتب. اقتربت مني، وهمستْ:

- يا بِت يا عبيطة، ده شارع «نهرو» اللي فيه الفيلَّات. دا كل «مصر الجديدة» تِعرف.

- تعرف إيه؟!

- الفيلَّات دي بتاعت «هدى» و«منى عبد الناصر»، و«علي صبري» وغيرهم. اللي بنتهم شركة «المقاولين العرب»، الفيلا بتلات آلاف جنيه بس! عشان كده قفلوا الشارع.

لم أُرد عليها، صَمَتُ رافعة حاجبيَّ مستغربة. فيلَّات من طابقين، وشارعٌ مغلق بالضبة والمفتاح! متى تكون لي ولحمزة شقة صغيرة من غرفة واحدة وصالة؟!

عندما جلست مع «حمزة» في كازينو «الميريلاند»، أحسست بأن هناك أغنياء من العهد البائد، وأغنياء جددًا أفرزتهم الثورة. قرأت قائمة الأسعار، ولم أختر سوى كوب من الليمونادة. حاول «حمزة» أن يقنعني بتناول شيء يسُدُّ جوعي معه، لكنني أفهمته بأنني قد تناولت سندوتشات قبل مجيئي. كنت جائعة، لكنني آثرت ألا أثقِل عليه. كنت أصون كرامتِي من ناحية أُخرى. ربما أردتُ تبليغه بأن بنت البواب الفقيرة لا تغريها مظاهر

«الميريلاند»، ولا «مصر الجديدة». ربما، لا يعرف أن داخل هذا الحي الأرستقراطي توجد «عزبة البرابرة»؛ حيث تعيش إحدى خالاتي مع أبنائها وأحفادها. في كل حي أرستقراطي في المدينة، هناك جيبٌ يعيش فيه من يعمل لدى هؤلاء الأعيان. فقط في وسط القاهرة الأوروبي، نعيش نحن الفقراء على سطح عماراته فوق الأغنياء ومتوسطي الحال الذين يسكنون في طوابق العمارات.

طوال انعقاد «مؤتمر المبعوثين العرب» بالإسكندرية، كنت أُتابع النقاشات وأحداثه عبر صفحات جريدة «الأهرام». «حمزة» معهم هناك، وأنا في «القاهرة» أنتظِرُه. سمِعتُ في قسم «قصر النيل» بمنظمة الشباب، أن «عبد الناصر» قال هناك: «**لن أستريح حتى تنتهي مهنة ماسحي الأحذية في بلدنا من الوجود**». لم يجئ ذكر لذلك التصريح في الصُحُف اليومية، هل لم تُعجِب تلك الجملة الصحفيين؟! عندما جاء صوت «حمزة» عبر تلفون الشركة التي أعمل بها، كِدتُ أقفز من السرور والفرح. لم أبالِ بالسِّت «الرَّيِّسة»، طار تحفظي بعيدًا، فقُلتُ:

- وحشتِني قوي!

رمقتني مديرتي باستغراب رافعةً حاجبيها. اتفق معي على اللقاء بعد انتهاء العمل في كافتيريا «أسترا» بميدان التحرير. بعد انتهاء المكالمة، صاحت رئيستي في وجهي:

ـ تلفون الشُّغل مش للمكالمات الغرامية!

أجبتها بسُرعة بعد أن أدركت خطئي:

ـ لا، دي مش مكالمة غرامية، ده أخويا رجع من السفر!

هزت رأسها غير مقتنعة.

كانت قدماي تَسبِقانني، وأنا أتجه إلى ميدان «التحرير». المسافة قصيرة ما بين مقر عملي وهناك، لكنني شعرتُ وكأنها أميالٌ طويلة. يقفز قلبي من صدري وتعلو دقاته، حتى أظُن أن كل من حولي في الشارع يسمعُها. لم أشعر بقيظ أغسطس اللاهب. عندما دخلتُ الكافتيريا، وجدته ينتظر وراء طاولة في ركن بعيد. اتجهت إليه، صافحته مبتهجة. أخذ كفي بين يديه واستبقاها لحظات ظننتها الدهرَ كلَّه. اخترقتْ نظراته الوالهة عينيَّ. بادرني قائلًا:

ـ رِجعت إمبارح بالنهار. ما ستريحتش، فِضِلت ورا أبويا وأمي لغاية ما وافقوا في نص الليل على خطوبتنا!

فاجأني ما قاله. أبديتُ ابتهاجي بموافقة أهله. سألته:

ـ إزاي قدرت تقنعهم بجوازك من بنت بواب؟

ـ دي شُغلتي بقى. أنا كنت بكلمهم من فترة، وكانوا بيقاوموا. المرة دي قلتلهم: هاسيبلكم البيت، ومش هتعرفوا طريق ليَّ. ماما قاومت كتير، لكن منظمة الشباب نفِعت! حكيتلهم عن المؤتمر اللي كنت فيه، وعن حلمنا

بمجتمع ما فيهوش أسياد وعبيد.

- واقتنعوا؟!

- على الأقل قُدامي آه. اللي سهل الموضوع إنهم عرفوا إنك بتدرسي في معهد عالي، وبتشتغلي في نفس الوقت. شُفتْ نظرة إعجاب في عينين أبويا حاول يخبيها!

أحسست براحة عجيبة، سُرعان ما أخلَت مكانها لقلق عظيم. فكرتُ في مواجهة قادمة بيني وبين والدي. لاحظ «حمزة» تقطيبة وجهي ونظراتي الحائرة:

- مالِك؟ شكلك مش مبسوطة!

- بالعكس مبسوطة قوي، بس بفكر إزاي هواجه عِيلتي أنا كمان. إنت ما تعرفش النوبيين، ما يجوزوش بناتهم من أغراب، حتى لو كانوا مصريين!

- الكلام ده قديم، الثورة غيَّرت كل ده.

- تعتقد؟

- أيوه!

في نفس المساء، استدرجت والدتي إلى ركن بعيد على سطح العمارة الذي نعيش فيه. استندنا بأذرعنا إلى سور السطوح، كان أبي يجلس أسفل العمارة قبالة بابِها. صارحتها برغبة «حمزة» في أن يتقدم لي. تَحول وجهُها الأسمر إلى لون أحمر قانٍ، ولطمتْ وجهها براحتيها. خَفَضَت من صوتها، وهي تقول:

ـ يا دي المصيبة! آدي اللي أخدناه من التعليم ومنظمة الشباب! أبوكِ لو عِرِف هيقتِلِك.

كان جيراننا من سكان السطوح يجلسون أمام حجراتهم التماسًا لنسمة هواء، خشيتُ أن يسمعوا حديثنا. وجهتُ حديثي إليها:

ـ «حمزة» يا «إندي»(2) أقنع أباه وأمه المهندسين بجوازه بي، هتيجي إنتِ اللي على قدِّك وترفضي!

ـ وما أرفضش ليه؟ ناقصة رِجل ولا إيد؟ إحنا نوبيين ما نديش بناتنا لغيرنا. لو أبوكِ عِرِف هيقتِلك.

تركتني، وولَّت ظهرها لي ذاهبةً إلى الغرفتين اللتين تشغلهما عائلتنا. شعرتُ بأنها ألقتني من أعلى العِمارة إلى الشارع. نظرتُ إلى أسفل، فأصابني دوارٌ عنيف. كنت أتوقع أن ترفض زواجي بـ«حمزة» في البداية، ولكن ليس بتلك الطريقة العنيفة! لم تُحاوِل حتى أن تسألني عن قصتي مع حمزة. أغلقتِ الباب على إصبع يدي دون أن أتمكن من شرح مشاعري نحوه. سحبت شهيقًا عميقًا من فمي، أبقيته لثوانٍ معدودات في صدري، ثم زفرته. نظرتُ إلى السماء السوداء، ولاحظت أن البدرَ مكتمل. أغمضتُ عينيَّ، وتمنيتُ على الله أن أُحقِّق هدفي. خلال كل ذلك، لم ألحظ أن صدري يرتفع ويهبط بسرعة. عَصف بي الاضطراب. قررت أن أهدأ أولًا، ثم أكرِّر المحاولة مرة ثانية.

عندما دخلتُ الحجرة، رمقتني أمي بنظرات غاضبة. كان أخي «مُرسِي» قد عاد من عمله في ورشة إصلاح السيارات، وجَلَس أمام الطبلية يتناول عشاءه. يسبِقني «مُرسِي» في الظهور للحياة بعام واحد. يعمل أخواي الآخران في المحال التجارية بوسط القاهرة. أحدهما تزوج بقريبة لنا، وما زال الآخر يعيش معنا. أما شقيقتايَ فواحدة منهما تزوجت كمساريًا بهيئة النقل العام، وثانية أصابها الحظ العاثر في الزواج بعد أن أخرجوها من المدرسة الإعدادية. أنجبت طفلين، وهجرها زوجها. فرَّ ولم يظهر. قال البعض إن «بحراوية» قد أغوَته، فذهب يفلح في قريتها بالدلتا. وقال آخرون إنه ذهب عبر الحدود إلى «ليبيا». سأل والدي عنه، وبحث بلا طائل! ظلت شقيقتي معنا، ومعها طفلاها، يعيشون معي، وأبي وأمي في غرفة واحدة. بينما يعيش أخواي الآخران في غرفتنا الثانية.

«مُرسي» هو الأقرب إلى قلبي وعقلي. لم يحتج إلا للحظات ليلاحظ الكدَر الذي اعترى وجهي، ووجه أمِّي. انتقلت نظراته فيما بيننا، وتجاهل وجود شقيقتي وطفليها. قال بابتسامة مجهدة:

ـ خير يا جماعة، إنتم متخانقين ولا إيه؟

صرخت والدتي بعصبية، وأشارت إليَّ:

ـ شوف بنت الكلب أختك عملت إيه.

انتبهت شقيقتي إلى صيحة أمي، وتطلعت إلينا بنظرات

فضول واستغراب. قطع «مُرسي» عشاءه، وأخذني إلى نفس الركن من السطح الذي تحدثت فيه مع والدتي. حكيتُ له ما حدث. كانت أضواء حمراء وزرقاء تنعكس على وجهه. أضواء لمبات «نيون» جاءت من بعيد للافتات عملاقة للإعلانات فوق أسطح العمارات المجاورة، ومن يافطات المحال التجارية بشارع «قصر النيل». لم أستطِع أن أتبين موقفه من ملامح وجهه. نظر إليَّ، وهمس:

- حصل بينكم حاجة؟

- حاجة إيه؟!

- إنتِ لسه بنت؟

- طبعا!

أحسست بجُرح كرامتي يُدمِيني، وينتزع آخر رمق مني. انفرجت أساريره، وبانت ابتسامته البيضاء في الظلام. جاء صوتُه:

- الحمد لله، إن إحنا لسه على البر. اسمعي يا كريمة! أنا متعاطف معاكِ، بس خايف عليكِ. خايف عليكِ من تقاليد وعادات جار عليها الزمن، وخايف عليكِ من طموحِك وعلامِك. إنتِ أحسن واحدة فينا، اتعلمتِ وبتتعلمي.

احتضنني بذراعيه القويتين، وطبع قبلة على جبيني. طفَرَت الدموع من عينيَّ. كان الشارع تحتنا يموج

بالسيارات والمارة. نظرتُ إلى أسفل، فوجدتُ والدي بعمامته البيضاء الكبيرة يجلس على دكته الخشبية أمام باب العمارة، يتكئ على ساق رفعها على الدكة، بينما أنزل الساق الأخرى لتُلامس الأرض. أشاح شقيقي برأسه ناحيته قائلًا:

- «إدريس»، قُدامِك معركة كبيرة قوي معاه. إنتِ عارفة أبوكِ، دماغه كبيرة وناشفة قد إيه!

فاصل

مقتطفات من المقالات الثلاث التي نُشِرت في مجلة «الحُرِّية» البيروتية في الأعداد ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠. تحت عنوان «الثورة بين المسير والمصير»، وبتوقيع «صلاح عيسى»:

أمامنا في البدء تقييم للموقف يعتقد أصحابه بأنه يجيب عن الأسئلة المطروحة، ونحن مطالبون بأن نتغلب على غثاثة القول؛ لأن خطورته تدعو إلى احتمالها، بل تحتم ذلك. إن هذا التصور يؤكد أن أقسامًا كبيرة من المُنظرِين والمُنتظرِين ينشرون الإصابة «بالغرور الثوري» كمرض معدٍ وخبيث، وهم ينشرون الإصابة على مستويين:

***في المستوى الأول:** يضعون الإنجازات التي حققتها ثورة يولية، في موضع المقارنة مع الأوضاع القائمة قبل الثورة في مصر، وفي الأمة العربية. وكان حصاد المقارنة تلالًا من الأرقام يكفي تأملها للشعور بالرِّضا الذي ينقلب مع التحليل إلى ثقة متزايدة بالذات، تتعدى حدود الثقة الدافعة إلى العمل، إلى الثقة التي لا تُحسِن تقدير ظروفها.......، وتلك بعض أعراض الغرور الثوري الذي يتغذى على الإحباط المتكرر الذي التهم الثورة العربية تجربة بعد تجربة.....*

***وفي المستوى الثاني:** هناك من المنظرين من يحرصون على إبراز ما يسمونه التناقض بين «ظاهرة يولية» وبين ما*

كشفت عنه التجربة الإنسانية من منهج اشتراكي علمي يفسر ظواهر المجتمع، ويستوعب قوانين تطوره، وكل ما يعني هؤلاء هو أن «ظاهرة يولية» دليل على إفلاس المنهج العلمي، وصولًا إلى ضرورة شق طريق ثوري شديد الخصوصية...... يصوغ في النهاية «الطابع القومي الخاص لثورة يولية» الذي يصل «الغرور» أحيانًا إلى حد وصفه بأنه «مسار جديد تمامًا لقضية الثورة» ليس في مصر، ولكن في المعمورة»».

«المقارنة الرقمية بين الثورة وما كان قبلها تنطلق من تصور أن ظاهرة يولية استمرار للمجتمع القديم، وامتداد معاصِر لتركيبه الاجتماعي، وهي فكرة تقلل من قيمتها وتهبط بمستواها، خاصة حين يصل انزلاق المنظرين إلى الحد الذي قارنوا معه «ظاهرة يولية» «بالظاهرة السعودية» و«بالظاهرة الهاشمية» أيضًا».

«ما أخطر التصور اليميني القائل إن ظاهرة يولية الثورية هي التعبير عن تناقض الاشتراكية العلمية مع الواقع المصري، وعدم صلاحيتها للتطبيق فيه، وهو تناقض ينفخ اليمين فيه، وهدفه أن يعرقل الثورة....»».

«صحيح أن استيعاب الاشتراكيين العلميين في مصر لظاهرة يولية، كان مفاجئا، وتم عبر عمليات معقدة تمامًا، شملت خطأً في التحليل؛ بسبب جِدة الظاهرة، وطابعها الخاص، وعدم وضوح رؤاها، إلا أن الانتقال من الخطأ إلى الصواب لا يعني أن يصبح الاشتراكيون العلميون هم

المدافعين عن الحلول الوسطى والعمل التجريبي».

«إن الكتلة الكبرى من العناصر التي تصدت لقيادة الظاهرة الجديدة تنتمي إلى الفئات الصغيرة من الطبقة الوسطى...... وهي في الأغلب الأعم قادرة على نشر السخط بين أقسام كبيرة من الجماهير، ولكنها عاجزة عن تنظيم هذه الجماهير؛ لعدم وضوح فكرها أحيانًا أو لتقطُّع نفسها الثوري».

«والنتيجة الحتمية لسيادة فكرة المِلكية المقدسة، هي المزيد من التميع الطبقي، فلا حدود طبقية مع اعتبار الاستغلال مسألة نسبية وذاتية، يراها كل إنسان كما يتراءى له. إن خطورة الانزلاق الطبقي هنا، تكمن في أن ثورة بلا هوية طبقية واضحة، يمكن أن تفقد حلفاءها وتتصالح مع أعدائها طالما المواقع غير محددة وغير مفهومة.... ورفض قانون فائض القيمة هو في الواقع رفض كامل للتراث الاشتراكي العلمي، والبقاء بجدارة في أسر الرؤى الطوباوية. لأنه يعني التميع الطبقي في أعلى مراحله».

«وهكذا برز في المؤتمر «مؤتمر القوى الشعبية» اتجاهان هجوميان:

اتجاه يطالب بحكومة دينية معبرا بذلك - موضوعيًّا - عن الفكر السياسي للإخوان المسلمين..... ولكن واحدا فقط وجد القدرة لينبه المؤتمر إلى أن عصر القوميات هو عصر

التزمين، وهو العصر الذي تتوقف فيه السُّلطة عن أن تكون دينية لكي تصبح زمنية.

وجاء الاتجاه الثاني ليؤكد، وقد أزعج هذا الاتجاه الغالب كثيرين، بفكرة خصوصية الاشتراكية الميثاقية، بما يجعلها تيارًا وسطيًا يدافع في جوهره عن التراث الفكري البرجوازي، وهكذا نُحِت مصطلح «الاشتراكية العربية المؤمنة» بالإسلام فقط».

«إن التناقض بين «المسير الثوري» و«المصير الثوري» يأخذ أحيانًا طابعًا عدائيًا، والوحدة الجدلية بين المسير والمصير تفرض حركة متنافسة تخدم خلالها الأهداف القريبة واليومية خلالها».

«وقضية ظاهرة يولية الأساسية منذ البداية هي طبيعة الانتماء الطبقي للظاهرة، والانتقال من سيادة سيطرة البرجوازية الكبيرة - خلال التصادم المتصاعد معها - إلى محتوى طبقي يتميز بطبيعة انزلاقية، وهو ما يسود المرحلة الحالية فكرًا وتنظيمًا».

«إن القول بأن الميثاق نظرية اشتراكية علمية متكاملة، وهو قول تنطق به الكثير من الأقلام، يحتاج إلى تأمل؛ فافتراض أن ظاهرة يولية - مع كل الظروف - التي أحاطت بها - استطاعت أن تكشف قوانين جديدة تمامًا للتغير الاجتماعي قول يصعُب قبوله».

«إن ما يبقى هو مراكز محدودة جدًا داخل القيادة

السياسية العُليا. والمراهنة على هذه المراكز وحدها لتكون قوة جذب اشتراكية هو مثالية مغرقة...... فالمراكز العلوية ـ مهما كانت درجة تأثيرها كبيرة ـ لا تستطيع أن تُكيِّف الواقع بحسب مشيئتها وحدها».

«في هذا الموقف «الحاد» تقف ظاهرة يولية على مشارف عامها الخامس عشر.....

فعلى المستوى السياسي مثلًا تعثرت الخطوات الأولى لبناء التنظيم السياسي نتيجة لعدم وضوح المرحلة الجديدة، وافتقادها للمضمون الطبقي؛ وبذلك تسللت الطبقات المعادية للاشتراكية إليه.... وفي المستوى الاقتصادي أدى تبني الميثاق للمنهج البرجوازي الصِّرف في علاج المسألة الزراعية إلى قلة كفاءة القطاع الزراعي إنتاجيًا، وخلق صعوبات كان في الإمكان تجاوزها..... وعلى المستوى الفكري تزايد العداء للاشتراكية العلمية، ولم يعد مقصورًا على المراكز اليمينية الواضحة، بل تسلل بالفعل إلى بعض مراكز التنظيم السياسي ومنظماته... وعلى المستوى الاجتماعي فإن سقوط الإقطاع والبرجوازية الكبيرة، لم يفتح الباب أمام العمال والفلاحين ـ باعتبارهم أغلبية المجتمع لتولي السلطة الحقيقية داخله».

«وهذه الظواهر هي النتيجة الحتمية للاعتماد على البنية الفوقية، وللتصور بأن في استطاعتها وحدها حسم كل القضايا».

«والصيغة التي طرحها الميثاق لنقل السُّلطة إلى الطبقات الشعبية تتضمن رافدين أساسين من أنصع الروافد في فكر الميثاق:

قيام المجالس الشعبية المنتخبة التي يجب أن تتأكد سلطتها فوق سلطة أجهزة الدولة التنفيذية..... وقد كان المشروع الذي طرح لإنشاء هذه المجالس منذ حوالي عام ونصف مشروعًا شكليًّا، ولعل هذا هو السبب في عدم تنفيذه».

١٣

رائحة التقلية تفوح من غرفة مجاورة على السطح، وأنا مستلقية على جانبي فوق حَشيَّة رفيعة من القطن. أفكر في مصير قصة حبي مع «حمزة»، بينما طفل أختي يجري جيئة وذهابًا في الحجرة. يُصدِر أصواتًا عسى أن أنتبه له وأُلاعبه. أنا وهو فقط في الغرفة؛ مما يجعل الفرصة مناسبة للتفكير في كيفية مفاتحة والدي في زواجي بحمزة. أبي ذو شخصية عنيدة، لكنه أيضًا حنون وطيب. لكن تقاليد قريتنا النوبية الأصلية لا تسمح بزواج بناتها بأغراب. هل يستطيع عم «إدريس» أن يتمرد على تلك التقاليد البالية؟! الشكُّ يملؤني. إذا كانت أمي القريبة مني قد صدمتني برفضها وغضبها الشديدين، فماذا سيكون رد فعله؟! أعرف جيدًا غضَب والدي الذي يجعله يتحول إلى وحش كاسِر ذي عينين يطفر الدم منهما. تتناثر الكلمات بسرعة الصاروخ وهي تخرج من فمه؛ لتصيب كل من يقف أمامه! أنا خائفة. من يُصدِّق أن الخوف يغزوني، وأنا التي يشيدُ الجميع بشجاعتي وإصراري على إكمال تعليمي العالي، والعمل في نفس الوقت، وأيضًا ممارسة النشاط السياسي؟!

أنتبه إلى كفين صغيرتيْن، تتشبثان بشعري من الخلف. أتجاهل الصبي، لكنه يواصل الشَّد؛ فيؤلِمني. ألتفِت إليه غاضبة، وأشير إليه أن يخرج من الحجرة بحجة أنني نائمة. يبرطم، ويخرج حانِقًا. خرجت أمي مع شقيقتي لشراء بعض الخضراوات والخبز. لعلهما تقفان في طابور الجمعية

في شارع «معروف»، أو أنهما يُحضِران نصيبنا المقرر في بطاقة التموين. تقتلني الحيرة. كيف أُواجِه والدي؟ هل يستطيع أخي «مُرسي» أن يقوم بذلك نيابة عني؟! وهل قامت أمي بإبلاغ أبي، أم أنها أخفت الأمر عنه؟

كُتُب «معهد الخدمة الاجتماعية» مرصوصة حذاء الجدار بجانبي. هل أمُد يدي، وآخذ واحدًا منها لأقرأ فيه، عسى أن يُخفف حيرتي ويُنسيني إياها؟ منذ أسبوعين، لم أمسس كتابًا منها. أصبحت تائهة ومضطربة حتى في عملي بالشركة. لاحظت زميلتي «هناء» ذلك، فسألتني:

ـ مالِك يا كريمة؟

ـ ولا حاجة، ساعات بيجيني صُدَاع متعودة عليه.

أخرَجَتْ قرص «ريفو» من شريط أخضر في حقيبة يدها، وأعطتني إياه. بلّعته بكوب ماء بارد، وشكرتها، وواصلت النقر على الآلة الكاتبة. حتى اجتماعات قسم «قصر النيل» بمنظمة الشباب، أصبحت أحضرها ولا أشارك في المناقشات إلا قليلًا. لاحظ أمين شباب القسم التقاعس الذي اعتراني. تكاد نظراته في أثناء الاجتماعات تسألني: «ماذا حدث لكِ؟ كُنتِ أنشط كوادِرنا، والآن أنت غائبة عنا رغم حضورِك!».

عندما قابلت «حمزة» آخر مرة، وصارحته بعدم قُدْرَتي على مفاتحة والدي في موضوع ارتباطنا، أدركتُ أنني ضعيفة وهشة. عندما أخبرني بنيته المجيء للتقدم لخِطبتي،

كاد الفرح يقتلع قلبي من صدري. لكن السرور لم يستمر للحظات. اعتراني الخوف من المُواجهة، وتمثَّل أمام عينيَّ غول التقاليد البالية. ليلتها، حلمتُ بأبي «إدريس» يُحيطُ عنقي بكلتا يديه، ويضغط بهما تدريجيًا حتى أصبحتُ غير قادرة على التنفس. صرختُ بكل قوتي:

- سِيبني..سِيبني!

أيقظت صرختي من في الحُجرة. فتحت عينيَّ، فوجدت المصباح مضاءً، وعشر عيون مفتوحة تُحملِق فيَّ. كانت أختي فوق رأسي، وطفلاها راقدان مذعوران يحملقان في السقف، بينما جلست أمي تتمتم:

- استُر يا رب!

حملق والدي في وجهي، وناولني كوبًا من الماء. قال بهدوء:

- خير، اللهم اجعله خيرًا. واضح إنِك تقلتِ في العشا قبل النوم.

نظرت أمي إليَّ نظرة ذات مغزى، وقامت شقيقتي بإطفاء الضوء. غرقت في الظلام، وظلت عيناي مفتوحتيْن حتى الفجر. كان شخير أبي الرتيب بمثابة موسيقى تصويرية لمشاهد تمر أمام عينيَّ المفتوحتين لقصتي مع «حمزة».

في الصباح، ذهبت إلى عملي كالمعتاد. قضيت الوقت

كلّه، وذِهني منشغل بلقاء «حمزة» المرتقب مع والدي مساء هذا اليوم. عندما رجعت إلى البيت، كنت مُضطرِبة للغاية. حاولت أن أنشغل بأي شيء؛ لأُخفي اضطرابي. فتحت كتابًا، وصرتُ أنظُر فيه محاولةً القراءة، ولكن هيهات. كانت الحروف أمامي طلاسم غريبة. عندما اقترب غروب الشمس، خرجت إلى السطوح. استندت إلى سوره بمِرفقي، ونظرت إلى أسفل. كان أبي بعمامته الكبيرة يجلس على دِكته، بينما بدأت واجهات محال الشارع تضيء أنوارها. انتابني شعور متناقض بشكل غريب. تمنيت ألا يأتي «حمزة» وأن نتأجل المواجهة، بينما كان كل كياني ينتظِرُ مجيئه، وحدوث المُعجزة بموافقة أبي! مرَّت دقائق عليَّ وكأنها دهر طويل. انتبهتُ إلى اقتراب شاب من والدي. كانت أول مرة أرى فيها «حمزة» من ارتفاع ثمانية طوابق. بدا لي كفارس شُجاع، يتحدى بناء ضخمًا من تقاليد بالية وفوارق طبقية.

لم أحتمل مشاهدة مواجهة يتقرر فيها مصيري مع «حمزة». تراجعت عن السور، واتجهت إلى حجرة إحدى جاراتنا في الجانب الآخر من السطح. رحبت بي جارتنا رغم استغرابِها حضوري. تذرعتُ بسؤالي عن عدم رؤيتها منذ فترة طويلة. بينما كُنا نتبادل الحديث، خُيِّل إليَّ أنني سمعت صوت أبي ينادي عليَّ. تجاهلت النداء. كُنت أتحدث إلى جارتي، وذهني مزدحم باحتمالات عديدة ما بين أمل ويأس. بعد دقائق استأذنت من جارتي،

واقتربت في تردد من غرفتي أسرتي. كان باب حجرتنا موصدًا، وصوت أبي مرتفعًا يؤنّب والِدتي. أحسست بربتة خفيفة على ظهري. التفتُّ، فوجدت شقيقي «مُرسي» مُغتمًّا. همس «مُرسي»:

- ما تخُشِيش الأوضة دلوقتِ، تعالي في أوضتي.

أغلق شقيقي باب الغرفة الثانية علينا، وحكى لي ما حدَثَ ما بين أبي و«حمزة». اعتصرتني كف اليأس والخيبة. أدركت أن «حمزة» أوفى بوعده لي للنهاية، وأنه سيحاول مرة أخرى. ابتسم «مرسي» رغم التقطيبة ما بين حاجبيه، وقال بصوت خفيض:

- بس تعرفي يا «كريمة»!

- إيه؟!

- إنتِ فعلًا ذُوقِك حلو.

ابتسمتُ رغمًا عني، وقلت بغضب:

- هَمّ يضحَّك، وهَمّ يبكِّي، إحنا في إيه ولا في إيه.

أحسسنا بصمت وسَكينة في الغرفة الثانية. نصحني شقيقي بالذهاب إليها، ظنًّا منه بهدوء العاصِفة. ذهبتُ إلى الغرفة التي أعيش فيها، ونقرتُ الباب بأصابعي. ترددتُ، ثم دفعت الباب بِرفق. عندما رآني والدي من فُرجة الباب، انتفض كثور هائج. أمسك بي بكلتا يديه، وهزني بعُنف لم أرَ مثله من قبل. ارتفع صوته صارخًا:

- آه يا بنت الكلب، جبتيلنا العار يا شرْموطة!

حرر كفه اليمنى من الإمساك بي، وكال لي الصفعات على وجهي. كان يصرُخ بكلمات نوبية وعربية مختلطة، بينما علَت صرخاتي وولولة أمي، وأختي، وطفليها الصغيرين. دارت الدنيا بي، ووقعتُ على الأرض فاقدة الوعي. عندما أفقت، شممت رائحة كولونيا نفاذة. كانت بعض نسوة الجيران يحطن بي، وأُمِّي تنظر إليَّ بوجه شاحب ودموع صامتة. بدا أخي ملتاعًا في الخلف، بينما تشبث أطفال شقيقتي بثيابها. باب الغرفة مفتوح، تطل منه وجوه وعيون متطفِّلة. أغلق مُرسي باب الغرفة. سمعتُ صوت إحدى الجارات الريفيات تقول:

- وفيها إيه يعني، زميلها وجِه يخطُبها؟!

ردت أمي بصوت مجروح:

- إحنا نوبيين ما نديش بناتنا لأغراب!

أبصرتُ عينيْ شقيقي الآخر الذي يقف في ركن الغرفة، والغضب يُدمِي بياض عينيه. رويدًا رويدًا، بدأت الغُرفة تخلو من الأغراب. انسحب شقيقاي إلى غرفتهما. نظرت أمي بنظرة عتاب وشفقة قائلة:

- عاجبك الفضيحة اللي إنتِ عملتيها؟ جرستّينا، وحطيتِ راسنا في التراب.

لم أرُدّ، وظللت صامتة مصدومة. ساد الغُرفة صمتٌ

وهدوء قاتلان. لم أشعُر بآلام في جسدي. بعد نصف ساعة، استجمعتُ قواي، وذهبت إلى دورة المياه التي أخذت رُكنًا على السطح. سمعتُ لغطًا بين جيران ما زالوا يتحدثون فيما حدث. عندما رجعتُ إلى الغرفة، نظرتُ في المرآة المعلقة على الجدار. كان وجهي قد بدأ في التلون بكدمات ورضوض حمراء، بدا بعضها في التحول للون الأزرق. ذهبتُ إلى فرشتي لأرقد، بينما لف حزنٌ صامت الحُجرة. حاولتُ النوم، فلم أستطع. لم يأتِ أبي للغرفة ليبات فيها. علمتُ في الصباح، أنه نام على دكته في مدخل العمارة. قبيل الفجر، رُحت في سُبات خفيف. حلَّ الصباح. أصبح جسدي يؤلمني، وشعرتُ بأوجاع الرضوض التي أصابتني. قررتُ عدم الذهاب إلى العمل، طلبتُ من أخي «مُرسي» إبلاغهم في عملي بمرضي وملازمتي الفراش.

لم يأتِ والدي إلى الغُرفة. أرى نظرات الشَّفَقَة في عينيْ شقيقتي وطِفليها. اقتربت أمي مني، وألمحت إلى أن أبي يُفكر في أن يعلن خطبتي لابن عمي في أول إجازة له من اليمن. أشَحتُ بوجهي عنها غاضبة. تصل إلى أذنيَّ نغمات أغنية حزينة للمطربة «نازِك»، يبثها راديو الجيران:

«كل دقة في قلبي بتسلم عليك

يا واحشني من زمان، فين نور عنيك

يا واحِشني، يا واحِشني

كل نِسمة تمُر من عندك عليَّ

قلبي يحُضنها بشوقه وبحنانه

كل كلمة أسمعها عنك تحلى ليَّ

ياللي جنبك قلبي بيلاقي أمان

طب دنا من كتر أشواقي إليك

كل دقة في قلبي بتسلم عليك

يا واحشني من زمان، فين نور عنيك

يا واحِشني، يا واحِشني»

ينساب لحن «محمد فوزي» داخل عروقي التي تحول فيها الدم إلى دموع ساخنة.

في اليوم التالي بدأت الحركة تدبّ في الغرفة، وانسحب الصمت أمام حوارات بين أمي، وأختي، وأطفالها. دخل أبي الغرفة في الصباح، نظر إليَّ مليًا. لم يقُل شيئًا. رأيتُ على وجهِه مزيجًا من الشفقة والعِتاب. انتهزت فرصة خروجه من الغُرفة، وذهبتُ أستطلع وجهي في المرآة من جديد. أصبحت الكدمات زرقاء، وأكثر وضوحًا. أصبحت أفكر في «حمزة» أكثر، وأتساءل عما يشعر به الآن. هل سيحاول مرة أُخرى؟ هل سيظل على إصراره وإلحاحه في الزواج بي، أم سيستسلم أمام صُدود والدي؟

بعد أسبوع، وبعد أن زالت آثار الكدمات، ذهبت إلى

الشَّركَة بعد أن مررت على القومسيون الطِّبي. كنت قد أخذت من طبيب زميل في المنظمة شهادة مَرَضِية بإجازة لمدة أسبوع، بحُجة إصابتي بالإنفلونزا وارتفاع درجة الحرارة. أبلغتني «هناء» زميلتي في العمل، بأن شخصًا ما كان يطلُبني يوميًّا بالتلفون في مكتب «الرَّيِّسة». بالأمس فقط، جاء شاب وسيم إلى المكتب، واستعلم من «هناء» عن غيابي. قالت إنها فهمت منه أنه زميلي في «منظمة الشباب». غَمزَت بعينها وضحكتْ ضحكة عالية جعلت الخجل يُغرِقني. تجاهلتُ كلماتها، ونظرتُ في الورق الذي عليَّ طباعته. بعد دقائق معدودات، نادتني «الرَّيِّسة» لأرُد على مكالمة هاتفية. جاء صوتُه هُو، بنبراته المميزة وبلهفته الحنونة:

- إزيك يا كريمة؟ كنتِ فين؟ انشغلت عليكِ قوي!

- كان عندي شوية إنفلونزا وسخونية.

- مُمكِن أشوفك النهارده؟

- لأ، مش هقدر. أنا لسه تعبانة.

بدأ «حمزة» يتحدث بثِقة ورَوِية. شعرتُ بأنه يريد توصيل رسالة مهمة لي. ضغط بكل ثِقله على مخارج الكلمات وأصوات الحُروف، وكأنه يُملِيني موضوع إملاء مما كنَّا نأخذه في المدارس:

- اسمعِي يا كريمة، أنا بحبك ومش هسيبك. لِسه الأمل موجود، وهروح لأبوك مرة واتنين وتلاتة. المُهِم إنك ما

تفقديش الأمل، وتصري على موقفك.

أحسست أن عباراته الأخيرة قد وصلت إلى أذني «الرَّيِّسة». وضعت سماعة الهاتف، ولاحظت ابتسامة خفيفة على شفتيها، بينما طلت من عينيها نظرةُ مُشجِّعة.

مرت عدة أيام قليلة، ذهبت بعدها إلى مقر المنظمة بقسم «قصر النيل» لحضور اجتماع. شعَرتُ بأجواء قلق وخوف تلُف المكان. اقتربت مني زميلتي في المنظمة «سهير»، وأخذتني من مرفقي، واتجهت إلى الشُّرفة. كان شارع «صبري أبو علم» مزدحمًا بحركة مرور السيارات الكثيفة. نظرت «سهير» حولها قبل أن تُحدِّثني. أبلغتني أن حملة اعتقالات واسعة جرت لقيادات في «منظمة الشباب» و«معهد الدراسات الاشتراكية». أبلغتني أن أمين المنظمة المساعد «حمزة النادي» الذي تنزه معنا فى الحديقة اليابانية، قد أُلقِيَ القبض عليه. لم أستطع أن أُخفِي الصَّدمة التي أصابتني، فصرخت:

- ليه.. ليه؟

ظهر الذُّعر على وجه «سهير»، همستْ:

- إنتِ مجنونة، وطي صوتِك.

اعتراني الذُّهول. توقف عقلي عن العمل، وسقطت في بئر بلا قرار. دخلت إلى غرفة الاجتماع، وجلست في شبه غيبوبة. ابتدأ أمين القسم الاجتماع، وبجواره أحد الكوادر المركزية بالمنظمة. انتبهتُ على صوت القيادة

الزائرة وهو يقول:

- بفضل الوعي واليقظة اللذين تمتع بهما قيادة المنظمة والأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي، استطعنا إحباط مؤامرة كبيرة قامت بها الثورة المضادة للاستيلاء على منظمة الشباب لصالح قوى أجنبية معادية. للأسف بعض قيادات المنظمة التي وثقت بها القيادة السياسية، تكتّلت وأحيَت تنظيمًا يمتد إلى خارج حدود الجمهورية العربية المتحدة.

أمسك بي دوار عنيف؛ فلم أُعلِّق على ما قال. بدأت نظرات الاستفهام بفعل صدمة المفاجأة تدور بين الجالسين حول طاولة الاجتماع. لم يجرؤ أحد من الحاضرين على الحديث أو التعقيب. لاحظتُ وجهًا غريبًا يجلس على كرسي بمحاذاة جدار الغرفة. بدا لي أنه قد يكون من رجال المباحث العامة! مر الاجتماع بعد ذلك وفق جدول أعمال اعتيادي. كان الحاضرون يفتحون ويغلقون أفواههم متحدثين في أمور روتينية معتادة، بينما أذناي غير قادرتين على سماع كلمة واحدة من الحديث. انتبهتُ على «سهير» تلمس ذراعي وتقول:

- رُحتِ فين يا «كريمة»؟! الاجتماع خُلُص، وإنتِ لسه قاعدة!

خرجت معها إلى الشارع صامتة. افترقنا، وشققت طريقي إلى البيت. كانت التساؤلات تُطارِدني: أي تنظيم

أو تكلّل هذا الذي كان فيه «حمزة»؟ ولماذا لم يُخبِرني به؟ هل تم تلفيق قضية له بواسطة أجهزة الأمن، أم أنه راح ضحية صِراع بين قيادات التنظيم السياسي والحكومة؟ لم تخبِرني «سهير» بمن تم اعتقالهم معه من قيادات المنظمة. كيف سأتصرَّف؟ لا أعرف عنوان أهله؛ لأسأل عنه. حتى أصدقاؤه لا أعرفهم. أدركت أنني إبرة صغيرة ضائعة في كوم كبير من القش.

قضيت الليل أفتش في عقلي عن طريق للاستدلال على مكان «حمزة». فجأة أدركت أنه ربما تكون «سهير» هي مفتاح اللغز. ألم تُخبِرني بأمر الاعتقالات قبل أن يتحدث المسئول المركزي في الاجتماع عنها؟! «سهير» تخرجت هذا العام في المعهد، أستطيع أن أعرف عنوانها من شئون الطلبة، لا داعي أن أسأل في المنظمة عنه حتى لا أثير الشُّبُهات. في اليوم التالي، خرجت من العمل بإذن ساعتين قبل موعد الانصراف، وذهبتُ إلى المعهد بالسبتية. كان ملف «سهير» ما زال موجودًا، ولحُسن الحظ كان فيه رقم تلفون بيتها. اتصلتُ بِها، واتفقنا على أن أقابلها أمام كوبري «قصر النيل» من ناحية «كورنيش» القاهرة. لاحظتُ استغرابها لاتصالي بها، وإلحاحي على مقابلتها.

لم يكُن أمامي سوى مُصارحتها بقصتي مع «حمزة». سِرنَا بمحاذاة «النيل» نحو كورنيش «جاردن سيتي». كانت شمس الغروب كرةً حمراء يختلط فيها الغضب والحُزن.

ظهرت المفاجأة على وجه «سهير». نظَرت نحوي، وتمتمت:

- ياه، واضح إن قصتكم ابتدت من يوم الحديقة اليابانية.

أومأت برأسي موافقة، لكنني سألتها مباشرة:

- عرفتِ إزاي بحكاية حمزة وأصحابه بتوع المنظمة؟

- بسيطة خالص، من خطيبي اللي بيشتغل ضابط في المباحث العامة.

نظرتُ إلى كفها اليمنى، فوجدت دبلة خطوبة في إصبعها. باركتُ لها، ولُمت نفسي لأنني لم ألحظ الدِّبلة من قبل. أبديتُ لها خوفي على «حمزة»، فطمأنتني قائلة:

- واضح إن الموضوع متلخبط يا كريمة، الحكومة قابضة على ناس كتير. منهم بتوع المنظمة، وناس صحفيين، وناس تانية من المعهد الاشتراكي، وناس تالتة بيقولوا عاملين تنظيم شيوعي صيني.

ظهر الانزعاج على وجهي. فوَاصَلتْ:

- تصوري الأبنودي الشاعر بتاع الأغاني قابضين عليه.

- ده أنا لسه سامعاله أغنية في الراديو النهارده!

- الاعتقال حاجة، وإذاعة الأغاني في الإذاعة حاجة تانية.

- همّ فين يا «سهير»؟

ـ في سجن القلعة.

أخذ عقلي يعمل بسرعة. فكرت أن أطلُب منها، عبر خطيبها، الاطمئنان على «حمزة». ثم ترددت. تراجعت عن الفكرة؛ فأنا لا أعرف ماذا سيكون رد فِعلها. عندما وصلنا بالقرب من «قصر العيني» القديم، افترقنا. مدت يدها إليَّ، وشدَّت على كفي. قالت بإخلاص:

ـ لو عرفت حاجة هقولك يا كريمة.

أعطيتها رقم تلفون عملي، لكنها قالت:

ـ بلاش التلفونات. نتقابل في اجتماعات المنظمة الأسبوعية. التلفونات متراقبة وبيتصنتوا عليها طول اليوم.

فاصل

معتقلون على ذِمة تنظيم «وِحدة الشيوعيين»، منهم:

عبد الرحمن الأبنودي (شاعر)، سيد حجاب (شاعر ومهندس)، صلاح عيسى (إخصائي اجتماعي وكاتب)، محمد عبد الرسول (إخصائي اجتماعي)، كمال عطية (إخصائي اجتماعي)، صبري حافظ (إخصائي اجتماعي)، فوزي عطية (إخصائي اجتماعي)، غالب هلسا (كاتب أردني الجنسية)، سيد خميس (كاتب وناقد أدبي)، جمال الغيطاني (موظف وكاتب قصة قصيرة)، جلال السيد (صحفي وكاتب سياسي)، علي الشوباشي (صحفي)، د. رءوف نظمي (محجوب) (طبيب بوزارة الصِّحة)، أحمد العزبي (موظف)، محمد العِزبي (صحفي)، غازي عزام (مهندس)، محمود البقري (مدرس)، صدقة الحديدي (موظف)، أحمد فرج (محامٍ)، حشمت... (صحفي بوكالة أنباء الشرق الأوسط).

معتقلون موجودون في المُعتقل، ولهم علاقة بالموضوع:

عادل أمين (محامٍ)، محمد عبد الغفار (عامل وصاحب مصنع صغير للنسيج)، إبراهيم فتحي (كاتب وناقد أدبي)، كمال عبد الحليم (شاعر وأحد قيادات الحزب الشيوعي المُنحل).

معتقلون من منظمة الشباب الاشتراكي، وتهمتهم الانضمام لحركة «القوميين العرب»، منهم:

سمير حمزة، صالح محمد صالح، هاشم حمود، بهاء عبد الفتاح، صالح سمرة، سامي العقباوي، شوقي العقباوي، عثمان عزام، منير إسكندر، عبد الوهاب قتاية، أبو بكر يوسف.

آخرون دخلوا المعتقل من بعد، وأُطلِق عليهم حبسة كفر الشيخ:

د. علي النويجي (طبيب وقيادة سياسية من دسوق)، أحمد شُهدي (صاحب ورشة حدادة بدسوق)، محمد سبلة (موظف بتلفونات دسوق)، أحمد المهدي (محامٍ بدسوق)، أبو اليزيد عباس فايد (مهندس زراعي بدسوق)، محمود عثمان (مدير بمصر للتأمين بدسوق)، جلال خلف (رئيس جمعية الصناعات الميكانيكية بدسوق)، سيد أبو اليزيد عبد الله (موظف بمجلس مدينة دسوق)، كمال البوريدي (موظف بشركة أقطان بدسوق).

١٤

مرَّ شهر أغسطس، لكن لهيبَه ظل مقيمًا معنا في سبتمبر.

أُقيلت وزارة «زكريا محيي الدين»، وتم تشكيل وزارة برئاسة المهندس «محمد صِدقي سُليمان». تملأ الإشاعات أرجاء مبنى الجريدة، بأن «عبد الناصِر» اختلف مع «زكريا» بشأن سياسة وزارته الاقتصادية. العجيب، أن كل تصريحات «الرِّيِّس» قبل ذلك، تؤيد سياسات تحرير الإدارة في القطاع العام. كانت هناك موافقة منه على تحرير الأسعار بشكل جزئي. الأزمة الاقتصادية واضحة، وقُدرَتُنا على تأمين مُدخَرَات للدخول في الخطة الخمسية الثانية قد استُنفِدت. آثار حرب اليمن وتكاليفها وضعت بصماتها على حياة رجل الشارع. ألحَّت عليَّ «فاتِن» أن أسافر إلى قريتي، وأحضِر جوالًا من الأرز المضروب الذي يمكن شراؤه من نصيب أقاربي خارج حصة التوريد للجمعية الزراعية. اشتريتُ بالفعل ثلاثين كيلو جرامًا من الأرز بسعر ثمانية قروش صاغ ونصف القرش للكيلو جرام الواحد! منذ بداية سنوات الستينيات، تمر الجمهورية العربية المتحدة بأزماتٍ سِلعية متتالية: نقص الصابون، وشُح السُّكر، وقِلة زيت الطعام. شملت بطاقة التموين لعائلتنا المكونة من فردين: شاي «مبروكة» الذي أشيع عنه خلطه بنشارة الخشب، والسُّكر، وزيت «أبو الهول» من بذرة القطن، وكوبونات «الكيروسين»، وصابون المطبخ. لم تكن بطاقة

التموين اختراعًا لثورة يولية، بل كانت من آثار الحرب العالمية الثانية. وأصبحت مع الثورة ومعاركها المتواصلة في الخارج طقسًا شهريًّا دائمًا.

لم أكن أعرف - آنذاك - أنه بعد أقل من عام، بعد حرب ٦٧، سيضاف إلى بطاقة التموين الأُرز، وخمسة أمتار من قماش «الكستور» للفرد سنويًّا؛ لعمل البيجامات وجلاليب النوم في الشتاء. كل ذلك يهُون ما دُمنا نبني مجتمعًا متقدمًا في عالمنا العربي، ونواجه الاستعمار بجسَارة. بعد ثماني مقالات نقدية في مجلة «الحرِّية» البيروتية كتبها «محمد كِشلي» عن ثورة يوليو، بدأ نشر ثلاث مقالات لصديقي «صلاح عيسى» بدءًا من الأسبوع الأول من شهر سبتمبر. أخذت مقالات «عيسى» عنوانًا ثابتًا: «الثورة بين المَسير والمَصير». لاحظت استخدامه تعبير «ظاهرة يوليو» بدلًا من كلمة «ثورة»، وتوقعتُ ردود فعل غاضبة من الحُكومة. تابعت باهتمام المقالات الأسبوعية لصلاح في «الحرِّية» التي كانت نتيجة مناقشات ما بين «شِلة العجوزة». أبدى صديقِي الصحفي الشاب «محمد العزبي» إعجابًا بقدرة «صلاح» على تحليل مسيرة يوليو، وسبر مستقبلها واحتمالاته.

مع حلول شهر أكتوبر، أصبح الطقس أكثر احتمالًا. انخفضت الحرارة نوعًا ما، وأخرجت «فاتن» من الدواليب البطانية واللحاف القطني. أصبحت أرتدي فوق القميص الإفرنجي بلوفرًا من الصوف اشتريته بستة جنيهات

من محل «صيدناوي». أحضرتْ «فاتن» نصيبنا من «برطمانات» السمن البلدي الذي قامت بتسييحه والدتها من أرطال الزبدة البلدي التي اشترتها. صحن «المورتة» المتخلفة من عملية التسييح، أصبح على طاولة إفطارنا كل يوم. فاجأتني «فاتن» بعد عودتي من العمل في الظهيرة:

ـ عبد المُعطي، تعالَ هنا وبُص.

كانت تنظر من فُرجة الشيش الخشبي للنافذة. كان الشيش شِبه مغلق إلا من فتحة بسيطة بفضل الأكرة المعدنية غير المحكمة. نظرت إلى حيث تشير، فوجدت رجُلا بملابس بلدية يقف على بعد أمتار من البيت. واصلت زوجتي حديثها:

ـ الراجل ده بقاله يومين بيراقب البيت، وهو مش من الشارع خالص.

ـ لا إنتِ متهيألِك بس!

ـ لأ، أنا متأكدة.

كنت لم أخلع ملابسي بعد، فنزلت من فوري إلى الشارع. مررت بالرجل عن قُرب، وتأملت ملامِحه. كان بالفعل يشبه مخبري المباحث، له شارب متوسط، وعلى رأسه «لاسة» لامعة. فقط، لم تكن معه عصا تحت إبطه. سِرتُ حتى آخر الشارع، فوجدته يقتفي أثرِي. انعطفت في الشارع الرئيسي، ثم وقفت أمام كشك سجائر؛ لأشتري علبة «كليوباترا». توقف على بعد عشرة أمتار مني، وأعطى

لي ظهره. رجعت إلى بيتنا متأكدًا من أنني مُراقَب. فتحتُ الباب، فوجدت «فاتن» ما زالت تتلصص من فُرجة الشُّباك. عندما رأتني، انفجرت في وجهي صارخة:

ـ أنا مش قلت لك، ما لكش دعوة بأصحابك المشاغبين دول؟ خليك في مقالاتك وكُتبك ودراساتك. مالك ومال مصايب السياسة ومناطحة الحُكام؟

لم أرُد عليها، كان ذهني يعمل بسُرعة في اتجاه مغاير. عشرات التساؤلات والأسئلة تلح عليه. فتشت المكتبة والكُتب، قمت بحرق أي أوراق شككت في استخدامها ضدي عند اعتقالي. حتى أعداد مجلة «الحرِّية» أشعلت فيها النيران في صفيحة الزبالة، ثم قمت برمي رمادها في المرحاض، وشددت عليها صندوق الطرد. كانت زوجتي تُراقِبني، ووجهها محتقنًا من الحَنَقِ والغضب، بينما تتأرجح نظراتها ما بين الصَّدمة والهلع. شعرنا بخبطات عالية على باب الشقة، فتلاقت أعيننا في رُعب. ذهبت «فاتن» لتفتح الباب، فوجدت الجيران يخبرونها بتصاعد دخان من ناحية «المَنوَر» الذي تطلُّ عليه نافذتا المطبخ والحمام. قريحة زوجتي أنقذتنا، فأخبرَتْهم بأن صينية البطاطس باللحمة قد احترقت. ظللنا طوال المساء في المنزل صامتين. توقعنا أن يُداهمونا بعد منتصف الليل. ارتديت قميصًا وبنطلونًا صوفيًّا تحت البيجامة، وتمددت في السرير على ظهري في انتظارهم. أحاطتني فاتن بذراعيها، وقالت:

ـ الناس الأيام دي بتخش جوه الحيطة تتخبى، وإنت

وصحابك فاردين صدركم على إيه؟

طَبَعتْ قُبلةً على جبيني، واستلقَت بجواري. لم يستطع كلانا النوم، وبقيت أعيننا مفتوحة. عندما لاح الصباح، تنفسنا الصعَدَاء. قمت من فراشي، وراجعت المكتبة مرة أُخرى. فتشت في أدراج المكتب ورفوف البوفيه عن أي أوراق أوكُتُب قد تستخدمها المباحث العامة ضِدِّي. عندما اطمأننت، تناولت إفطاري مع «فاتن»، وخرجنا معًا كلٌّ إلى عملِه. لاحظت من جديد أن شخصًا يتتبعني، لكنني كنت أهدأ بالًا من الأمس.

كيف أَتصِل بشلة الأصدقاء؟ ظل السؤال يُحيرني طوال مكوثِي بالعمل. أطلَّ وجهٌ غريب لثوانٍ معدودات من الباب على الغرفة التي تضُم مكتبي إلى جانب ثلاثة مكاتب أخرى لزملائي. أخبرني عم سلامة الساعِي، بأن هذا الرجل سأله عني فدلَّه على مكاني. شعرتُ بأن الخِناق يضيق عليَّ، وبدأت دقات قلبي في الاضطراب. قررتُ بأن أبقى في العمل حتى موعد المغادرة الرسمي في الثانية ظُهرًا رغم أن عملي كصحفي يعطيني الحق في المغادرة في أي وقت لعمل التغطيات الصحفية. بعد أن غادرت مقر الجريدة، ذهبتُ إلى ميدان «طلعت حرب»، ودخلت إحدى الصيدليات. طلبت التحدث في التلفون، وأخرجت شِلنا أعطيته للبائع. اتصلت برقم مقهى «إيزافيتش»، وسألت الجرسون عن «الأبنودي»، فأبلغني أنه كان مساء الأمس موجودًا مع «صبري حافظ» و«سيد حجاب».

أحسستُ بالاطمئنان، وذهبتُ إلى المنزل.

بعد منتصف الليل، سمعنا أنا وفاتن خبطًا عنيفًا على باب الشقة، حتى كاد أن يقتلعه. قفزت من السرير مُرتاعًا، وطلبت من «فاتن» أن تهدأ وتلبس روبَها. فتحتُ باب الشقة، فاندفع ستة مُخبرين، ووراءهم ضابط في زيه الرسمي وضابط من المباحث العامة بزي ملكِي. لم يتركوا رُكنًا في البيت إلا وفتشوه. قلبوا المكتبة، وبحثوا في كل الغرف. حتى سرير النوم، بقروا مرتبته بمطواة! أكثر ما خفف عني هذه القسوة، هو منظر أحد المخبرين يزحف على بطنه لينزل تحت السرير بحثًا عن أي دليل يدينني. أشار ضابط المباحث إلى صورة كنت قد علقتها على حائط الصالة، فوقف أحد المخبرين على كرسي ليتأبطها، ونحن ننزل السُّلم إلى الشارع، كانت الصورة للشاعر الروسي «ليرمنتوف»، فتعجبت! عندما جلست في السيارة البوكس، وضع أحدهم قطعة قماش على عينيَّ؛ حتى لا أرى إلى أين نحن ذاهبون. أحسست بأن السيارة تصعد مرتفعًا بالتدريج، فتأكدت أنني ذاهب إلى معتقل «القلعة».

عندما أوصلوني إلى هناك، ظلوا محتفظين بالغمامة على عينيَّ حتى باب الزنزانة. هناك فقط نزع الحارس الغمامة، فاستطعت أن أُبصِر رقم الزنزانة في ثانية. «ثلاثة وعشرون»، سيظل هذا الرقم يناديني به السجانون عبر الأبواب المغلقة. دخلت الزنزانة المظلمة، تقدمت خطوتين

أو ثلاثًا، فإذا بقضيب حديدي يصطدم بقوة بقصبة ساقي. صرختُ من الألم الشديد، وجلست على الأرض الجرداء. اعتادت عيناي الظلام، فوجدت قضيبًا حديديًّا مثبتًا في الحائط، وعلى ارتفاع خمسين سنتيمترا من الأرض. خمنت أن قضيبًا آخر كان يُلازمه، وأن لوحًا من الخشب كان مثبتًا عليهما في السابق؛ لينام عليه المعتقل. كان من الواضح أن هذا القضيب قد استعصى على الخلع من الجِدار. أبصرتُ بصعوبة ثلاث بطانيات من صوف العسكري، ملقاة على الأرض بجانبي. أخذت واحدة وفرشتها تحتي، ووضعت الثانية تحت رأسي كمخدة، وتغطيت بالثالثة التماسا للدفء. اكتشفت أن أرض الزنزانة مبللة بالماء.

طوال الليل، كنت أسمع أصوات أبواب زنازين تُفتح وتُغلق، ووقع أقدام في الممر الذي تطل عليه أبواب الزنازين. سكونٌ تام ذكرني بصمت القبور، لا يقطعه سوى ورود معتقل بصحبة سجانيه. نال التعب والقلق مني، لكنني شعرت بدبيب حشرات تغزو جسدي، وتقرص كل سنتيمتر فيه. أخذتُ أضرب بكفيَّ رأسي وأنحاء مختلفة من جِسمي. شعرتُ ببلل من الماء في راحتيَّ. نال التعب مني؛ فنِمت نومًا متقطعًا.

في الصباح، اكتشفت أن يديَّ مخضبتان بدماء البق الذي صارعته بالأمس! هل كانت دماء البق، أم دمي؟! وقفتُ على قدميَّ، وجدتُ طوابير حشرات البق تمشي على جدران الزنزانة. بأظافري خدشت طلاء الحائط،

كي أصنع علامة طولية تُذكِّرني بالليلة التي قضيتُها. قررت أن أخدش طلاء الحائط صباح كل يوم، وأن أجمع كل أربع علامات رأسية، بعلامة خامسة أفقية. أحصل على وحدة من خمسة أيام، ومن الوحدات أعرِف ما سيمر عليَّ من زمن هنا. لم يكن ذلك اختراعًا ابتكرته، بل وجدت تلك العلامات مرسومة بهذا النظام على الجدران من معتقلين سابقين. باب الزنزانة الحديدي ثقيل، به شراعة بقضبان لينظر من خلالها الحارس إلى الداخل. وتحت الشُّراعة مباشرة كُوة تنفتح من الخارج؛ لتتم من خلالها مناولة الطعام. انفتح باب الزنزانة، وأخذني الحارس إلى دورة المياه. في طريق العودة إلى الزنزانة، جُلت بنظري على أبواب الزنازين الأخرى. كان الصمتُ تامًّا، في هذا الصَّباح. نظرتُ إلى أعلى، واكتشفت أن سقف الممر هو السماء الزرقاء! أغلق السجان عليَّ باب الزنزانة مُجددًا. بعد دقائق، انفتحت كُوة المناولة. أعطاني رغيف فينو وتسع زيتونات بالعدد. قضمت الرغيف، ووضعت زيتونة في فمي، وظللت ألوكها أكبر فترة ممكنة. كنت أفكر مَلِيًّا فيما ينتظرني بعد دقائق أو ساعات، لكنني قررت في النهاية ألا أشغل عقلي باحتمالات، وأن أترُك هرش الدماغ لمن اعتقلوني.

بعد فترةٍ من الوقت، انفتح الباب، وقام الحارس بوضع منديل على عينيَّ. شعرتُ بشخصين يمسكان بذراعيَّ، ويقودانني عبر سلالم إلى أعلى. خطوتُ في ممر، وسمعتُ

صرير باب ينفتح. دخلت من خلال الباب، بينما ما زال المُخبِران يمسكان بي من الجانبين. ما زالت العصابة على عينيَّ. سمعتُ صوتًا خشنًا يأمر المخبريْن:

ـ ارموه للكلاب ينهشوه!

سمعت أصوات نباح كلاب، لكنني أدركت بعد دقيقة أنها مجرد تسجيلات. انهالت الصفعات واللكمات على جسدي. كُنت غير قادر على توقع من أين تأتي الضربات، فوضعت ذراعيَّ على رأسي كي أحميها. أحسست بركلة قدم قوية أطارت ساقيَّ من على الأرض؛ فانطرحت على ظهري أتأوه. انزاحت الغمامة التي على عينيَّ لمسافة ملليمترات، فرأيت حذاءً أسود شديد اللمعان. حركت رأسي إلى الوراء، فاستطعت رؤية وجه الضابط الجلَّاد. كانت بين أصابعه سيجارة مشتعلة، يتلذذ بأخذ أنفاس منها في شبق. جاء صوته هذه المرة قاسيًا:

ـ سيبوا ابن الكلب ده، هنشوف هيتكلم ولا لأ؟

تلقفتني أذرع المخبريْن، فأجلستني على كرسي من الخيزران. كانت أنفاسي لاهثة متقطعة، سمعت أحد المخبريْن يقول لي:

ـ ما فيش داعي للبهدلة، اتكلم أحسن لك، واعترف على زملاتك زي ما اعترفوا عليك.

بعد ربع ساعة، دخل نفس الضابط، ولكن بعد أن غيَّر ملابسه. أزاحوا الغمامة عن عينيَّ. ابتسم في وجهي

مصطنِعًا البراءة:

- الله، هُمَّ ضربوك يا أستاذ عبد المُعطي.

- لا، ورموني للكلاب كمان!

- قولي يا أستاذ عبد المُعطي، إنت من امتى في تنظيم «وحدة الشيوعيين»؟

- أنا ما عرفش تنظيم بالاسم ده!

- أمال اسمه إيه؟!

- أنا مش في أي تنظيم، وبما إني صحفي فأنا في الاتحاد الاشتراكي.

- لا، كده مش كويس لك، زملاءك اعترفوا عليك. ليه بتحاول تحميهم؟

- قلت لك ما عرفش التنظيم اللي بتقول عليه!

رانت فترة من الصَمت ظننتها ساعات. جاء صوته ماكِرًا هذه المرة:

- علاقتك إيه بأنور السادات؟

- ولا عمري قابلته!

- وكمال رفعت؟

- ولا هو كمان!

ظهر الغضب على ملامحه، وأمر المخبرين بتعليقي على

مشجب معدني بالحائط. أحسست أن ثقل جسدي ملقى على كتفيَّ ورقبتي. آلام فظيعة، احتملتها بصعوبة. وجه أوامره للمخبرين:

ـ سيبوه ساعتين متعلق، وبعدين ودوه زنزانته، يمكن بُكره يعقل.

بعد ظهيرة اليوم التالي، استدعاني نفس الضابط. كان يرتدي بذلة رمادية، وربطة عنق مستوردة ملونة. كنت أجلس على كرسي خيزران، ويداي مقيدتان. وعلى جانبي من الناحيتين مخبران يرتديان ملابس إفرنجية. كانت في يد الضابط زجاجة «كوكاكولا» مثلجة، تتناثر على سطحها الزجاجي قطرات من ندى. سألني:

ـ غيرت رأيك ولا لسه؟

صمتُ، ونظرت بتحدٍّ في عينيه مباشرة.

ـ عارف يا واد، أنا رايح فين دلوقتِ. هقابل البت بتاعتي، وأسيبك هنا. اتكلم وما تعطلنيش.

لم أُغير موقفي، وصمدتُ. فوجئت به يمسك بالزجاجة، ويضرب بها فكي الأسفل بكل قوته. كدت أفقد وعيي من شِدة الألم. صرخت صرخة مُدوية، نخرج آمرًا معاونيه بتعليقي على شباك باب زنزانتي. ظللت طوال الليل معلقًا على باب الزنزانة. عندما أفقت في الصباح، وجدت نفسي مستلقيًا على الأرض. عندما فتح الحارس الزنزانة، قال لي:

ـ يا ابني، ليه لازمة تبهدل نفسك كده. اخلَص وقول اللي عندك!

أدركت أنني غِبتُ عن الوعي، فأنزلوني من المشجب المُعلق على الباب. خمسة وثلاثون يومًا من التعذيب المستمر، ومن تغير وجوه الضباط والمحققين عليَّ. لم أعرِف من في الزنازين الأخرى. في إحدى الليالي، حاولت أن أدُق بقبضة يدي على الجدارين اللذين يفصلان زنزانتي عن جاراتها، فلم يرُد عليَّ أحد. علاقتي بالدُّنيا تمر عبر أذنيَّ، وأنا أسمع صرخات وأنات من مُعذبين، لا أستطيع تمييز أصواتهم. مرة واحدة، استطعت التشبث بقضبان شُراعة الباب، عندما سمعت صوت رجل يصرخ: «أنا في عرض عبد الناصر». ربما كان ذلك بعد أسبوع من اعتقالي. رأيت شابًّا تغطي الكدمات وجهه تجُرُّه أكُف المخبرين، بينما تتدلى ساقاه زاحفتيْن على الأرض. في لحظة، تعلقت عينا الشاب بشباك زنزانتي، أبصرني فصمَتَ. ملامحه ليست غريبة عليَّ، يشبه الشاب الذي قابلته ينظم مؤتمر المبعوثين في الإسكندرية. مرت لحظة على تجاوزه باب زنزانتي، وعاود التأوه والاستنجاد بالزعيم.

في اليوم الأخير لي في سجن القلعة، أحضروني لأمثُل أمام ضابط المباحث العامة الذي حقق معي أول مرة. قال باستهتار واشمئزاز:

ـ كُنا فاكرينك حاجة، طِلِعت واد هايف وهلفوت.

انتقلت إلى سجن طُرة، وهناك اكتشفت أن جميع الأصدقاء وزملاء التنظيم السابقين والحاليين هُناك. علمتُ أن حملة القبض شملت من ظنوهم في «وحدة الشيوعيين»، وقيادات من «منظمة الشباب»، ومعهد الدراسات الاشتراكية، وحلقة صغيرة تُسمى «طليعة الشيوعيين». أكثر من مائتي إنسان، عومِلوا بحِقدٍ وغِل فظيعين. في «طُرة»، اكتشفنا أن المعتقلين من منظمة الشباب ليسوا معنا. هل استمروا في تعذيبهم بقلعة «صلاح الدين»؟! السجن به ثلاثة عنابر: عنبر للشيوعيين، وثانٍ للإخوان، وثالث لما سُمّيَ بالنشاط المعادي. اكتشفنا بعد ذلك، أن هذا العنبر ضم زنازين الوفديين والليبراليين الذين شاركوا في جنازة «النحاس»!

كنا في منتصَف «نوفمبر» والجو شديد البرودة. رغم ذلك كان الدكتور «رءوف» يُصِر على التجول في باحة السجن بفانلة داخلية. عندما سألته عن السبب، وأخبرته بخطورة ذلك على صِحته. ابتسم وقال:

ـ حاول في أثناء اليوم أن تخفف من لِبسك، حتى لا تشعر بالبرودة في الليل وانت لابس هدومك!

«رءوف» أو «محجوب» فيلسوف شعبي، يكبُرنا بعشر سنين على الأقل. لكن قضاءه في الاعتقال أكثر من عشر سنين لم يسلِبه شبابه وروحه المرِحة. خرج من المعتقل في عام ١٩٦٥، وها هو يرجع في نهاية عام ٦٦. أخبرني «الأبنودي» أن زوجته، وزوجتيْ «سيد حجاب» و«كمال

عطية» يقمن بجولات يومية على المسئولين في الاتحاد الاشتراكي والدولة للمطالبة بالإفراج عنا. في ليلة رأس السنة، هتف «الأبنودي»: «في داهية يا ٦٦، وبالحضن يا ٦٧». غنى «صلاح عيسى» بحُرقة أغنية أم كلثوم «أعطني حريتي أطلِق يديَّا، إنني أعطيتُ ما استبقيت شيّا». قابلت «عبد الرسُول»، وعلِمت مدى التعذيب الشديد الذي تلقاه في «القلعة». أمدنا صمود «عبد الرسول»أمام جلاديه بصلابة وفخر غير عاديين.

سيزور «سارتر» و«سيمون دي بوفوار» الجمهورية العربية المتحدة في مارس. علمت من «سيد حجاب» أن والد زوجته السويسرية «إيفلين»، بعث برسالة إليه يُعلمه باعتقالنا. وعده «سارتر» بإثارة الموضوع مع «عبد الناصر» قبل قيامه بالزيارة. دارت همسات بيننا، بأن «عبد الناصِر» مهتمٌّ بإتمام زيارة «سارتر»، وأنه وعده بالإفراج عنَّا بعد مغادرته المطار. تلقيت رسالة من «فاتن»، وطردًا بريديًّا على عنواني بالسجن ضم بلوفرًا صُوفيًّا وبيجامة ومعجون أسنان. واضح أنهم لا يسمحون بأمواس الحلاقة. طال ذقني بشكل كبير، تُذكرني بذقن «ماركس»!

بدأنا نشعر بدفء شمس شهر مارس. خرج «الأبنودي» و«حجاب» و«عطية» من المعتقل في منتصف الشهر. بدأنا تباعًا في الخروج من المعتقل. خرجتُ في ضحى ذات يوم ربيعي من «طرة»، نُقِلت بسيارة ترحيلات إلى مقر المباحث العامة بلاظوغلي. قابلني ضابط هناك، وتفضل

عليَّ بفنجان من البُن. سلَّم عليَّ بحرارة، وقال بود:

ـ ما تزعلش مِنا يا أستاذ عبد المعطي، إنت عارف طبعًا مسئوليتنا في تأمين الثورة. إحنا اتأكدنا من إخلاصكم للريِّس، وأتمنى أن ما نشوفكمش في الموقِف ده تاني.

كنت قد استلمت من أمانات السجن مبلغًا بسيطًا من المال أودع باسمي. خرجت من مبنى المباحث، وعبرت ميدان «لاظوغلي». وقفتُ أمام محل للعصير في الميدان، وطلبت كوبا من عصير المانجو. شربته باستمتاع وكأنه رحيق حياة اشتقت إليها. أوقفت سيارة تاكسي، وطلبت من سائقها توصيلي إلى البيت. كنت أُحملِق في الشارع والسائرين فيه وكأنني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا. عندما وصلت إلى البيت، قفزت على سلالم البيت. وضعت إصبعي على زر الجرس، ولم أرفعه. فتحت «فاتن» الباب، وندَّت منها صرخة من المفاجأة. طوقتني بذراعها قائلة:

ـ حمد الله على السلامة. متهيألي كده كفاية قوي بهدلة. خلينا في تأليف الكُتب، ونبعد بقى عن الناس!

بلعت ريقي بصعوبة، وأدركتُ أن نهاية حياتي مع «فاتن» قادمة قريبًا بلا ريب.

فاصل

نوفمبر ١٩٦٦..

«المشير» و«صلاح نصر» وثلاثة من قادة الجيش يجلسون معا في مقر السفارة في «موسكو». دخل عليهم السفير «مُراد غالب» دون أن يشعروا، فسمع «نصر» يقول:

- ما فيش فايدة في البلد طول ما الراجل ده قاعد لنا هناك!

تدخل «غالب» في الحال:

- الله..الله..إيه الكلام اللي بتقوله ده؟!

رد «نصر»:

- إذا ما سكتش هنطلع مَلَفك.

احتد النقاش بينهما، فتدخل المشير قائلًا:

- يا «صلاح»..غالب ده راجل!

كان يقصد أنه لن ينقل الحديث لعبد الناصر.

بعدها بيومين، وبعد انتهاء العرض العسكري بمناسبة عيد الثورة السوفيتية، اصطحب السفير «غالب» «المشير» وأتباعه إلى منزله.

درجة الحرارة في الشارع ثلاث عشرة درجة تحت

الصفر، والمدفأة في الصالون متقدة، والجميع متحلقون حولها. جرى الحديث بينهم، وفي لحظة تذكر «المشير» حادثة جرت له. قرر أن يرويها:

- كنت وقتها ملازم أول، وقابلت ست بتقرا البخت في إسكندرية. قالت لي إني هحكم البلد دي، بس هتقع على الأرض من أعلى القمة وهتموت موتة غير طبيعية.

صَمَتَ الجميع، فبلع «المشير» ريقه واستطرد مستعجِبًا:

- إزاي أقع على الأرض وأخو «عبد الناصر» متجوز من بنتي، وأنا نايب «الرَّيِّس» وقائد الجيش؟! تخاريف بحكيها لإنها حكاية عجيبة!

١٥

هذا اليوم لن أنساه أبدًا. يوم الاثنين، العاشر من أكتوبر ١٩٦٦. خرجت من مبنى الاتحاد الاشتراكي مغمى العينين. جلست في سيارة خاصة، يحوطني في المقعد الخلفي مخبران. خَمَّنتُ أن ضابطًا يجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق. شمس الظهيرة حامية، وقطرات عرق تسيل من وجهي على رقبتي. الجو خانق داخل السيارة؛ مما جعلني أوقن بأنهم أغلقوا زجاج نوافذ السيارة. هل يَظنون أنني سأصرُخ، أو أهتِف منبهًا المارة؟!

توقفت السيارة فجأة. أزاحوا المنديل الذي وضعوه على عينيَّ، فوجدت نفسي أمام بيت عائلتي. قادوني إلى الشقة، وأمطروا بابها بلكمات الأيدي، ورفسَات الأرجل. فتحت شقيقتي الصُّغرى الباب مذعورة، بينما وقفت الشقيقة الأخرى على باب غرفة نومهما بقميص النوم. اندفع الضابط والمخبران، وأنا بين أيديهما. فتشوا الغُرف كافة، نزعوا سلك التلفون من العِدة، وتوقفوا مليًّا أمام المكتبة. أخذوا أعداد مجلة «الحرية»، ونشرات «التنظيم الطليعي» التي يحمل غلافها رَقمًا سِريًّا مُحَرَّمًا يدُل على صاحبها. فِكرة ابتدعوها؛ ليعرفوا صاحبها المُهمِل إذا تَسَرَّبت إلى مواطن عادي، أو إلى عضو غير مُميز في الاتحاد الاشتراكي! أحضروا جوالًا من الخيش، وملئوه بما تيسر لهم من كُتبٍ ومطبوعات.

خرجنا من الشقة، ونظرات الجيران المذهولة تطُل من أبواب الشُّقق في كل طابق نَمر به. أمام باب العِمارة سمعت صوتًا يقول:

- آدي آخرة السِّياسة والاتحاد الاشتراكي!

خُيِّل إليَّ أنني سمعت مصمصات شفاه تتحسر على مصيري. مرةً أخرى، وثقوا رباطًا فوق عينيَّ. وأجلسوني في المقعد الخلفي للسيارة. أحسست بأن ما يفعلونه هو تجريسٌ وإهانة لشخصي أمام سُكان الشارع الذي أقطُن فيه. سارت السيارة وسط زحام ما بعد الظهيرة، حتى توقفت أمام باب سِجن «القلعة». نزعوا الغمامة عن وجهي. أخذ سجان ما بجيبي من نقود وأوراق وبطاقة شخصية، وحرزها في «الأمانات». خلعوا عني حزام البنطال، وربطة عنق كنت أرتديها، وساعة اليد ذات الأستيك المعدني، لينضموا لما تم تحريزه. دخلت زنزانتي قبيل المغرب بقليل. كنت جائعًا منذ الصباح. لم أجد في الزنزانة سوى جردل به مياه للشرب، ودلو آخر للبول والفضلات. تكوَّمت في رُكنٍ للزنزانة.

بعد منتصَف الليل بقليل، سمعت صوت إدارة مفتاح في الباب. دخل مُخبِران، واقتاداني بين ذراعيهما إلى غرفة بأعلى السُّلم. عندما انفتح بابُها، أحسست بحرارة عالية تحرِق عيني. ضوء شديد مُسلَّطٌ على وجهي، وظلام دامس حولي. أبصرتُ قدمين ترتديان حذاءً لامعًا، ذا لونين: بُني وأبيض. فوق الحذاء، تظهر فقط عدة

سنتيمترات من ساقيْ بنطال صوفي رمادي. لا شيء يبين أكثر من ذلك. جاءني صوت مخنث:

- أهلًا بالأخ حمزة، ولا نقول الرفيق حمزة؟

فوجئت بلطمة قوية على رأسي من الخلف، وعدة لكمات نالت من وجهي وصدري وظهري. سمعت الصوت الناعم مرة أخرى:

- لا يا جماعة، عيب كِده. بالراحة عليه، ده من الكادِر بتاع ثورة يولية.

في هذه المرة، انقض عليَّ أكثر من شخص، وقيدوا ذراعيَّ من الخلف بقيد حديدي. طرحوني أرضًا، فاكتشفت أن بلاط الغرفة مُبلل بالماء. انتزعوا الحذاء من قدميَّ، وكانوا قد صادروا رباطه قبل أن أدخل الزنزانة. لامسوا سلكين كهربيين عاريين بظهر قدميَّ. أحسست بقشعريرة هائلة، وارتجاف عنيف يهز كل جسدي. صرختُ، وغِبتُ عن الوعي. عندما أفقت، أدركت أنهم صبوا دلوًا من الماء على رأسي. صدم الصوتُ المخنث أذنيَّ مرة أخرى:

- شُفت إنت عزيز عندنا أد إيه؟ قول يا حمزة على أسماء اللي معاك في التنظيم!

- أي تنظيم؟! منظمة الشباب ولا التنظيم الطليعي؟!

- إنت هتستهبل، روقوه كمان!

مرة أخرى، اخترقت شحنة الكهرباء روحي. عندما فُقتُ في هذه المرة، شممت رائحة بول نفاذة تفوح مني. هل كانت رائحة بولي الذي انفلت مني، أم أنهم صبوا عليَّ جردلًا من بول؟! لم أستطع أن أسمع شيئا، شعرت بهمهمات وكلمات مضغومة لم أتعرف على معناها أو كُنهها. كُنت غير قادر على الوقوف أو المشي. جرُّوني من أربع، فصِرت كخِرقة قماش ممزقة يمسحون بها الأرض. عندما وصلت إلى السُّلم الذي يُفضي إلى أسفل، حملني سجان وأنزلني. سحلوني مرة ثانية إلى باب الزنزانة وسط تأوهاتي. أغلقوا باب الزنزانة، وتركوني أسير ظلامين: ظلام ليل الزنزانة، وظلام دامِس غزا روحي وعقلي. بدأت الآلام تزداد عليَّ بالتدريج. لم أستطع النوم في البداية. لكن التعب هدَّني، وتغلبَ على الألم. غِبت عن الدُّنيا، ونِمت نومًا غريبًا. كنت أسمع صوت شخيري وآهاتي المعذبة.

لم أشعر بزيارة شعاع من الشمس لزنزانتي عبر شِباكها. عندما أحسست بدفء مباغت، فتَّحتُ جفوني المُتعبة، وجدتُ رغيفًا من الخبز البلدي وبجانبه قروانة، لم أتبين محتوياتها. خليط من سائل غليظ، من الصعب التعرف على محتوياته. عَرفت بعد ذلك أنه «اليمَك». أدركت أنني يجب أن أحافظ على حياتي. معدتي خاوية منذ صباح الأمس. جلست بصعوبة، وبدأت أقطع الرغيف بسرعة إلى لقيمات غمستها في قروانة «اليمك». أخذت القروانة،

وقرَّبتُها من شفتيَّ. صببتُها بسُرعة في فمي. اضطربت أنفاسي، لكنني واصلتُ الصبَّ. كُنت أتشبث بالحياة، كرضيع يرضع بنهم من القروانة! انفتح باب الزنزانة فجأة، وأخذني السجان تحت إبطه إلى دورة المياه لأغتسل. سألت السجان:

- الساعة كام دلوقتِ؟

نظر إليَّ باستغراب، وأصدر صوتًا قبيحًا من أنفه. قال ساخرًا:

- ليه؟! عندك ميعاد يا روح أمك!

عندما عُدتُ، شاهدت رقمًا مكتوبًا على باب زنزانتي. كان رقم عشرة! كانت أول مرة ألاحظه، عزوت ذلك لاضطرابي، وللتعذيب المستمر الذي تعرضت له. لاحظت أن هناك لمبة كهربائية بسقف الزنزانة، لكنها مطفأة. تتبعت السلك الواصل إليها من السقف، لكنني لم أجد زرًّا يشعلها أو يطفئها. فهمت أن الزر لا بد أن يكون خارج الزنزانة في مكان ما. غابت أشعة الشمس التي زارتني من شباك الباب؛ فأدركت أن باب الزنزانة يطل على اتجاه الشرق. جدران الجحر الذي وُضِعت فيه، مزدانة بتوقيعات وتواريخ. أغرب ما قرأته على الحائط، كانت جُملة غريبة ومُخيفة: «يا رب.. خذني عندك، وارحمني من العذاب»! اقشعر بدَني، وشعرت بآلام مبرحة في أنحاء جسدي. بدأت العتمة تزحف تدريجيًا على جدران زنزانتي. سمعتُ

صرير مفتاح في الباب. دخل السجان، ومعه مخبران آخران غير من رأيتهما بالأمس. قال السجان:

ـ يالّا يا نمرة عشرة!

ـ على فين؟

ضحك المخبران، وعوَّج أحدُهما فمه قائلًا:

ـ على السيما يا أفندي!

عصبوا عينيَّ بالغمامة مرة أخرى، واقتادوني إلى الطابق العلوي. كنت أمشي بصعوبة، وبمساعدة أذرعهم القوية. سمعت صوت باب يُفتح، فدخلنا عبره إلى فضاء مجهول لأعمى مثلي. في هذه المرة، أجلسوني على كرسي بلا ظهر وبلا مساند. أزاحوا العصابة عن عينيَّ، فأبصرت رجُلَيْن في ملابس مدنية وراء مكتب، على مسافة ثلاثة أمتار من موضعي. كان أحدهما يبتسم ابتسامة ودودة، بينما كان الآخر منشغلًا بتهيئة جهاز تسجيل كبير بجانبه. تنحنح «المبتسم»، ووجه حديثه إليَّ:

ـ إحنا آسفين يا أخ «حمزة» على اللي حصل معاك إمبارح، واضح إنهم غِلطوا معاك، وكانوا فاكرينك واحد تاني! إحنا عارفين إنك مُخلِص للثورة والرِّيس، هنسألك شوية أسئلة. يا ريت تجاوب عليها.

بلعت رِيقي، وكِدتُ أن أشكو له ما تعرضت له من تعذيب. لكنني فضلت التريُّث والانتظار؛ فمن الصعب أن

أُصدِّقه بسهولة. جاء صوتُه ناعمًا هذه المرة:

- تشرب إيه؟

- قهوة مضبوطة.

جاء فنجان القهوة في غضون دقيقة واحدة، وبجانبه على الصينية كوب من الماء البارِد. مع الرشفة الأولى من الفنجان، أحسستُ بأني أستعيد قواي من جديد. لعل المُحقق أحس بنظرة الامتنان التي صدرت مني؛ فابتسم راضيًا. بعد انتهائي من القهوة، توجه المحقق نحوي، بوجه ظهرت على سيماه كل علامات الاهتمام:

- أيوه يا أستاذ حمزة، إيه علاقتك بحركة «القوميين العرب»؟

- أنا كنت في الحركة، ولكن من حوالي سنتين سِبتها، وانضميت للتنظيم الطليعي ومنظمة الشباب. ده كان اتفاق بين قيادتها والريِّس.

ظهر الاهتمام على وجه المُحقِّق، ونظر إلى زميله الذي يتابع تسجيل أقوالي على «الريكوردر». فاجأني بسؤال مباغت:

- إنت آخر مرة قابلت فيها «مُحسن إبراهيم» كانت إمتى؟

- من سنتين، وبلغني عن حل فرع «الحركة» في مصر.

- بس المعلومات اللي قُدامي، واللي اعترف بيها زمايلك بتقول إن فرع التنظيم في مصر رجع للنشاط تاني تحت

زعامتك من شهور!

- ما حصلش، ما فيش تنظيم رِجع، وإحنا بننشط في منظمة الشباب.

- يا ريت يا أخ حمزة، نتعاون معانا أكتر من كِده!

قال الجملة الأخيرة، وظهرت نبرة التهديد في صوته. وَجمتُ وانتابني خرسٌ مفاجئ. كانت عيناه تنظران إليَّ بحِدة، وكلها انتظار لما سأتفوه به. مرت لحظات كدهرٍ بأكمله. صوت دوران بكرَتي جهاز التسجيل، يزِنُّ كطنين مدوٍ في أُذنيَّ. أوقف مساعدُه جهاز التسجيل، بينما وقف المحقق منهيًا الحِوار بيننا. عادت الغمامة من جديد تغطي بصري. أذرع قوية اقتادتني إلى الخلف، ورفعتني لأتعلق بشيء ما. كشفوا ظهري؛ فأحسست برُعبٍ قاتل. وفجأة بدأت ضربات كرباج تلهِب ظهري. صوت السوط، وهم يطيحون به في الهواء، يميتني قبل أن يلمس جلدي. أدركتُ أنهم يبللون السوط بماء وملح كل عدة ضربات. نيران تحرق جلدي وكأن حمضًا مركزًا يُلهب كل نهايات أعصابي التي تركزت في نطاق ضربات الكرباج. صرخاتي مُدوية. حاولت في البدء أن أكتُمها، لكنني فشلت. ألم فوق كل احتمال لبشر. أنا ما بين إغماءة وصحو. وجدت نفسي أصرُخ:

- أنا في عرض عبد الناصِر.

لم يأبه الجلادون بصرختي، وازدادوا نشاطًا وضربًا.

ارتفع صوتي مجددًا:

ـ خلاص، أنا هقول على كل حاجة... خلاص أنا هعترف!

توقف الضرب فجأة، وخيَّم صَمْتٌ ثقيل على الجميع. أنزلوني من الشيء الذي كنت مُعلقًا به. أزاحوا الغمامة عن عينيَّ، فالتفتُ إلى الخلف. وجدت عروسة من الخشب بذراعين، بهما تجويفان لوضع الذراعين. أدركت أنني كنت مصلوبًا عليها. كنت جالسًا على الكُرسي حين دخل المُحقق ومساعده مرة ثانية. ابتسم في وجهي ببراءة مصطنعة:

ـ خلاص، هتعترف؟ ما كان من الأول يا أستاذ حمزة!

طلب أوراقًا بيضاء وقلمًا. جلست أمامه، ووضعت ورقة أمامي. أمسكتُ بالقلم، بينما كانت الدموع تطفُر من عينيَّ. كتبتُ أسماء زملائي السابقين في حركة القوميين العرب الذين دخلوا منظمة الشباب. كان المحقق ينظر إليَّ ويستحثني على كتابة المزيد من الأسماء. اضطررت إلى أن أكتب اسم بائع الحليب، وبائع الصحف، والمكوجي، وكل من له صِلة بي. كِدت أن أكتب أسماء والِديَّ وشقيقتيَّ. ظل المحقق يستحثني على كتابة المزيد من الأسماء. عندما أدرك أن قواي الجسدية قد خارت. أعطى الأمر للمخبريْن بأن يأخذاني إلى الزنزانة. قبل أن يضعا الغمامة على وجهي، توجه إليَّ بحنو:

ـ النهارده إنت قلت أسماء أعضاء التنظيم، بُكره نكمل التحقيق والاعترافات.

رجعت إلى الزنزانة، فوجدت رغيفين مستديرين من الخبز، وقطعة من جبن أبيض، وقطعة حلاوة طحينية. الغريب أنني وجدت الزنزانة مضاءة! انكببت على الطعام وكأنني لم أذق طعامًا في حياتي. هل هي غريزة البقاء وحُب الحياة؟! طوال الليل، لم أستطع النوم. كانت آثار ضربات السوط كنيرانٍ تحرِق ما تحت جِلدي. نِمت على بطني، وأرحتُ وجهي جانبًا. ومرةً أخرى، قرأت الجملة التي كنت رأيتها في الصباح: «يا رب خدني عندك.. وارحمني من العذاب». لكن هذه المرة استغربتها، بل استنكرتها. قلت لنفسي:

ـ الدُّنيا جميلة رغم كل شيء، والحياة تستحِق أن نعيشها. نعم، الحياة حلوة حتى لو كانت بطعم الحلاوة الطحينية!

قُرب الصباح، رُحت في سبات عميق. رأيت في الحُلم «كريمة» تبتسم لي، وتغني أغنية نجاة الأخيرة..

«أنا بستناك أنا..أنا بستناك أنا.. أنا

أنا بستناك وليلي شمعة سهرانة لليلة حب

وأهلًا أهلًا، أهلًا حلوة

أهلًا، أهلًا، أهلًا حلوة شايلاها عيون بتِحب

وقلبي حرير.. حرير شايل لك مطرحك في القلب».

أومأت كريمة برأسها لي، واتخذ وجهها سمة الجد. أشارت بالسبابة إليَّ قائلة:

ـ الميثاق يقول: «كل الحرية للشعب، ولا حرية لأعداء الشعب»، ولكن من يحدد من هم «أعداء الشعب»؟

اندهشتُ، إنها نفس العبارة التي قالتها في معسكر «حلوان». وهأنذا أصبحت «عدو الشعب»! ابتسمتْ، وغمزتْ بعينِها اليمنى. وواصلت «نجاة» الغناء:

«وأزوق لِيلي وأتزوق لأجمل وَعد

وأدوب لك في شرياني شفايف الورد

وأقولك دوق، دوق، دوق حلاوة القرب بعد البُعد. بعد البُعد

أنا، أنا بستناك.. باستناك أنا».

عندما استيقظت، وجدت سروالي الداخلي قد بلله المَني. تعجبتُ، وأرجعتُ ذلك إلى السُعرات الحرارية العالية للحلاوة الطحينية. عندما أحضر السجان قروانة من خليط، أبلغني بأنه فول مدمس. كانت حشرات السوس تعوم على سطحه، مع زيت يشبه زيت المحركات المحروق. الذي أدهشني قول الحارس:

ـ عَجَبِتك أغنية نجاة إمبارح؟ أنا قُلت أنعنِش العنبر على حِسك.

أدركت أن السجان يُلاعِبني، وبتنسيق مع المحققين

وضباط المباحث.

عند الظهيرة، فوجئت بزيارة من السيد «سامي». تم استدعائي إلى غرفة المأمور. كانت الغرفة خالية إلا مني ومن السيد «سامي». فتحت ذراعيَّ مرحِّبًا به. نظر إليَّ بعينين حمراوينْ مملوءتينْ بالغضب والاحتقار. باغتني برفع كفه بأقصى سرعة وقوة، وصفعني بها على صدغي قائلًا:

- يا خَوَل، يا جبان!

تركني مذهولًا، وانصرف. كنت مصدومًا ومنهارًا في داخلي. لماذا فعل ذلك؟ هل أراد أن يبرئ نفسه، وهو المسئول عن مجموعتنا التي انضمت للتنظيم الطليعي ومنظمة الشباب؟! هل هناك صراع ما بين الديناصورات حول «عبد الناصر»، وقد تم استخدامنا ضِده؟! تذكرت مقولة كنا نستخدمها في اجتماعاتنا: «الأفيال تتصارع، والعُشب يتكسر».

بعد الظهيرة، استدعاء آخر أمام المحققينْ، وإصرار منهما على توريط أسماء جديدة من خارج مصر. أسئلة تفصيلية من المستحيل الإجابة عنها. ببساطة؛ لأن تنظيم «القوميين العرب» لم يعُد موجودًا في مصر منذ عامين! لو لم أجِب، لرجعت أدُور في دائرة التعذيب الجَهنمية. حيرةٌ تخنقني، وأكاذيب تحاصرني. أتخبط في إجاباتي، ومُحقق ثالث بنظارة طبية يظهر. هذا الأخير بدأ يسألني عن الثورة الثقافية في الصين، وأقوال «ماو تسي تونج». فوجئت به

يمسك بأعداد من مجلة «الحرية»، ويناقشني في مقالات كتبها «محمد كِشلِي»، و«صلاح عيسى». اضطررت إلى أن أشرح له أن الظروف في الصين ومصر متشابهة، وأن الفلاحين في كل من البلدين يمثلون الغالبية الكادحة في ظل النمو المتأخر للصناعة. سألني مباشرة:

ـ هل تعرف صلاح عيسى شخصيًّا؟

ـ لا، ما عرفوش.

ـ بس ده بيكتب في مجلة تنظيمك اللي بتصدر في بيروت.

ـ أنا سِبت التنظيم ده من سنتين.

ـ بس إنت قلت إنك لسه فيه!

نَظَرَ إلى المحقق الآخر بحَنَقٍ وغيظ. وأمر على الفور بتعذيبي من جديد. دائرة جهنمية تتكرر مجددًا ما بين تعذيب وتحقيق. أتخبط في أقوالي. أعترف ثم أُنكِر اعترافاتي. تمر الأيام، وأفقد الأمل في خروجي للحياة.

لاحت بارقة أمل، عندما علِمت من السجان أن مجموعة أخرى ـ غيرنا ـ من المعتقلين اليساريين تتأهب لمغادرة سجن القلعة إلى سجن آخر. اعتقدت أن هذا الخبر يعني لنا أيضًا انفراجة ما. كان تفاؤلًا كاذِبًا كسرابٍ يخدع الظامئين. ظللتُ أدورُ في هذه الساقية الجهنمية حتى خرجتُ في منتصف شهر مايو ٦٧، بفضل وساطة من قادة تنظيم

«القوميين العرَب». أدركتُ أن المحيطين بي من عائلتي قد عانوا الكثير في غيابي. عندما التقيتُ «كريمة»، شعرت بأن عواطِفي عاجزة. نفدَتْ قدرتي على العطاء. أنظُر إلى المارين في الشارع، وأدرِك أنهم مُغيبون يعيشون وهمًا. بعد أُسبوع من الإفراج عني، فوجئت بأن كريمة تدعوني للاحتفال بالإفراج.

فاصل

قرية كمشيش - المنوفية، مارس عام ٦٧..

يصر الفيلسوف الفرنسي الشهير «جان بول سارتر» ورفيقته الكاتبة «سيمون دي بوفوار» على زيارة القرية التي قتل فيها الإقطاعيون المحامي الشاب «صلاح حسين». على جانبي الطريق الفرعي الذي يصل إلى القرية، صفان من التلاميذ الصغار. وقف الأطفال في نظام متراصين تحت الشمس الحارقة منذ الصباح الباكر، كل واحد منهم يحمل علمين صغيرين لفرنسا و«الجمهورية العربية المتحدة»، ويلوح بهما. أصوات الكتاكيت الصغيرة تهتف بحماس طفولي:

- فيف «سارتر».. فيف «سيمون»!

مدرسو المدارس الابتدائية يقفون بجانبهم؛ ليذكروهم بالهتاف الفرنسي. كان الأطفال يدرسون في المدارس الحكومية الابتدائية باللغة العربية فقط. المسرح المُعَد لاستقبال الضيوف في دوار عائلة «الفقي». أعداد كبيرة من الكراسي متراصة في صفوف متتالية، وهناك فلاحون في الصفوف الخلفية جاءوا بملابس نظيفة كالتي يلبسونها في الأعياد. تدوي أصوات سيارات الشرطة المميزة؛ لتعلن وصول الضيفين. يدخل كبار ضباط الشرطة، ويتبعهم «سارتر» بقامته القصيرة و«دي بوفوار» والصحفي «لطفي الخولي». مسئولو «المحافظة» و«الاتحاد الاشتراكي» يخطون بحبور وراءهم؛ ليأخذوا أماكنهم في

الصفوف الأمامية أمام المسرح. ما كاد الضيوف يأخذون أماكنهم وراء المنضدة الموضوعة على المنصة، حتى دوّت ضجة وصراخ خارج الدوار. يندفع فجأة من الباب عدد كبير من الفلاحين مغبري الوجوه والثياب. يلتفت الجالسون لما يحدث وراءهم. خلع جنود الشرطة أحزمتهم الجلدية الغليظة، وبدأ الضرب في المقتحمين في هستيريا جماعية تصاحبها أوامر الضباط الزاعقة. انطرد الفلاحون الدخلاء، وتم إغلاق الباب. «سارتر» يبتسم ابتسامة ساخرة محاوِلًا أن يخفيها.

بدأ «الحولي» بكلمة قصيرة بالفرنسية، قام بترجمتها بنفسه إلى العربية، وطلب من «سارتر» أن يتحدث. فضل «سارتر» ألا يُلقِي خطابًا، وأن يجري حوارًا مفتوحًا مع (الفلاحين). بدأت الأسئلة من الفلاحين والفلاحات، يمسك بعض السائلين بورقة في يده ويقرؤها، والبعض الآخر كان يحفظ سؤاله وينطقه بصعوبة بالغة. سألوا «سارتر» عن الديناميكية، والمرجعية، وأنواع الفلسفة الوجودية وما قدمه هو لها من تطوير! وسألت (الفلاحات) «بوفوار» عن روايتها الأخيرة وحبكتها الدرامية وما تطرحه من أفكار.

كانت إجابات «سارتر» و«بوفوار» مقتضبة، لم يستطيعا إخفاء الابتسامة المُرة من على شفاههما. جعلت التمثيلية الساذجة وجه «لطفي الحولي» شاحِبًا مُصفرًا من الخجل. خرج الضيوف القادمون من القاهرة ومن شبين الكوم،

وبقَي الفلاحون يتساءلون فيما بينهم:

- الله، أمال فين المسرحية؟! فين المزيكا؟! فين المشاريب؟!

١٦

انقلب حالي منذ سماعي خبر القبض على «حمزة». أشعُر بأنني ضائعة، عاجزة عن فعل أي شيء. عشرات الأفكار السوداء تُراوِدُني، ومشاعر متضاربة تقذفني إلى دوامة هائلة. قوة هائلة تجذبني إلى أسفل، أكاد أغرق في اكتئاب عميق. لاحظت والدتي اضطرابي، فقالت:

- مالِك يا كريمة؟ متنَّحة ليه؟!

- ما فيش حاجة، تعبانة شوية.

- من إيه؟

صمتُ. لو تحدثتُ إليها، فلن تفهمني. أليست هي وأبي اللذان وقفا في طريق زواجي بحبيبي؟! الشخص الوحيد الذي شجعني بكلمات فقط من ورائهما، كان شقيقي «مُرسي». هل أخبِره بما حدث، أم أنه سيُغيِّر موقفه بعد اعتقال «حمزة»؟! أدركتُ أن لو علِمت عائلتي بأمر الاعتقالات في «منظمة الشباب»، لمنعوني من الذهاب إلى اجتماعات المنظمة. قررتُ أن أحتفظ بِسر القبض على «حمزة».

أصبحت أتردد كثيرًا على مقر المنظمة في شارع «صبري أبو علم»؛ عسى أن أعرف شيئًا عن المعتقلين من منظمة الشباب. لاحظت أن «سهير» تتجنب الحديث معي على انفراد. أليست هي التي خبرتني بالنبأ المشئوم؟ لماذا

تصمُتُ الآن، وتبتعد عني؟! تعمدتُ أن أجلس بجانبها حول طاولة الاجتماعات في الصالة. ألقيت عليها التحية، فردَّت باقتضاب. خيَّم على الاجتماع المللُ الشديد. بنود روتينية، وموضوعات لا طعم لها ولا رائحة. عرَض أمين لجنة القسم الموقف السياسي بكلماتٍ ضخمة، وأكلشيهات محفوظة. كانت تدخُلات أعضاء اللجنة نادرة، وغير مُهمة. سحابة الخوف والرُّعب تَظلّل الجميع. لاحظتُ أن باب إحدى الغرف مُوارَب. ظهرت مِن فتحة الباب ساقا بنطال رمادي. بعد الاجتماع، اقتربت من باب الغرفة، وكأنني أنظُر إلى مجلة حائط علِّقت بجانبه. رأيت رجُلًا يرتدي نظارة شمس، وبيده نوتة يكتُب على صفحاتها بقلم حبر جاف مذهب.

خرجت «سهير» سريعًا فور انتهاء الاجتماع. لم تُكلِّف نفسَها حتى بإلقاء تحية الوداع لي. تركتني ضائعةً، لا أعرف إلى من ألجأ في هذا الوقت. في طريقي إلى بيتنا، تلفَّتُّ ورائي. كنتُ أتأكد من أن لا أحد يتبعني. ورغم أنني وثقتُ من ذلك، قررتُ من باب الاحتياط أن أُغيِّر من طريقي المُعتاد. اخترقتُ ميدان «طلعت حرب»، وبدلًا من أن أنحرِف يمينًا إلى شارع «قصر النيل»، عبرتُ إلى الرصيف الموازي. دخلتُ في شارع «سليمان باشا» الذي اتخذ اسم «طلعت حرب». عبرتُ الشارع؛ لتصبح دار سينما «راديو» على يساري. دلفت إلى الممر الذي يُفضي إلى شباك التذاكر ومدخل السينما. على يمين

المَمرّ محل أسطوانات موسيقية ضخم، وقفت أمام واجهته الزجاجية أتطلع إلى أغلفة الأُسطوانات المعروضة. نظرت إلى مدخل الممر من الشارع، فلم أجد أحدًا يتبعني. أمام السينما جمهرة من المشاهدين، تنتظر دخول حفل «الماتينيه» في السادسة مساءً. لاحظتُ الأفيش الضخم الذي يحتل واجهة السينما. تخصصت هذه الدار في عرض أفلام أجنبية. خرجت مرة أخرى إلى الشارع، وأخذتُ طريقي عبر شارع متعامد على دار السينما؛ لأصِلَ إلى البيت في شارع «قصر النيل».

مر أسبوعان على اعتقاله، وأنا أُتابِع الصُّحُف عسى أن يذكروا خبرًا عن حملات القبض الأخيرة. لا شيء على الإطلاق يُنشر عن الاعتقالات الأخيرة. الصفحة الأخيرة بجريدة الأهرام تنشر صورةً تضم «أم كلثوم» مع «فيروز» في بيت الأولى. زيارة «فيروز» الأولى لمصر تشغل الصُّحف والإذاعة والتلفزيون. أقاموا حفلًا في معهد الموسيقى العربية لها. لم تغنِّ فيه! شارك فيه كلٌّ من «شكوكو»، و«شريفة فاضل»، و«فايدة كامل». أشارت زميلتي في المكتب «هناء» إلى الصُّور المنشورة في الجريدة، وضحكتْ قائلة:

- واضح إن ثومة لم تسمح لها بالغُنا.

هززت رأسي بالموافقة. أحضرتِ الجريدة، ووضعتَها أمامي على المكتب. أشارتْ بإصبع السبابة إلى صورة مُعينة تُظهِر الجمهور في المسرح، وقالت بسُخرية:

ـ مش ملاحظة إنهم مقعدين الستات في ناحية، والرِّجالة في ناحية! يبدو أن «الموسيقى العربية» محافظة قوي!

ضحِكتْ ضحكة عالية طويلة. أزعج ذيل الضحكة الممتد الست «الرِّيسة»، فدخلت إلى غرفتنا مذهولة. نهرَتنا، بينما تقطب جبينها:

ـ إيه قلة الأدب دي!

انكتمتْ «هناء»، وركَّزتُ بصري على الورقة الموضوعة على أسطوانة الآلة الكاتبة. وبدأت أصابعي في الطرق على مفاتيح الأحرُف.

منذ يومين، وخاطرٌ مُقلِقٌ يطارِدُني. لماذا لم يُخبِرني «حمزة» بالتنظيم السِّرِّي الذي ينتمي إليه؟ لماذا أخفى عليَّ سِره؟ هل لم يشعُر بالثِّقة بي؟! تارةً أشعُر بالغضب منه، وأتهِمه بأنه مُخادِع مراوِغ. ومرة أخرى أقول لنفسي: «ربُما خشيَ عليَّ العواقب، وأراد أن يجنِّبني الاعتقال!». أتأرجح ما بين جنة ونار، وأتوه بين احتمالات عديدة. أُراجع تَصرُّفاته وأحاديثه معي، فلا أجِدُ أي إشارة إلى التنظيم المُعادي الذي يتهمونه بالانضمام له. من المؤكد أن اعتقاله خطأ فادح من أجهزة الأمن. «حمزة» مُخلِصٌ لزعيمنا «عبد الناصِر»، ولثورة يولية. هل هي وشاية من زميل له أراد أن يأخذ مركزه القيادي في «المنظمة»، أم أنها اختبار يتعرض له ليعرفوا مقدار إخلاصِه للثورة ومبادئها؟!

أدُور في دوامة لا فكاك منها. يصدِمُني ما قالته «سهير» من أن حملة الاعتقالات قد ضمت أكثر من مائتين من الأشخاص. التُّهمُ مختلفة، والتنظيمات المذكورة متعددة الأسماء. الموضوع ليس مقصورًا عليه. أستنتج، مرةً أخرى، أنها ليست وِشاية خاصة به. أنا حائرة! كيف أتصرف؟ بل كيف أُدافع عنه وعن حُبِّنا؟

تذكرتُ أنه قال لي، ذات مرة، إنه يسكن مع عائلته في شارع «شُبرا». لكنه لم يقل رقم البيت الذي يسكُنه. شارع «شُبرا» طويل جدًّا، والتعرُّف على بيت مجهول لشخص ما فيه، كالعثور على إبرة في كوم من القش! من الصَّعب السؤال في المنظمة عن عنوان منزله في هذه الظروف. قد يتم الظن بي واعتقالي أنا الأُخرى. اهتديت أخيرًا إلى فِكرة، قد تُصيب أو تخيب. رغم أن «حمزة» كان يحدثني تلفونيًّا في عملي من أماكن كثيرة، فإنه لم يذكر أن بمنزل عائلته تلفونًا! والِده مُهندس، ووالدته مُعلِّمة، وهو قيادة بارزة بالمنظمة والتنظيم الطليعي. من المؤكد أن بمنزله تلفونًا قد يستخدمونه لاستدعائه. أمسكتُ بدليل التلفونات الضخم الموجود بالشركة التي أعمل بها. بحثت في الأول عن اسم والده، فلم أجِده. بحثت عن اسم «حمزة»، فكانت المفاجأة. وَجدته، وعثرتُ على العنوان ورقم البيت. كتبتُ العنوان في ورقة أمامي. قررتُ ألا أتصِل بأهله تلفونيًّا؛ فقد يكون الخط مُراقبًا من المباحث. استقرَّ رأيي على أن أذهب إليهم بعد ظهيرة الغد.

في الساعة الثالثة والنصف عصرًا، استقللتُ الترام من ميدان «العتبة». كنت أنظر من خلال الشباك، لأتعجل وصوله إلى «شبرا البلد». عبرنا ميدان «باب الحديد»، ونفق «أحمد حلمي»؛ لنصل إلى شارع «شبرا». الشارع مُزدَحم، ليس غريبًا أنهم يطلقون لقب «الصين الشعبية» على «شبرا». حي «شبرا» هو أكثر أحياء القاهرة من حيث الكثافة السُّكانية. كُنتُ أحملِق في أرقام العمارات التي تحِد الشارع من الجانبين. نزلت في المحطة القريبة من سينما «دوللي». الأرقام الفردية على يمين الشارع، والزوجية على يساره. وصلتُ أمام باب العمارة المقصودة. تحت البيت صيدلية، ومحل مكوجي. سألت الكوَّاء عن شقة «حمزة»، فخرج من دُكانِه، وأشار إلى شرفة في الدور الرابع. صعدتُ على السُّلم، ووضعت إصبعي على جرس الباب. فتحت باب الشقة فتاة شابة، كانت علامات الاندهاش على وجهها. قلت:

- مساء الخير. أنا «كريمة» زميلة «حمزة» في منظمة الشباب، وعاوزة أقابل والده.

أدخلتني إلى غرفة الصالون. كانت الغُرفة مفروشة بأثاث مُذهَّب، بينما كانت مرآة ببرواز خشبي مشغول معلقة على الحائط المقابل لجِلستي. بعد دقائق قليلة، دخل رجلٌ متوسط العُمر، يرتدي «روب دي شامبر» فوق بيجامة سماوية اللون. كان حاجباه مرفوعين إلى أعلى من الاندهاش أو المفاجأة. جلس أمامي، وعلامات

الاستفهام تطِلُّ من عينيه. أخذتُ المُبادرة، وأخبرتُه باسمي. عدَّل من جِلسته، ونظر إليَّ مَليًّا. لاحظتُ شبهًا كبيرًا بينه وبين «حمزة». فتح فمه وقال ببطء:

ـ أيوه يا بنتي، حمزة حكى لي عنك كتير. تعرفي عنه حاجة؟!

ـ لا.. بس بيقولوا إنه في سِجن القلعة.

ـ والله، ما أنا عارِف أتصرَّف إزاي. رُحْت لمُحامي قالي: استنَّ شوية وما تعملش دوشة، يمكن يفرجوا عنه بعد أسابيع!

دخلت شقيقة «حمزة»، وقدمت الشاي في فنجان من الصيني المُزركَش. خرجتْ، وأغلقتِ الباب. الباب من زُجاج مُضلع ومُزركش، تنبهتُ إلى ظِل لامرأة وراءه. قدَّرتُ أنها والدة «حمزة». لماذا لم تَدخُل إلى الغرفة، وتجلس معنا؟! هل تأخذ موقِفًا سلبيًّا مني، أم أنها تخشى من الانهيار أمامي؟

أخذ والد «حمزة» المبادرة في الحديث:

ـ اتفضلي الشاي يا بِنتي.. هُمَّ بيقولوا عن حمزة إيه في المُنظمة عندكم؟

ـ في كلام عن انضمامه لتنظيم اسمه القوميون العرب، بس عُمر ما حمزة قالي على التنظيم ده!

صمتَ الرجُل، وظهرت علامات الإحباط على وجهه.

كان يُشبِّك أصابع يديه، ويحُك كفيه في عصبية واضِحة. سألته:

ـ هُمَّ لما فتِشوا البيت، أخدوا حاجة معاهم؟

ـ أخدوا أعداد مجلة اسمها «الحُرية» كان بيقراها، وأعداد من نشرة التنظيم الطليعي. حمزة بِحب عبد الناصر، وعُمرُه ما عادى الثورة!

أدركتُ حيرة الرجُل، وإحباطه. حاوَلتُ أن أبث الأمل فيه بقُرب الإفراج عن ابنه. كنت أبيع أملًا، لا أملُكه داخلي. استأذنت في المغادرة. مدَّ كفَّه ليُودِّعني. أحسست أن كفه واهنة يائسة. عندما نزلتُ على السُّلم، سمعت صوتًا نسائيًا يلعنُني ويسُبُّ منظمة الشباب.

بعد عدة أيام، فوجئت باستدعاء من الست «الريِّسة» للرد على مكالمة هاتفية. فاجأني صوت «سهير»:

ـ قابليني يا كريمة الساعة تلاته بعد الضهر النهارده!

ـ فين؟

ـ في الإكسلسيور جنب سينما مترو.

طوال الطريق إلى مقهى «الإكسلسيور»، كان ذهني مشغولًا بمكالمة «سهير». ما الذي جعلها تتصل بي بعد أن تجاهلتني في اجتماع المُنظَّمة؟ هل كانت تخشى المُراقَبة، أم أنها راجَعَت موقِفها وقررتِ الاتصال بي؟ كنت في شارع «عدلي» حين رأيت «سهير» تجلس داخل المقهى. توجهت

إليها، فأخذتني في أحضانها. كُنتُ مندهشة من استقبالها الحماسي. قالت في شبه اعتذار:

- ما تزعليش مِني يا كريمة، كنت خايفة ومتلخبطة!

هوَّنتُ عليها الأمر، وصارحتها بأني أيضًا خائفة ومضطربة. لكنني أشعر بواجب، من المُحتم تأديته تجاه «حمزة». أشارت «سهير» إلى أنها قد عرفت من خطيبها، أن «الأبنودي» - الشاعر ومؤلف الأغاني - يسكن مع زوجته الممثلة «عطيات» في ٥ شارع «الدرمللي» المتفرع من شارع «التحرير». أخبرتني بأن هذا العنوان قريب جدًّا من محل عملي، وأن زوجة «الأبنودي» تتحرك مع عدة زوجات للمعتقلين للمطالبة بالإفراج عنهم. عصر اليوم التالي، بعد انتهائي من عملي، ذهبت إلى العنوان الذي دلتني عليه «سهير». كُنت مترددة، لكنني حسمت أمري في اللحظة الأخيرة. صعدتُ إلى الدور الثالث، وضغطت على زر جرس الباب. فتحت سيدة سمراء بقميص نوم. كانت نظرات الفضول، والاستغراب، والرِّيبة تُطِل من عينيها. أفهمتها أنني خطيبة أحد المعتقلين، وأريد التحدث إلى زوجة «الأبنودي» الشاعر. أفسحت لي طريقًا للدخول، وأبلغتني أنها السيدة المقصودة. في الصالة وجدت سيدة أجنبية شقراء، وأخرى مصرية. قدمتهما «عطيات» لي. الأجنبية اسمها «إيفلين»، وهي زوجة مهندس وشاعر اسمه «سيد حجاب». أما المصرية «سُمية»، فهي زوجة موظف بالشئون الاجتماعية اسمه «كمال

عطية». كانت تُطل من نظرات السيدات الثلاث الريبة والشَّك. استفضتُ في شرح علاقتي مع «حمزة»، وأشرت إلى التُّهمة التي دخل بسببها المُعتقل. عندما ذكرتُ اسم تنظيم «القوميين العرَب»، ظهرت علامات التفهُّم من «عطيات». ابتسمت بحزن قائلة:

ـ يعني، حتى ولادهم في منظمة الشباب بيقبضوا عليهم!

لم أُعلِّق على ما قالته. فضلتُ الصمتَ. ذَهَبْتْ إلى المطبخ لتُعِد الشاي. قالت «إيفلين» بعربية ذات لكنة أجنبية:

ـ كُلِّنا يا كريمة في الورطة دي. ده حتى ما بيصرفوش لمرات صلاح عيسى مرتبه، وفصلوه من الشُّغل بتاعه بعد خمس تيام.

أشارت براحة يدها إلى «سُمية»، وأردفت:

ـ حتى «سُمية» ما صرفوش مرتب جوزها!

وضعت «سُمية» وجهها في الأرض، وكادت تجهش بالبكاء. رجعت «عطيات» بصينية عليها أكواب الشاي الأحمر، وصحن به قوالب السُّكر الماكينة. عندما بدأنا في شرب الشاي، قالت:

ـ اسمعي يا كريمة، إحنا زوجات لمعتقلين. وبصفتنا دي، نقدر نسأل عليهم ونكتب شكاوي للمسئولين. إنتِ وضعِك مُختلف، ما تقدريش تسألي عن حبيبك أو خطيبك. ببساطة لإنك ما عندكيش صفة رسمية!

أصابني إحباط قاتم. ظهرتْ على وجهي ملامح يأس لاحظتها زوجات المعتقلين. أرادت «عطيات» أن تُخففَ عني، فحكتْ كيف اعتقلوا زوجها من البيت. ضَحِكتْ، وأشارتْ في سخرية لاذعة إلى كيف أجبروه على أن ينزل على السُّلم بقفص جريد، وضعوا فيه الكُتب التي رأوا فيها دليلًا على إدانته. أدرتُ نظري في الصالة، فوجدتُ رفوفًا موضوعًا عليها كُتب كثيرة. متى تُصبح لي ولحمزة مكتبة في بيتنا تضم كتبًا وروايات ودواوين شِعر؟

وعدتني «عطيات» بإخباري إذا علِمت شيئًا عن معتقلي منظمة الشباب، وعن «حمزة» بالأخص. أعطيتها رقم تلفون عملي؛ حتى تتصل بي إذا علِمت شيئًا، ونزلتُ على السُّلم. عندما خرجتُ من باب البيت، أحسستُ بقدمين تتبعاني. نظرت بطرف عيني إلى الخلف، فوجدت رجلًا بملابس بلدية ينظُر إليَّ مليًّا. قفزت إلى عربة ترام متجهة إلى ميدان «الأزهار»، واختبأت في الزِّحام.

مرَّت أسابيع عديدة، ولم تتصِل بي «عطيات». أذهب بانتظام إلى اجتماعات لجنة قسم «قصر النيل» بالمُنظمة، و«سهير» صامتة لا تُخبِرني بشيء. أحتفظ بسر اعتقال «حمزة»، ولا أخبر عائلتي، ولا أخي به. أتابع صحيفة «الأهرام» التي تُحضِرها «الرِّيسة»، ولا أجد خبرًا واحِدًا عن الاعتقالات. الحياة تسير طبيعية بالنِّسبة إلى الآخرين، بينما أتقلَّبُ على جمرٍ متوهج، وأكتُم آلامي. علَّقت بعض محال وسط البلَد زينات «الكريسماس»، والاحتفال

بقدوم السنة الجديدة. ألبسَت محال «شيكوريل» بشارع «٢٦ يولية» أحد موظفيها زِي «بابا نويل»؛ ليُقدِّم الحلويات والشوكولاتة للأطفال أمام أبوابه. مررت من أمامه، وتمنيت أن يفتح الجُوال المُلون الذي يحمله على كتفه، ويعطيني رسالةً من «حمزة»! تبُث الإذاعة أُغنيات «الأبنودي» وكأنه ليس مُعتقلًا! انتبهت إلى أن زوجته «عطيات» أيضًا تُمثِّل في برامج الإذاعة «يوميات مُدَرِّسة» ضمن «إلى ربات البيوت» لصفية المُهندِس، و«طريق السلامة» بالبرنامج العام. إذا كانوا قد اعتقلوه واعتبروه من «أعداء الشعب»، فلماذا يذيعون أغانيه؟! قالت لي «سهير» ذات مرة:

- دي قرْصة وِدْن.. أما موضوع حمزة وبتوع القوميين العرب فباين إنه جد!

أقبل عام ١٩٦٧، ولم تأتِ أي أخبار عن «حمزة». بعد أُسبوع أو أكثر، ملأت الإعلانات الشوارع ببدء عرض فيلم «معبودة الجماهير». اقترحت زميلتي في العمل «هناء» أن نذهب معًا لرؤية «عبد الحليم» و«شادية» في الفيلم. ألحَّت عليَّ قائلة:

- ده فيلم قعدوا أربع سنين يصوروا فيه!

- ليه؟

- عكُوسات بقى. مرة حليم يعترض على يوسف شعبان الممثل، ومرة ينقبض على مصطفى أمين صاحب القِصة

ويطلع جاسوس، وأكتر من مرة عبد الحليم يعيا ويروح يتعالج في لندن.

هي تُبهِرني دائمًا بمعلوماتها التي تُجمِّعها عن الفنانين والمشاهير. استجبت لإلحاح «هناء»، وذهبت معها إلى سينما «ريفولي». زحام رهيب، وإقبال منقطع النظير. فسرته «هناء» بأن عبد الحليم يعود أخيرًا إلى السينما. عندما أظلمت القاعة وظهرت تيترات الفيلم، لم أجد اسم المؤلف «مصطفى أمين». الفيلم بالألوان الطبيعية. سالت دُموعِي في أثناء غناء «حليم» و«شادية» دويتو أغنية «حاجة غريبة»:

عبد الحليم:

«حاجة غريبة.. حاجة غريبة

الدنيا لها طعم جديد

حاجة غريبة.. حاجة غريبة».

شادية:

«إنتَ عارف ليه؟».

حليم:

«قولي إنتِ ليه!».

شادية:

«علشان إحنا مع بعضينا

ولأول مرة لوحدينا

ولا حدش بيبص علينا

غير فرحة قلبنا وعنينا»

لاحظت «هناء» الدموع التي سالت على وجنتيَّ. همست:

ـ مالِك يا كريمة؟

ـ ولا حاجة، أغنية جميلة.

مسحت بأطراف أناملي دموعي، وتذكرتُ نُزهة القناطر الخيرية مع «حمزة».

في اليوم التالي، فوجئت بمكالمة تلفونية من «عطيات». أخبرتني بأن حمزة وزملاءه من «منظمة الشباب» ما زالوا في سجن «القلعة»، بينما ذهب الأبنودي ورفاقه إلى سِجن «طُرة». قررت ألا أُخبِر والد «حمزة»، فالأمر ليس فيه جديد. بعد شهر، صادفت الأجنبية التي كانت في بيت «عطيات» في شارع «عماد الدين». كانت معها سيدة أخرى، قدمتْها لي باسم «فاتن». أخبرتني «إيفلين» بأن زوجات معتقلي تنظيم «وحدة الشيوعيين» لم يزرن أزواجهن حتى الآن. نظرتْ إليَّ «فاتن» بتمُّعن، وقالت:

ـ إنتِ من أهل بتوع «القوميين العرب»؟

أومأت برأسي، لكنني أسرعت لأقول:

ـ حبيبي، من المعتقلين بتوع منظمة الشباب.

لا أعرف كيف قُلت لفظ «حبيبي» دون خجل أو مُوارَبة. ربُما أجبرَني الشوق الشديد لرؤيته، أو أنني أصبحت على شفا الجنون.

أصرَّت «إيفلين» على أن نصعد إلى بيتها القريب. فهِمتُ أن زوجات معتقلي «وحدة الشيوعيين» ينتظرن وساطة مُهمة من شخص ما، للإفراج عن أزواجهن. توجهت إليَّ فاتن بكامل وجهِها قائلةً بتعاطف شديد:

ـ أنا حاسة بيكِ قوي يا كريمة. إنتِ ما فيش حاجة رسمية بتربطك بحبيبك، لكنك مُتمسِكة بيه. أنا زيِّك مشلولة، مش عارفة أعيش إزاي من غير جوزي!

قدمت إيفلين لنا أكواب «النِّسكافيه»، وسألتنا هل نفضله بالحليب. كانت أول مرة أسمع عن هذا المشروب الساخن. ترددتُ في احتسائه مباشرة. ضَحِكت «إيفلين»، وأحضرت علبة أسطوانية بُنية من الصفيح قائلة:

ـ أهو ده النِّسكافيه يا كريمة، عيلتي بتبعتُه ليَّ من سويسرا بالبوستة!

تجرأت، وأضفتُ قليلًا من الحليب إلى الكوب. كان طعمُه غريبًا غير القهوة التُركي التي اعتدنا عليها. نظرتْ إليَّ «إيفلين» بابتسامة رِضًا. خرجتُ مع «فاتن» من بيت «إيفلين». حكَت «فاتن» عن زوجِها، وعندما ودَّعتني أمام مقهى «الأمريكين» على ناصية شارع «عماد الدِّين» قالت:

- اصمُدي يا كريمة! بُكره نتعدِّل.

أخذت رقم تلفون عملي، ووعدت بالاتصال بي في حالة ظهور أي أخبار عن مُعتقلي منظمة الشباب. مر شهران، وحضر «سارتر» وصديقته «بوفوار» إلى مِصر. وفي مارس، اتصلت بي «فاتن» لتُخبرني بأن زوجها قد أفرِج عنه مع أصدقائه. قالت بأسف شديد:

- ما فيش أخبار عن مجموعة القوميين، ما راحوش سجن طُره. في الغالب لسه موجودين في القلعة.

حبست دُموعي في مكتب «الرئِّسة». عندما وصلت إلى الغُرفة التي أعمل بها، فقدتُ السيطرة على نفسي. سالت دُموعي بغزارة على وجنتيَّ. أسرعت «سهير» والموظفات الأُخريات لنجدتي. أحضرت إحداهن كوبًا من الماء، كي أشرب وأهدأ. نظرتُ إلى صورة «عبد الناصر» المُعلقة على جدار الغُرفة بطرْف عيني. كان يبتّسم ابتسامته الحنونة التقليدية، لكنني وقتَها أحسستُ بأنه شيطانٌ مُخادِع.

فاصل

يونية ٦٧ ـ قاعدة أنشاص الجوية..

أقام قائد الطيران الفريق «صدقي محمود» حفلًا فنيًا ساهرًا للطيارين. ذكرت المطربة «شريفة ماهر» في التحقيقات فيما بعد:

ذهبت للمشاركة ومعي زوجي الطبيب. كانت الغرفة المعدة لاستبدال ملابس الفنانات مقصورة بجانب المسرح، جدرانها من قماش السرادقات. لاحظت أن بعض المتفرجين يزيحون أطراف القماش؛ ليسترقوا النظر إلى جسدي في أثناء تغيير ملابسي. رفضت استخدام ذلك الصوان، فأخذوني إلى غرفة أخرى أكثر أمانًا. فوجئت بأن الغرفة تزدحم بالمناضد، وعليها خرائط مجسمة ونماذج لطائرات مقاتلة. امتلأت جدران الحجرة بخرائط كثيرة. ربما كانت هذه الغُرفة غرفة عمليات سلاح الطيران!

في صباح الاثنين ٥ يونية، كان مانشيت ملحق الرياضة لجريدة «الجمهورية» يبرق باللون الأحمر: (انتصرنا.. انتصرنا..انتصرنا).

كانت المناسبة فوز المنتخب المصري لكرة القدم على منتخب أوغندا بهدف واحد للاشيء. أحرز الهدف اللاعب محمود بكر، بينما ألغى الحكم هدفًا لعلي أبو جريشة في الدقيقة الأخيرة من المباراة بحجة التسلل.

في ٤ يونية نشرت جريدة «جيروزاليم بوست» في «تل أبيب» خبرًا مفاده أن «موشي ديان» وزير الدفاع الجديد ينتظر موافقة «الكنيست» على توليه منصب وزير الدفاع بشكل رسمي غدًا الاثنين، وينوي بعدها إجراء تغييرات في موظفي وزارة الدفاع.

في نفس اليوم نشرت صحف إسرائيل صورًا لجنود وضباط إسرائيليين يسترخون على مقاعد المقاهي، ويستجمون على شواطئ البحر!

١٧

طوال الأسبوعين الماضيين، كُنتُ مشغولًا باجتماعات متواصِلة. الإدارات الأمريكية التي نتعامل مع «مِصر» تبحث وتدرُس السيناريوهات المُحتملة لتطور الأمور في القاهرة. شركة «ماكنزي للاستشارات المالية» أيضًا تبحث، وتطرح احتمالات متعددة على زبونها «هيئة المعونة الأمريكية». غرقتُ مع خبراء آخرين في تقييم ومتابعة الموقف القَلِق، وغير المستقِر. أضاءت مظاهرات «مِصر» الضوء الأحمر في ردهات البيت الأبيض. تغير الموقف من تأييد مبارك ليلة ٢٨ يناير إلى البحث عن بديلٍ له، ولِنظامه. مستر «واطسن» يزورني في مكتبي باستمرار، ويدخل في مناقشات حول الأوضاع هُناك. أصبحتُ مقتنعًا أكثر من أي وقت مضى، بأن «واطسُن» لا يعمل فقط في شركة «ماكِنزي»، بل أيضًا في إحدى إدارات المخابرات الأمريكية.

تلقيتُ دعوةً من أحد مستودعات التفكير في نيويورك،، للبحث في مستقبل الأوضاع السياسية والاقتصادية في «مِصر». ذهبتُ، فوجدت مائدة مستديرة كبيرة يجلس حولها عددٌ كبير من الخُبراء، والمستشارين، وبعض رجال الكونجرس. دُهشت عندما وجدتُ «واطسن» بينهم، والأكثر مفاجأةً لي كان وجود بعض من المنتسبين لجماعة «الإخوان المسلمين» المُقيمين في «الولايات المُتحدة». بدأ عضو من الكونجرس الاجتماع، كان واضحًا أنه من

لجنة العلاقات الخارجية، وله علاقة بتقرير المساعدات الأمريكية إلى «مِصر». تحدث قائلًا:

ـ نجتمع اليوم في اجتماع تشاوري بشأن الأحداث المُقلِقة التي تجري في مِصر. هناك اضطرابٌ عظيم وعدم استقرار واضح، وهُناك فراغ مُرتقب سيحدث إن آجلًا أو عاجلًا. أريد أن نستمع معًا إلى السيناريوهات المحتملة للمستقبل، وإلى إمكانات ملء الفراغ الذي سيحدُث برحيل مُبارك.

نظرتُ حولي، فوجدتُ كثيرين يُقَلِّبون في أوراقٍ أمامهم. أومأ «ديفيد واطسن» برأسه تجاهي محييًا. أجبته بابتسامة عريضة. كانت المداخلات، وتقديرات الموقف، والتوقعات المُستقبلية تتواصل بدون انقطاع، بينما كُنتُ أفكِّرُ في مداخلتي. وضعتُ رءوس أقلام على ورقة بيضاء أمامي، كانت تلك مهارة اكتسبتها من أيام «مُنظمة الشباب». أن تتحدث بطريقة تبدو عفويةً وتلقائية، من عدة عناصر لا تتعدى سطورًا. كل عُنصر يؤدي منطقيًّا إلى ما بعده، وكل فِكرة تُولِّد فكرة أخرى مرتبطة بها. انقطع تفكيري بسماعي صوتًا يتحدث بلغة إنجليزية مكسَّرة. التفتُ، فوجدت شخصًا ذا لحية مهذبة، يرتدي بذلة إفرنجية برباط عُنق أزرق. فهمت على الفور أنه قد يكون من الحزب الديمقراطي. كان مِصريًا مهاجِرًا. قال الرجل:

ـ «مِصر» الآن في حالة عدم استقرار عظيم. لم يعُد

مُمكنًا استمرار نظام الحُكم القديم. يجب أن يملأ البديل الفراغ الذي سينجم عن سقوط مُبارك. البديل الشعبي جاهز ومُنظم وقادر على ملء الفراغ. جماعة «الإخوان المسلمين» بتنظيمها المتشعب وعضويتها تستطيع أن تملأ الفراغ، على أن يدعمها الجيش. مصالح الولايات المتحدة تتوافق مع مصالح الجماعة. ليست تلك أول مرة تتلاقى فيها المصالح بيننا وبين الإدارة الأمريكية. تذكروا دورنا معكم في أفغانستان نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات. تذكروا التناغم بين الإدارة الأمريكية وبين الجماعة في السنوات الأخيرة في مصر. الإخوان المسلمون سيتصدرون المشهد في المستقبل القريب بمساندة من الجيش. لا بديل عن ذلك.

لمعَت عينَا رئيس الجلسة، وذكر اسمي قائلًا:

ـ نريد أن نستمع إلى رأي مصري آخر. مستر «همزا» كلُّنا آذان صاغية لك.

نظرتُ إلى الورقة التي أمامي، وسمِعتُ صوتي يرتفع بوضوح:

ـ الحقيقة أننا أمام ثورة شعبية حقيقية في مصر. ثورة قامت بها فئات الشعب المختلفة وفي طليعتها الشباب. ثورة لم تقُم من فراغ، وإنما لها مُسببات عديدة. أهمها البطالة، وفساد نظام الحُكم الذي شاخ، والتفاوت الطبقي الرهيب في المُجتمع. أمامنا مجتمع شاب، أغلبيته العظمى من الشباب الذين يجدون الأبواب مغلقةً أمامهم، وفي نفس

الوقت يرون ويتصلون بالعالم عبر وسائل الاتصال الحديثة وعبر الإنترنت، ليجدوا شبابًا في عمرهم يديرون بلادهم ويشاركون في تقرير مصيرها. إنه التناقض الرهيب بين استبداد وواقع بشع وبين مُحيط عالمي يتحرك نحو المزيد من العدالة والإنصاف.

انتبهت على هزات رءوس تشي بالموافقة، ونظرات متفهمة مدركة لما أقول، واصلت حديثي منتشيًا:

ـ إذن ما هي التوقعات والاحتمالات؟ أولًا: إن أي سيناريو للمستقبل يجب أن يرضي شريحة الشباب الذين امتلأت بهم الميادين. ثانيًا: من الواضح أن أي قوة سياسية حالية لن تستطيع وحدها الإمساك بالأمور. ثالثًا: يظل الجيش القوة المنظمة والأكثر انضباطًا في مِصر. قوة ظلت تحكم البلد ستين عامًا منفرِدة وسط اندثار القوى السياسية الأخرى. رابعًا: الحالة الاقتصادية تتدهور في مصر باطراد، وهي في حاجة عاجلة للإنقاذ. خامسًا: منذ أيام قامت ثورة شعبية في اليمن، وستقوم هبات شعبية أُخرى في المنطقة، في سوريا وليبيا والعراق وغيرها من الأنظمة الدكتاتورية. المنطقة كُلها تفور بغليان، وتنتقل فيها عدوى التمرُّد والثورة. والسؤال: هل استعددنا لذلك؟! قد تفيد المُساعدة في قلب أنظمة الحكم المستبدة والفاسدة، ولكن هل نحن جاهزون بالبديل، أم أن الفوضي هي البديل المدمِّر؟ سادِسًا وأخيرًا: إذا تمكنت الفوضى من مِصر، فلن تكون أبدًا خلاقة. لسبب واضح، وهو أن عدد سُكانِها فاق

مائة المليون. ستكون بؤرة إعصار مُدمِّر يجر المنطقة إلى المجهول.

انتهيت من مُداخلتي، دون أن أُعطي السامعين ما يؤكد انتهائي منها. خُدعة خطابية تعلمتُها من «منظمة الشباب». تجذب الانتباه، وتُعطي المتلقين فُرصة للتمعُّن فيما قُلته. حام على الحضور الصمت لبُرهة. نظرت حولي، فوجدت عُيونًا متيقظة تُفكِّر. رفع «واطسُن» إصبع إبهامه الأيمن، مُشجِّعًا. نظرتُ إلى المتحدِّث الإخواني الذي تحدث قبلي، فوجدته يدفن رأسه في ورقته، وينظُر بغيظ إليَّ من حين إلى آخر.

عندما رجعت إلى غُرفة مكتبي بشركة «ماكِنزي»، وضَعتْ أمامي سكرتيرتي «آن» صحف اليوم. تنبهت إلى تاريخ اليوم: الخميس ١٠ فبراير ٢٠١١. ألقيت نظرة على الصفحات الأولى، فاسترعت انتباهي الصُّور الآتية من مصر للثورة هناك. وضعتُ ذراعيَّ بين رأسي ومسند كُرسي المكتب الذي أجلس عليه، وأغمضت عينيَّ. دارَت بي الدُّنيا، وظهرت قاهرة الستينيات أمامي. سيارات الأتوبيسات المتهالكة، وزِحام الرُّكاب، ومنظمو المرور في ميادينها من طلاب وطالبات المدارس الثانوية بزي «الفُتُوة». حُلمي المجهض الساذج بالعدل والمساواة، وأفكاري الثورية الزاعقة. بيت أهلي بحي «شبرا»، ووجه «كريمة» أول حُب لي. صورة «عبد الناصر» رافعًا ذراعه يحيي الملايين، وبجانبه المشير «عبد الحكيم عامر». أحلام

جيلي بتغيير العالم، والانتصار على الرأسمالية. قطع استرسالي صوت «آن»:

- مستر همزا، هل أنت بخير؟ هل أنت مُرهق؟

- لا، كُنتُ فقط أُفكِّر.. فقط أُفكِّر.

- مستر واطسن يريد مُقابلتك.

- فليتفضل!

دخل «واطسن» مرِحًا، يُصفِّر لحنًا ما سمعته من قبل في فيلم أمريكي. مد يده مُصافحًا لي. جلس، ووجَّه الحديث لي مبتسمًا:

- عزيزي همزا، لم أكن أعرِف أنك مُحدِّث ماهر ولبِق قبل اليوم. لقد بلعت كل الحاضرين يا رجُل!

- أنت تُبالِـغ يا ديفيد. زمالتك لي في العمل جعلتك مُتحيِّزًا ومُجامِلًا.

- لا، مُطلقًا. بعد انتهاء الاجتماع، سألني عنك كثيرون. عضو الكونجرس اهتم بك جدًّا، وأعتقد بأنه سيعرِض عليك أن تكون ضمن فريق مستشاريه.

- لا تستعجل الأمور، أنت متفائل أكثر من اللازِم.

عِندما وصلتُ إلى منزلي، كان التلفزيون يعرِض خطابًا لمبارك بثته القناة المصرية الرسمية منذ قليل. كان واضِحًا أنه لم يفهم بعد ما حدث خلال السبعة عشر يومًا الماضية.

طلبتُ رقم تلفون منزلنا القديم في شبرا. ردَّت عليَّ شقيقتي الصُغرى. كانت اتصالاتي الهاتفية قد انقطعت مع شقيقتيَّ وعائلتيهما منذ سنوات طويلة. عندما تيقنت شقيقتي من صوتي، صرَخت غير مُصدِّقة:

- يعني كان لازم تقوم ثورة عشان تِكَلِّمنا يا حمزة!

- أبدًا، أخباركم إيه، وإزي جوزك والعيال؟

- كويسين، ودايما بيسألوا عنك.

- خلوا بالكم من نفسكم!

لم أستطِع الحديث أكثر معها. مِصر تمثل لي جُرحًا ما زال ينزف داخِلي. التعذيب الذي نلته في عام ٦٦، وزلزال الهزيمة في ٦٧، واعتقالي مرة أخرى في بداية عام ١٩٦٨ حتى مايو ١٩٦٩ قد أنهوا علاقتي مع وطني. تأكدتُ أن الاستبداد والدكتاتورية يُفضيان إلى ضياع الأوطان. تم الإفراج عني بعد وساطة من زعامة «القوميين العرب». الحُلم الذي تحول إلى كابوس في عام ٦٦، انقضى بلا رجعة. عندما خرجت من المعتقل في منتصف مايو ١٩٦٧، كان البلد كُلُّه يتأهب للحرب. مِن سذاجتي، صدَّقتُ جِدية استعداداتنا الحربية. عربات اللوري التي تنقل قوات الاحتياط بالجلاليب والعِصي. تصريحات الزعيم العنترية التي تُطرِب السامعين لا أكثر ولا أقل. جيش لم ينل الفرصة ليُحارِب؛ لأن قادته انشغلوا بدوري كرة القدم. ثلاثة أسابيع فقط كانت كافية

بعد خروجي من المُعتقل لأبدأ الشك في أنه من الممكن أن أواصل الحياة في مصر بعد كل ما عانيته ورأيته. بالطبع لا. حُب مُجهض داسته الفروق الطبقية في مجتمع يدَّعِي الاشتراكية. تنظيم قوى الشعب العامل تحوَّل إلى مرتع للانتهازيين والباشوات الجُدد.

جاء لقائي مع «كريمة» بارِدًا. حاولتُ أن أضفي عليه حميمية، لكنني فشلت. كان «نهر النيل» يجري بجانبنا، ونحن نجلس في كازينو «قصر النيل». كُنت أُفكِّر في مستقبلي الذي ضاع. فصلوني من «منظمة الشباب»، وقدمت على عمل محاسب في إحدى شركات القطاع العام. انكسرت نظرات والدي، وأصبحت أُمي تلعن اليوم الذي دخلت فيه العمل السياسي. زُملاء الأمس في المنظمة ينكرونني، ويبتعدون عني. عينَا كريمة تتأملان وجهي مليًّا، وأنا أنظر إلى صفحة النيل بجانبنا. ماذا أقول لها؟! هل أُخبِرها كيف أهانوني وعذَّبوني؟ هل أبوح لها بما يفور في قلبي وعقلي من خيبة أمل وشعور بالخديعة؟ لا أعرف، هل الخلل الفادح في نفس نظام الحُكم ومعاوني «عبد الناصر»، أم في شخص «الرَّيِّس» نفسه!

أمسكت بكفها، فاكتشفت برودة كفي. شعور غريب يغزوني. أصبحت عاجزًا حتى عن الحُب. جاءت دعوتها للقاء معتقلي «وحدة الشيوعيين» في بيت عبد المُعطي كطوق نجاة لينقذني من دوامة تساؤلاتي. منيتُ نفسي بمقابلة «صلاح عيسى» الذي كتب مقالات في «الحُرية»

لتقيم ثورة يولية. لكنه للأسف لم يحضر هذا اللقاء. أحسست بغربتي وسط المحتفلين بالإفراج. غبطتهم على تفاؤلهم وقدرتهم على تجاوز ما حدث لهم. هل لأنهم صمدوا حتى النهاية، أم لأنني انكسرت واستسلمت؟ لقد تعرضتُ لأضعاف ما عانوه من تعذيب، ومكثت في حبس انفرادي لشهور عديدة. كان انتقامًا فظيعًا من الزعيم الأب تجاه أحد أبنائه المخلصين. وعدتُ «كريمة» بأن أكرر محاولة طلب يدها عندما أستلم عملي الجديد. وعدتُها، لكنني غير موقن بتحقيق وَعدِي. أنا مضطربٌ جدًّا، وأحتاج إلى فترة تأهيل نفسي وسياسي!

أتذكر ذلك اليوم جيدًا، يوم الأحد ٤ يونية. موعدي مع «كريمة» في الثانية والنصف ظهراً بكازينو «مصر والسودان» بشارع «رمسيس» ناحية «العباسية». جلسنا في ظل شجرة وارفة. الجو حار، وعدد الزبائن قليل جدًّا. في الشارع تسير بعض مظاهرات صغيرة من الصِّبية تستعجل الحرب والنصر على الصهاينة. نظرت عبر السور الحديدي إليهم وقُلت:

ـ الناس مستعجلة على الحرب، عاوزين يقطعوا راس الحية إسرائيل!

ـ وتعتقد يا حمزة، إن إسرائيل هتقع في الخيَّة؟

ـ الحرب هتحصل هتحصل، خصوصًا بعد إغلاق خليج العقبة.

أنظُر إلى وجه «كريمة»، فأجِده مستثارًا من الانفعال. الأحداث تجري بسرعة الصاروخ، وإسرائيل أعلنت دخول وزراء جدد إلى وزارة «أشكول». لم تفاتحني بضرورة مقابلة والدها مرة أخرى، فاسترحت لذلك. لا وقت للحُب الآن، الكُل يتحدث عن الحرب! عندما خرجنا من الكازينو ذهبنا إلى ميدان «العباسية»، حيث محطتا «الترولي باص» والترام الرئيسيتان. جلست كريمة في «ترولي باص» رقم ٣٣، بينما أخذت مكاني في عربة الترام الذاهب إلى «شبرا». ميدان «العباسية» مكتظ بجنود الجيش بملابسهم ذات اللون الكاكي. تختلف البيريهات فوق رءوسهم حسب نوع السلاح الذي يخدمون فيه. الميدان مُحاط بمنشآت عسكرية، ومعسكرات من مختلف الاتجاهات. يمتلئ بمحال تُفصِّل وتبيع الأزياء العسكرية للجنود والضباط. المواطنون يشجعون العساكر بمناداتهم بلقب «وَحش». الكُل مستبشر بالانتصار. مُكبرات الصوت في محال عصير القصب، تذيع أغنية عبد الحليم حافظ الجديدة مرارًا. أغنية لا تتعدى مدتها دقيقتين، لكنها مليئة بالحماس والسُّرعة. أضاف لحن «كمال الطويل» لكلمات «الأبنودي» أجواء معارك ودماء:

«اضرب اضرب اضرب اضرب

لاجل الصغار لاجل الكبار لاجل النهار

لاجل البلاد لاجل العباد لاجل الولاد

لاجل البنات والأمهات لاجل النبات

لاجل الربيع لاجل الجميع

لاجل الورود بدر الوجود

لاجل السلام والابتسام

اضرب كمان واسرق أمل لاجل الحياة

ولاجل عشاق الحياة ولاجل صناع الحياة

اضرب اضرب اضرب اضرب اضرب».

ركاب الترام ينتفضون حماسًا، وتكاد تلحظ أنهم يكورون قبضاتهم من فرط الحماس. كلما تذكرت هذا المشهد بعد الهزيمة، شعرت بالخديعة والتهريج اللذيْن غرقنا فيهما. ظننا أننا سنحرر فلسطين بالأغاني، والرقصات، والهتافات!

لست نادِما على هِجرتي من وطن أنكَرني، وحطم آمالي وأحلامي. الآن أنظر إلى مظاهرات أبناء جِلدتي في القنوات الفضائية، وأتوجس من القادِم. ما أراه على شاشات التلفاز، يُذكِّرني بثورة ١٩. لكن من الصعب التنبؤ بالمستقبل. هل سيترُك السُّلطة من اعتاد على بغددتها وامتيازاتها بعد ستين عامًا؟! هل سيسلمونها ويجلسون على قارعة الطريق، يتلقون أوامر «الرِّعاع»؟ أشُك كثيرًا.

ذهبت حكايتي مع «كريمة» في طي النسيان. كانت تجربة فاشلة واكبت مشروعًا مُحبطا. حُلم ليلة صيف، جاء

الشتاء بأمطاره فمحاه. كابوس الدكتاتورية أطاح به؛ فأصبح البلد في ذيل العالم. هذه قناعاتي بعد هذا العُمر الطويل. لا أمل ولا تقدُّم سوى بتغيير طريقة التفكير. سيظلون هناك يفكرون، ويسيرون في الطريق المعاكس لحركة الحضارة الإنسانية. قد يعتقد البعض بأنني مخطئ، ولكنني موقن بصوابي. لي ديني، ولهم دينهم!

فاصل

على أذنيه سماعتان، وأمامه جهاز اللاسلكي. كانت لمبات الجهاز تضوي، بينما تنبعث زقزقات إشارات منه. أمسك بالميكروفون، وصرخ:

عِنب..عِنب.. عِنب.

في البدء لم يرد أحد على الجانب الآخر. فكرر صرخته:

عِنب..عِنب..عِنب

ثم جاء صوت بعيد:

عُلِم، حوِّل.

كان الضابط المصري الكبير قد تأكد من إقلاع الطائرات من مطارات إسرائيل ناحية الغرب، عبر نظارته المكبِّرة ومن إبلاغه برصد رادار قاعدة «عجلون» الأردنية لأسراب الجراد.

في القاهرة، وقبلها بيوم، كانت الشفرة قد تغيرت، وكان ضابط الشفرة غائبا. وعندما تم فك الشفرة، كان الوقت متأخرًا. ضاعت فرصة إنقاذ الطائرات والمطارات من الدمار، وتاهت رسالة الإبلاغ عن الهجوم الإسرائيلي قبل وقوعه بربع ساعة.

رُبع ساعة كانت كافية لتخفيف آثار الهزيمة.

لكنها لم تكن قادرة على الإنقاذ من هزيمة محتمة،

الإفلات منها يحتاج إلى سنوات طوال من جهد وحرية وفهم.

طار الجراد وحام، ترك الأرض يبابًا جرداء. ورجع إلى قواعده سالمًا.

١٨

اليوم هو الثلاثاء ٨ فبراير عام ٢٠١١. قررتُ أن أتجول على قدميَّ في ميدان التحرير. أصبح واضِحًا أن النِّظام يلفِظ أنفاسه الأخيرة. لم تعُد الرسائل التي أبعث بها إلى الجريدة مُتحفِّظة. عادت منذ أيام الاتصالات التلفونية بالخارِج ومعها شبكة المعلومات الدولية. انتظمت مراسلاتي مع الجريدة في «الكويت». الموقف الرسمي للدولة التي يقع فيها مقر الجريدة التي أراسلها، متحفظ للغاية. بل يصل إلى تأييد مُبارك بشكل شخصي. أعداد الجريدة التي تصلني، تتذكر موقفه إبان حرب «تحرير الكويت»، وتثني عليه. مرَّ عليَّ «الصِّيرفي»، واصطحبني إلى الميدان. ارتديت نظارة شمس؛ حتى لا يعرِفني كثيرون. فرض المتظاهرون طوقًا على الميدان، وما حوله من شوارع. المتاريس متعددة، وحولها رجال وفتيات. شعرتُ بأن «الإخوان» بتنظيمهم الحديدي قد أحكموا قبضتهم على الميدان. صحيحٌ أن الاتجاهات السياسية الأخرى متواجدة، ومُتجمعة في أركانه، إلا أن عينيَّ لا تخطئان أبدًا.

خيام المعتصمين تحتل الجزر الخضراء داخل الميدان الضخم. بدأ البعض في إنشاء دورات مياه، وأنظمة صرف صحي في قلب الميدان. خمس أو ست منصات خشبية تتوزع في أرجاء الميدان، هناك منصة ما بين شارع «البستان»، وشارع «قصر النيل» يحتلُّها السلفيون. علِمت أن السلفيين ظهروا في الميدان منذ يومين فقط. تُميِّزهم

لحاهم الشعثاء الكثيفة التي قد تصل إلى صدورهم، وجلابيبهم القصيرة التي تقف في منتصف الساق. يذيعون آيات مُرتّلة من القرآن الكريم، وبين فينة وأخرى يصعد واحد منهم على المنصة ويلقي خُطبة عصماء ضد المنصات الأُخرى التي تذيع الأغاني والموسيقى المُحرمة في شرعهم. هناك منصة أخرى أمام محل كنتاكي المغلق على ناصية شارع طلعت حرب، تُذيع الأغاني الوطنية. أغنية شادية «يا حبيبتي يا مصر» ترُج الميدان رجًّا، ويرقص عليها المتظاهرون مبتهجين. رأيتُ منجنيقًا ضخمًا في أول شارع «قصر النيل» من ناحية ميدان «التحرير». شاهدتُ تجارب لاستخدامه، فأدركت أنه يُصيب المعتصمين قبل المهاجمين للميدان!

فاجأني «الصِّيرفي» صائحًا:

- كريمة أهي.. كريمة أهي!

نظرتُ إلى الاتجاه الذي يشير إليه، فلم أجد سوى جمهرة من الناس. لم أتبينها، ثم تذكرتُ أنني لم أرها منذ خمسة وأربعين عاما، وأنني قابلتها في حياتي مرتين فقط. أدركتُ أن «الصِّيرفي» فقد عقله وسط هذه الأجواء المجنونة. جرَّني «الصِّيرفي» من ذراعي ناحية مدخل شارع «طلعت حرب». كانت جماعات من المتظاهرين تقف أمام متجر «عمر أفندي»، وحلقات نقاش حامٍ تحلق بجوار متجر «الشركة العربية للتصنيع الحربي» المُغلق. وقف «الصِّيرفي» أمام سيدة سمراء تعدى عمرها الستين، وقال:

- إزيك يا «كريمة». عبد المُعطي أهو!

ابتسمت «كريمة» ابتسامة عريضة، ومدت يدها بالسلام:

- إزيك يا أستاذ عبد المُعطي.. أخبار فاتن إيه؟

أحسستُ بالحرج، وأجبت ببرود:

- أنا وفاتن سِبْنا بعض من زمان قوي.

- يا خسارة. كنتم لايقين على بعض قوي!

- نصيب بقى.

شعَرتُ بعفوية السيدة التي أمامي، واندفاعِها المُتسرّع. لاحظ «الصِّيرفي» الحرَج الذي أصابني، فبادر «كريمة» قائلًا:

- الدنيا بتتغير يا سِت كريمة، ومش هتفضل واقفة زي ما هيَّ. أُمال حفيدك فين؟

- بيتمشى في الميدان، وزمانه هييجي على هنا.

أبصرتُ مسيرات متعددة تطوف بأرجاء الميدان. مُدرعات ودَبابات الجيش تَسُد الشوارع المحيطة، بينما رقد المتظاهرون على جنازيرها ليستظلوا من أشعة الشمس. رأيت بعض الصحفيين والكُتاب يتجولون في مرح من حولي. اقترب أحدهم مني محيياً. ظهرت على وجهه علامات الاستغراب، وهمس:

- ما كنتش أتوقع أبدًا إني أشوفك هنا!

- ليه؟ ناقص رجل ولا إيد!

- كنت فاكرك متعاطف مع مُبارك.

أشحتُ بوجهي عنه، فانصرف. لاحظت «كريمة» الحديث الذي دار بيننا، فضيَّقتْ ما بين عينيها، وسألتني:

- هو إنت حقيقي متعاطف مع مُبارك؟

- أبدًا، أنا ما بحبوش. بس ما كنتش من المُعارضة النشِطة له. أنا مدير مكتب جريدة خليجية في مصر.

للمرة الثانية، يُنقِذُني «الصِّيرفي» من أسئلة «كريمة» الفُضُولية. يُشير إلى شاب يتقدم نحونا، ويقول لها:

- أحمد حفيدك جاي أهو.

أنظُر إلى الشاب الأسمر القادم نحونا، فأكتشف الشبه الكبير بينه وبين جدتِه. من وراء ذلك الشاب، ظهرت فتاة ترتدي بنطالَ جينز أزرق، وبلوفرًا أبيض. عندما اقتربت الفتاة، صدمتني المفاجأة. إنها «ماجدة» حفيدتي من «فاتن»! كنت قد أنجبت من «فاتن» ابنة بعد خروجي من المعتقل عام ١٩٦٦. تقدم حفيد «كريمة» منَّا، وقال لجدته:

- سِتي، أقدِّم لِك «ماجدة»، زميلتي في نفس السنة في الكُلية.. أنا لقيتها في الميدان بتتظاهر زيِّنا.

ظهرت المفاجأة على وجه «ماجدة»، ففتحت فمها في استغراب. قالت لي:

- ما كُنتش مُتوقِّعة ألاقيك هنا يا جِدو!

كأنه مشهد في فيلم ميلودراما رخيص، مليء بمفاجآت غير معقولة. خمسة أشخاص من أجيال مختلفة يتقابلون في مكان واحد، وفي وقت واحد! لكني سريعًا، ما فهمتُ أن مصر كلها تقابل بعضها في الميدان! ظل «الصِّيرفي» أسيرَ حالة الذهول التي غرق فيها، فلم يفتح الله عليه بكلمة يقولها. بدلًا منه، أخذت «كريمة» حفيدتي في أحضانها قائلة:

- تعالي يا بنت بِنت «فاتن» الغالية، إنتِ فعلًا شَبَهَا قوي.

كانت حفيدتي في حالة انعدام وزن، وظهرت عليها علامات عدم الفهم. كان حفيد «كريمة» أيضًا مذهولًا، لا يدري ما يحدُث أمامه. التمعت عينا «الصِّيرفي» بألقٍ غريب، وسألني باندهاش:

- حفيدتك دي يا عبد المُعطي؟!

- أيوه.

- صحيح مِسِير الحي يتلاقى!

استأذنتُ في الذهاب على الفور. وتركت حفيد «كريمة» وحفيدتي يسألان السيدة السمراء عن العلاقة التي تجمعني بها، وعن أزمة عام ٦٦. عندما وصلتُ البيت، كانت

زوجتي «حنان» متسمرة كالصَّنم أمام شاشة التلفزيون، تشاهده بكل حواسها. تكاد أن تدخل داخله برأسِها من الاهتمام والفضول. قررتُ ألا أُخبِرها بلقاء اليوم العجيب. زواجي بـ«فاتن» يُمَثِّل لها شبحًا مخيفًا من الماضي. حفيدتي «ماجدة» وابنتي لم تدخُلا بيتنا قط. كنت ألقى ابنتي وحفيدتي دائمًا خارج المنزل، أو في مقر عملي.

انتبهتُ إلى برنامج تعرضه القناة الأولى للتلفزيون المصري، تستضيف فيه مذيعة مشهورة بعض الشباب الذين يقودون الثورة من الميدان. أدركتُ أن نماذج الشباب التي استضافتها شخصيات مهزوزة، لا تستطيع التعبير عما تريده. كان في البرنامج أيضًا أحد الرُّتب العسكرية الكبيرة، وكان واضِحًا أنه يستميلهم بإرضاء غرورهم. ذهبت وحدي إلى غرفة النوم، وأدرت المذياع على إذاعة «لندن» العربية. غرقت في استماع التقارير التي يبعث بها مراسلوها من «القاهرة» وعواصِم العالم. هاجمني النوم بعد أن نالني إرهاق اليوم كله.

رأيت في منامي نفسي في سن الشباب. شقة سكنية بسيطة تضُمني مع «فاتن». صُراخ طفلة حديثة الولادة يملأ المنزل ضجيجًا. تُرهقني المشاوير إلى عيادة الطبيب والصيدليات للبحث عن عُلب لبن الأطفال الناقصة في السوق. أصرَّت «فاتن» على أن يكون لنا طِفلٌ بعد خروجي من المعتقل. جاءت ابنتنا في عام ٦٨، وأصبحت «فاتن» أكثر شراسة في تعاملها معي. وكما يقول أولاد

البلد: «أُربطي الراجل بالخِلفة»، بدأت زوجتي السابقة تتدخل في حياتي بشكل لا يُطاق. تُريدُني أن أتخلى عن صداقاتي، وأن أجلس بجانبها بالبيت. أقرأ وأكتب الكُتب والدراسات، وأرعى معها طِفلتنا. سنواتي الأخيرة معها، كانت جحيمًا لا يُطاق. بعد أن بلغت الطِّفلة ست سنوات، تعرفتُ على «حنان» وتزوجتها. عرَضتُ على فاتن أن تظل زوجتي؛ لأرعى معها الطِّفلة. لكنها رفضت وأصرّتَ على الطلاق. صرخت في وجهي:

ـ أنا ما تجوزش نُص راجل!

مساء الخميس ١٠ فبراير، أعلنوا عن خطاب مُرتقب لمُبارك هذا المساء. أُقرر أن أخرُج من المكتب إلى الميدان مباشرة. أخبرت «حنان» تلفونيًا بأنني سأسهر في الميدان اليوم. قالت لي:

ـ مِش أحسن تقعد براحتك بالبيجامة، وتتفرج عليه في التلفزيون؟

أخبرتُها بأنني أريد رؤية انفعالات وردود أفعال المتظاهرين على الطبيعة، والتي لن ينقلها التلفزيون.

عندما وصلتُ بالقرب من ميدان التحرير، رأيت حشودًا تتجه إلى الميدان. الشوارع المحيطة بالميدان يجوب فيها مراسلو قنوات التلفزيون العالمية، وفي أيديهم ميكروفونات محمولة، وكاميرات تلفزيونية. استوقفني أحدهم، فاعتذرت عن الحديث. من الواضح أنه يعرف شخصيتي، لكنني

رفضت قائلًا:

- من المُبكِّر تخمين ما سيقوله الرئيس مُبارك.

تملأ البهجة والتفاؤل أجواء الشارع، وجوه الناس مستبشِرة بانتصار سيحدُث. ألَم يقل البيان الأخير للجيش إنه يحمي المتظاهرين في الميدان؟ تأخر خطاب «مبارك» كالعادة، وبدأت التخمينات في الانتشار بين المتظاهرين. يقول بعضهم إن الجيش يضغط عليه ليتنحى، وهو يرفض. ويهمس آخرون في ثِقة بأنه سيُعلِن استقالته، خاصةً أنه قد عين منذ أيام «عمر سليمان» رئيس المخابرات نائبًا له. وجدت مكانًا بصعوبة بين حشود المتظاهرين. أكاد لا أستطيع رفع ذراعي، طوفان من البشر يتدفق من الشوارع كافة المؤدية للميدان.

أخيرًا يظهر مُبارك على شاشة عملاقة نُصِبت أمام كافتيريا «زِد»، لتُغطي المحال التي بجوار «هاردين» و«كنتاكي» من ناحية شارع «محمد محمود». أتذكر مقهى «أسترا» الكبير الذي اندثر، وأخلى مكانه لسلسلة مطاعم الوجبات السريعة. ظهر الرَّجل بشعره المصبوغ، ووجهه الشمعي الذي يحاول إخفاء انفعالاته خلفه. بدأ خِطابه قائلًا:

«أقول لكم قبل كل شيء، إن دماء شهدائكم وجرحاكم لن تضيع هدرًا، وأؤكد أنني لن أتهاون في معاقبة المتسببين بها بكل شدة وحسم، وسأحاسِب الذين أجرموا في حق

شبابنا بأقصى ما تقرره أحكام القانون من عقوبات رادعة».

انتبهت إلى همهمات كثيرة بجانبي: «هو لسه عنده أمل يكمل؟»، «ده واضح إنه ما بيفهمش». استطعت أن أتبين صوته من جديد بعد هدوء التعليقات الساخِرة: «**لقد أعلنت بعبارات لا تحتمل الجدل أو التأويل عدم ترشحي للانتخابات الرئاسية المقبلة، مكتفيًا بما قدمته من عطاء للوطن لأكثر من ٦٠ عامًا في سنوات الحرب والسلام**».

زامت الحشود في الميدان في غضب جارِف، فأدركت فعلًا أن الرئيس يتمتع بجِلد فيل ضخم، لا يشعر بما حدث. كُنتُ قد علمت من أصدقاء أن قائدي الطائرات القاذفة بعيدة المدى من طراز «أليوشن» لهم ردود فعل بطيئة. يطيرون بدون مناورات؛ حتى يصلوا إلى الهدف فيقذفوا عليه حمولتهم الثقيلة، ويرجعوا في حماية الطائرات المقاتلة.

واصل مُبارك حديثه، فذكر أن الحوار الوطني الذي تم مع القوى السياسية والشباب قد توصل إلى تشكيل لجنة دستورية لإدخال تعديلات في الدستور، ولجنة أخرى للمتابعة تتولى متابعة التنفيذ الأمين لما تعهد به أمام الشعب. قبل نهاية خطابه، ذكر أنه رأى تفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية على النحو الذي يحدده الدستور. هذه الجملة أحدثت جلبة وصراخًا هستيريًا في الميدان. وجدتُ كل من حولي قد خلعوا أحذيتهم، ورفعوها فوق رءوسهم ملوحين بها للشاشة.

بعض المحتشدين، بلغت بهم الحماسة أن قذفوا بأحذيتهم نحو الشاشة العملاقة! انتابتني موجة من الضحك على المشهد الذي أمامي. تذكرتُ كيف كان المصريون ـ أيام العثمانيين ـ ينزلون الوالي أو شيخ البلد من قلعة الجبل، ويركبونه حمارًا بالمقلوب، ثم يزفونه ويضربونه بالبُلَغ!

رجعت إلى «الزمالك» على قدميَّ. كُنت أسمع تعبيرات خيبة الأمل من أفواه المتظاهرين السائرين على كوبري «قصر النيل». استقبلتني «حنان» بحديث طويل عن «مُبارك» وعقله الراجح، وعن تنحيه بعد ستة أشهر حتى لا يحدث فراغ دستوري. قررتُ مُسايرتها، وهززتُ رأسي بالموافقة على ما تقول. كنتُ في نفس الوقت أُفكر، هل كانت حفيدتي «ماجدة»، و«كريمة» وحفيدها، و«الصيرفي» ضمن الحشود التي ملأت الميدان وما حوله؟ كنت متأكِّدا من وجودهم، مثل جزمي أيضًا بأن «فاتن» كانت في بيتها تشاهد التلفزيون، قلِقةً على حفيدتها.

قُمت من الفراش مُتعبًا صباح يوم الجمعة. ما زالت «حنان» نائمة. ذهبتُ إلى المطبخ، وأعددت قهوتِي. جلستُ أمام جهاز التلفزيون، وبدأت أُقلِّب في القنوات الفضائية. فجأة دق جرس تلفون المنزل، فرفعت السماعة. جاء صوتٌ أُنثوي غير غريب على أُذني. لأول وهلة، لم أعرف صاحبة الصوت.

ـ ألو.. إنت هتفضل نايم؟ انزل شوف بنتك وحفيدتك ما رجعوش البيت من إمبارح ليه!

تأكدتُ أنه صوت «فاتن» الغاضبة. طمأنتها بأن الأمور هادئة في الميدان. وعندما سألتها عن السبب الذي يجعلها لا تتصل بهما على المحمول، صمتت، وطال صمتُها. أدركتُ أنها تبحث عن شخص تقاسمه لحظة حرِجة في تاريخ البلد. عندما سألتها عن زوج ابنتي، أجابت بأنه الآخر يسأل عنها من السعودية حيث يعمل. طمأنتها قائلًا:

ـ أنا كنت في الميدان إمبارح بالليل، وكل شيء تمام. ما فيش داعي للقلق.

سمعتها في حالة من الغضب تقول:

ـ طول عُمرك مش عاوز تتحمل المسئولية!

سمعت صوتًا متقطعًا من السماعة، فعرفت أنها قطعت المحادثة من جانب واحد. منذ أعوام طويلة لم أسمع صوت «فاتن». أحسست باضطراب داخلي، وأدركت أن الخوف دفعها إلى الاتصال، إن لم تكُن قد اشتاقت إلى سماع صَوتي في تلك اللحظة.

تناولت إفطاري على عجل، ونزلت قبيل قرآن صلاة الجمعة من البيت متوجهًا إلى المكتب. جاءتني مكالمة دولية من رئيس تحرير الجريدة. سألني عن رُدود الفعل على خطاب الرئيس أمس. فصارحته بأنه لم يُقنِـع أحدًا، وأن تردده في ثلاثة خطابات في أثناء الأزمة، قد أغرى الثائرين وأظهر ضعفه الشديد. سمعته يقول:

ـ خَسارة.. الراجل هذا ستخسرون من بعده!

لم أُجِبه، واحتفظت بتعليقي لنفسي. انشغلت ببعض الأوراق، وبكتابة بعض الأخبار والتقارير. فجأة ظهر أمامي «الصّيرفي» بابتسامته وصلعته اللامعة. جلس وبدأ في الحديث:

ـ أُطلب لي قهوة يا عبد المُعطي، عاوز أتكلم معاك في حاجة مُهمة.

بعد أن أنهى شُرب فنجانه، قطب ما بين حاجبيه. كانت الجِدية قد غلفت نُطقه للكلمات:

ـ اسمع، أنا بحب «كريمة» وعاوز أتجوزها. إمبارح صارحتها بشعوري نحوها. أنا من زمان من أيام ٦٦ مُعجب بيها قوي. لما شُفتها في مظاهرة ٢٨ يناير، قلبي اتشعلق بيها تاني، وأكتر من الأول!

شلتني المفاجأة، وتعجبت من قُدرة «الصّيرفي» العاطفية في هذا العُمر المتقدم. كان ينظُر إلى وجهي بتركيز شديد وكأنني «كريمة» التي ستَرُد على طلبه! كِدتُ أن أضحك، لكني تمالكت نفسي وابتسمت:

ـ يعني بعد ما شاب ودوه الكُتاب! وكريمة ردت عليك بإيه يا فالنتينو؟

ـ قالتلي ربنا يسهل!

ـ يعني؟!

- لما الثورة تنجح، نتجوز.

- هيَّ قالت لك كده؟! طب وحفيدها؟

- بقى صاحبي، وبيقولي يا عمو.

- يبقى فين المُشكِلة يا فصيح؟

- إن الثورة تنجح، ومُبارك يغور. قول يا رب!

قهقهتُ من أعماقي. عرضتُ عليه أن أجعل الساعي يُعِد شربات المانجو لهذا الحدث السعيد. طلب مني أن أؤجله؛ حتى يسقُط النظام. خرجنا معًا من المكتب وذهبنا إلى الميدان. حشود الناس تملأ الميدان وما يجاوره من ميادين وشوارع. ضاع «الصّيرفي» مني وسط الزحام. هرَبتُ من الزِّحام إلى مقهى بمنطقة «البورصة». تجرأ أصحاب المقاهي؛ ففتحوا أبوابها ووضعوا الطاولات والمقاعد في الشوارع. انطلقت بعد صلاة الجمعة مسيرة كبيرة من الميدان تجاه بيت «مبارك» و«قصر الاتحادية». الكُل يترقب، ويُخمن ما ستسفر عنه التحركات الأخيرة للمتظاهرين. ينتظِرون موقف الجيش، هل سيحسم أمره وينحاز كُليًّا للشعب؟

كنتُ أجلس على المقهى حين قطع التلفزيون المصري إرساله. ظهر النائب «عُمر سليمان» ليُعلِن عن تخلي مبارك عن الحُكم، وكأنها قنبلة ذرية انفجرت في شبابيك البيوت المحيطة، وشوارع قلب القاهرة. أسرعت جريًا إلى ميدان «التحرير»؛ لأُسجل تلك اللحظة التاريخية، وأبعث بها

إلى الجريدة. في دقائق تحولت منطقة وسط «القاهرة» إلى يوم الحشر. ملايين تزحف على ميدان «التحرير»، وميادين كل مدن «مِصر». ألعاب نارية، وصواريخ تُفرقع فوق الرءوس. وجوه غريبة تظهر في الميدان. معتصمون ومتظاهرون صبروا ثمانية عشر يوما، وبجانبهم نشالون ولصوص وأناس عاديون خرجوا من بيوتهم بعد أن اطمأنوا برحيل مُبارك. أن تجِد موضِعًا لقدمِك وسط زحام يوم القيامة؛ يعني أنك حققت معجزة لا يقدر عليها إلا الأنبياء. قررت الذهاب بسرعة إلى المكتب. احتجت إلى نصف ساعة لأخرج من زِحام الميدان الذي امتلأ بملايين البشر. ملايين من شجعان صمدوا في الميدان، ومن جبناء أيضًا ظهروا في الوقت المناسب ليجنوا مكاسب لمعركة لم يشاركوا فيها.

عندما وصلت إلى المكتب على «كورنيش الدقي»، لم أجد أحدًا من العاملين به. أخذتُ قلمًا وأوراقًا، وكتبت كمحموم ما شاهدته وسمعته. رن التلفون المحمول أمامي، فوجدت اسم «حنان» يومض بشدة. جاء صوتُها:

- إنت فين يا عبد المُعطي؟

- في المكتب.

- طب ما تتأخرش، الدنيا مقلوبة وربنا يستر.

أنهيت المكالمة مُسرِعًا. وبدلًا من استئنافي الكتابة، بدأت أتذكر أحداث عام ١٩٦٦. ظهرت أمامي وجوه أصدقائي

الذين اعتقلوا معي، ووجوه الجلادين في سجن القلعة، ووجه «فاتن». أدركتُ أن الانتصار الذي رأيته اليوم، سيدَّعِي كثيرون أنهم آباؤه. وأنه في اللحظة التي أجلس فيها وأطِل من النافذة على النيل، هناك من يُخطِط ويتآمر ويحتشِد في مكان ما.

فاصل

١ مايو ١٩٦٧..

صرح رئيس وزراء إسرائيل «ليفي أشكول» بأن بلاده ستُردّ بوسائل عنيفة على مصادر الإرهاب في حال استمرار العمليات الانتحارية عبر الحدود السورية.

١٠ مايو ١٩٦٧..

صرح رئيس الأركان الإسرائيلي بأن الجيش الإسرائيلي سيزحف إلى دمشق، إذا لم يتوقف نشاط «المخربين الفلسطينيين» في الجليل.

السبت ١٣ مايو ١٩٦٧..

وصلت معلومات غير مؤكدة إلى حكومتيْ مصر وسوريا، بأن إسرائيل حركت ما بين ١١ و١٣ لواء عسكريًّا إلى الحدود السورية.

١٤ مايو ١٩٦٧..

أقام الجيش الإسرائيلي عرضًا عسكريًّا في القدس بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة لإقامة دولة إسرائيل، وذلك خِلافًا للمواثيق الدَّولية التي تعتبر القُدس منطقة منزوعة السِّلاح.

بعث عبد الناصر برئيس الأركان المصري اللواء محمد فوزي إلى دمشق ليتفاوض مع المسئولين العسكريين

السوريين؛ ليتولى القيادة المشتركة للقوات المصرية والسورية في حالة الحرب.

١٥ مايو ١٩٦٧..

انعقاد مجلس حرب على مستوى عالٍ في القاهرة في القيادة العامة للقوات المسلحة، والحكومة المصرية تعلن عن نقل حشود عسكرية وآليات تجاه شرق القناة.

يُعلن العراق استعداده لمساندة سوريا إذا تعرضت لهجوم إسرائيلي، ورئيس الأركان الإسرائيلي يُعلن حالة الاستنفار العام في الوحدات والقوات النظامية.

١٦ مايو ١٩٦٧..

إعلان حالة الطوارئ في مصر، واللواء «فوزي» يُبلغ الجنرال «ريكي» قائد القوات الدولية في سيناء وغزة، بأنه أصدر تعليماته إلى جميع القوات المسلحة لتكون مستعدة للعمل ضد إسرائيل فور قيامها بأي عمل عدائي ضد أي دولة عربية، ويطلب سحب القوات الدولية من نقاط المراقبة.

١٧ مايو ١٩٦٧..

مصر تطلب من الأمم المتحدة سحب القوات الدولية؛ وذلك لكونها تتواجد فقط على الأراضي المصرية دون الإسرائيلية.

١٨ مايو ١٩٦٧..

القوات المصرية تجبر قوات الأمم المتحدة على الانسحاب من مراكزها في الكونتيلا وثلاثة مراكز أخرى في سيناء. إسرائيل ترفض تمركز تلك القوات على الجانب الإسرائيلي من الحدود.

وزير الخارجية السوري يصل إلى القاهرة، ويدعو إلى «الجهاد» ضد إسرائيل.

١٩ مايو ١٩٦٧..

انسحاب قوات الأمم المتحدة من «راس نصراني» في مضيق «تيران»، ووصول قوات المظليين المصريين إلى «شرم الشيخ» لحمايتها. ما زالت بعض من قوات الأمم المتحدة في شرم الشيخ.

٢٠ مايو ١٩٦٧..

انتهى الجزء الأول من التعبئة العسكرية العامة في إسرائيل. يقوم المشير عامر بجولة تفقدية على المراكز السابقة للأمم المتحدة. أصبحت خمس فرق من الجيش الإسرائيلي في صحراء النقب.

٢١ مايو ١٩٦٧..

إعلان عبد الناصر حالة التعبئة العامة، واستدعاء قوات الاحتياط.

٢٢ مايو ١٩٦٧..

بدأ الحديث في القاهرة عن إغلاق مضيق «تيران»

أمام السفن الإسرائيلية، و«ليفي أشكول» رئيس وزراء إسرائيل يقترح في الكنيست أن تنسحب القوات الإسرائيلية من الحدود مع سيناء في مقابل أن تقوم القوات المصرية بانسحاب مماثل.

٢٣ مايو ١٩٦٧..

عبد الناصر يعلن إغلاق مضيق «تيران» أمام السفن التي تحمل العلم الإسرائيلي، والسُّفن الأخرى التي تحمل موادّ إستراتيجية لإسرائيل. الجيش الإسرائيلي يزرع الألغام ويقيم الأسلاك الشائكة على الجانب الإسرائيلي من الحدود مع الأردن. «جونسون» رئيس الولايات المتحدة يُصرّح بأن «خليج العقبة» ممر دولي، وأن إغلاقه يُعد حصارًا غير قانوني وعملًا خطيرًا يهدد السلام.

٢٤ مايو ١٩٦٧..

«عبد الناصر» يستقبل «يوثانت» السكرتير العام للأمم المتحدة.

«عبد الناصر» يُطالب بالعودة إلى الوضع القائم عام ١٩٤٨، وأن تنسحب إسرائيل من «إيلات»، وأن تعترف بخليج العقبة كمياه مصرية، وأن تتمركز القوات الدولية على الأراضي الإسرائيلية أيضًا. وعد «عبد الناصر» «يوثانت» بأنه لن يقوم بالضربة الأولى.

٢٥ مايو ١٩٦٧..

يصل «أبا إيبان» إلى واشنطن ليطالبها بالتحرك. «جونسون» لا يقابله، لكنه يرسل إلى «عبد الناصر» رسالة يطلب منه الاعتدال وضبط النفس. «شمس الدين بدران» وزير الدفاع المصري يطير إلى موسكو لطلب سلاح وعتاد حربي. يوقف «الملك حسين» حملات راديو عمان على «عبد الناصر»، ويؤيد إغلاق المضايق.

٢٦ مايو ١٩٦٧..

«كوسيجن» يطلب من «أشكول» ضبط النفس، ويكلف السفير السوفيتي بإيقاظ «عبد الناصر» من نومه وإبلاغه رسالة من «موسكو» يضبط النفس وعدم بدء الحرب.

٢٧ مايو ١٩٦٧..

مجلس الوزراء الإسرائيلي يعقد اجتماعًا طارئًا لبحث مسألة البدء بالحرب. عند التصويت في المجلس، جاءت النتيجة تسعة أصوات مع شن الحرب، وتسعة أصوات أيضا ضد القرار. ورغم أن «أشكول» كان مع الحرب، فإنه رفض بحكم رئاسته للوزارة ترجيح كفة مؤيدي الحرب.

إشاعات عن إصدار «عامر» قرارًا بمهاجمة الطائرات المصرية للقوات الإسرائيلية، وأن القرار ألغاه «عبد الناصر». في الغالب، أثيرت تلك المسألة في أثناء الخلاف بين «عامر» و«عبد الناصر» بعد الهزيمة.

٢٨ مايو ١٩٦٧..

اجتماع آخر لمجلس الوزراء الإسرائيلي لا يصل إلى نتيجة. لكن القيادات العسكرية الإسرائيلية تضغط في اتجاه الحرب.

«شمس الدين بدران» يعود من موسكو بعد أن أبلغه السوفييت أن مصر لا يمكنها الاعتماد على تدخل سوفيتي عسكرى مباشر في حالة الحرب.

٢٩ مايو ١٩٦٧..

مجلس الأمة يُفوِّض «عبد الناصِر» بالسُّلطات كافة، والرئيس يقبل التفويض. «عبد الناصر» يُعلن بهذه المناسبة أن العدوان القادم ليس إسرائيليًّا فقط، بل بريطاني وأمريكي أيضًا.

«جيش التحرير الفلسطيني» في غزة يتبادل نيران المدفعية مع مستعمرة «نحال عوز» على الحدود. تحالفات ما بين الأحزاب الإسرائيلية المختلفة، ومباحثات لتشكيل وزارة جديدة.

٣٠ مايو ١٩٦٧..

زيارة مفاجئة للملك حسين - ملك الأردن - إلى مصر، وتوقيعه على اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر وسوريا. الاتفاق على مجلس دفاعى مشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن، وقيادة مشتركة بإمرة اللواء «عبد المنعم

رياض». بدأت الحكومة الإسرائيلية في توزيع كمامات الغاز بالتعاون مع ألمانيا الغربية على مواطنيها.

٣١ مايو ١٩٦٧..

تتزايد الضغوط على أشكول لتعيين «موشي ديان» وزيرًا للدفاع. في نهاية اليوم وصل أشكول إلى قناعة بقيام حكومة اتحاد وطني، ووجوب إقناع كتلتيْ «جاحال» و«رافي» بالانضمام للوزارة.

١ يونية ١٩٦٧..

تأليف «وزارة حرب» في إسرائيل، و«ديان» يتولى وزارة الدفاع. «مناحم بيجين» يصبح وزيرا للدولة ومعه «جوزيف سافير». حدوث تعديلات في قيادة الجيش الإسرائيلي: تعيين «حاييم بارليف» نائبا لرئيس الأركان، و«بن زور» يصبح مساعدًا لديان.

٢ يونية ١٩٦٧..

تحددت بصفة نهائية خطة العمليات الإسرائيلية في سيناء، عبر اختراقها من أربعة محاور: اثنيْن يتوازيان في منطقة رفح بغزة، والآخريْن في وسط سيناء.

٣ يونية ١٩٦٧..

وفد عراقي يزور مصر، ويوقع على معاهدة الدفاع المصرية - الأردنية. «الملك حسين» يعلن في مؤتمر صحفي توقعه لنشوب الحرب خلال يومين. إسرائيل تعطي

إجازات علنية لجنود الاحتياط، وتنشر صحفها صورهم وهم يستجمون على الشواطئ. ١٥ وزيرًا إسرائيليًّا يصوتون بشن حرب فورية ضد مصر، بينما امتنع وزيران عن التصويت. ثم عاد الوزيران وصوّتا مع القرار.

٤ يونية ١٩٦٧..

وصلت عمان وحدتان من الصاعقة المصرية بطريق الجو. وافقت الوزارة الإسرائيلية على خطة الحرب، واختار «ديان» صباح ٥ يونية لبدئها. تقررت زيارة «زكريا محيي الدين» نائب الرئيس المصري إلى واشنطن في ٦ يونية للقاء الرئيس جونسون. الحكومة المصرية توافق على مرور حاملة الطائرات الأمريكية «إنتر بريد» في قناة السويس.

١٩

ذهبتُ إلى ميدان «التحرير» مِرارًا في أثناء الثورة. رغم برودة الجو في ليالي يناير وفبراير، اصطحبت حفيدي عدة مرات إلى هناك. أصبح «الصّيرفي» يحدثني يوميًّا على رقم تلفوني المحمول. لاحظتُ أن كيمياء غريبة تنشأ بينه وبين حفيدي «أحمد». حفيدي فُضولي، يسأل دائمًا «الصّيرفي» عن الظروف التي تعرف فيها عليَّ في عام ١٩٦٧. وجد «الصّيرفي» العجوز في «أحمد» آذانًا صاغية لحكاياته ومغامراته. مكوثنا في الميدان ساعات طويلة، أتاح الفُرصة لحفيدي أن يعرف أشياء كثيرة عني. وَبّختُ «الصّيرفي» المُخرّف، عندما اكتشفتُ أنه حكى عن قصة الحُب التي جمعتني مع «حمزة». الغريب أن الحكاية لم تُثِر حفيظة حفيدي، ولم تجعله غيورًا على ذِكرى جده. لاحظتُ أن «أحمد» يُحاول أن يُحفزني على رواية ذكرياتي، وذكريات «منظمة الشباب». ينتهزُ وجودي معه وحدينا، فيبدأ في أسئلته التي لا تنتهي. أنهرُه، فيُلح بإصرار غريب:

- والنبي، يا سِتي قوليلي عن قِصتك مع حمزة.

أتملصُ منه، فيزدادُ إلحاحًا. «أحمد» طِفل بريء، يُذكرني بسذاجتي في الستينيات. الحقيقة، أنني ما زلت أحتفظ ببعض سذاجةٍ وبراءةٍ حتى الآن. ما الذي يجعلني أخرُج إلى الشوارع متظاهرة؟ هل هو ثأر قديم مع أنظمة قمعية فاسِدة، أم حنينٌ إلى ماضٍ آفِلٍ قد ذَهَب؟ يتمتع

«الصّيرفي» بنشاطٍ وحماسٍ شديدَيْن لا يتناسبان مع عمره المُتقدِّم. قضى عمراً مديداً لم يتزوج فيه ولو مرةً واحِدة! حصيرة الميدان واسعة، والزمن ممتد لساعات طويلة بفضل الاعتصام. سألتُ ذات مرة «الصّيرفي» عن السِر في عدم تجربته الزواج. ضَحِكَ وقال:

ـ يا «كريمة» قضيت سنين طويلة في بلاد النفط، ألِمّ فلوس عشان أجهز أربع إخوات بنات يتامى للجواز. فات العُمر، ولقيت قطر الجواز فاتني!

كبُر في عينيَّ «الصّيرفي»، وأدركتُ أصالتَه وتضحياته. ابتسمتُ وقُلت له:

ـ تضحياتك ما رحتش هدر، أكيد ولاد إخواتك بيحبوك زي ما تكون والدهم.

ـ الخال والد يا كريمة! عاوز أقولك حاجة.

ـ خير؟!

ـ إنتِ من زمان عاجباني من قبل يونية ٦٧. إنتِ دلوقتِ مش مرتبطة، وأنا لوحدي. ليه ما نونسش بعض ونتجوز؟

فوجئت بعرض «الصّيرفي». «بعد ما شاب، ودُّوه الكُتاب!»، كاد الضَّحِك يخنُقني، فلم أتمالك أنفاسي. كانت عينَا «الصيرفي» تراقبان شفتيَّ، وتنتظران ما سأقوله. نظرتُ إليه بسُخرية، وأردفتُ:

ـ إنت إتجننت؟!

- أيوه، أنا مجنون بيكِ!

- يا صِيرفي، إحنا في جو ثورة على الظُّلم، ومش من حقّنا نفكر في نفسِنا.

- الثورة مؤكد هتنتصِر، فيا ريت توافقي. حفيدك صاحبي، وبيعِزني.

- لما الثورة تنتصر، أبقى أفكر.

قُلتُها؛ لأتخلص من إلحاحِه. لكنه ابتسم، وصاح بصوتٍ عالٍ:

- وعد الحُر دينٌ عليه!

التفتتْ رءوس الناس الذين حولْنا إلينا بِشدة. كُنا نجلِس قبالة مبنى مجمع التحرير، بينما تسلق بعض المتظاهرين عواميد النور المرتفعة في الميدان، وبدءوا في التلويح بعلم مِصر. نظرتُ بطرف عيني إلى وجه «الصّيرفي». كان ينظر تجاه المنصة المنصوبة أمام محل «هارديز»، ولا يراني. شعَرتُ بطِيبته المتناهية، وقدرتُ تضحياته من أجل عائلته.

تذكَرتُ وجه «حمزة» بعد خروجه من المعتقل في منتصف مايو ٦٧. بدا مُرهقًا، وتحت عينيه هالتان من السواد. أصابعه ترتعش حين تُمسِك بكفي. نظراته زائغة، تدور حولَنا لتبحث عن مخبرين قد اقتفوا أثرَنا. سألتُه ونحن جالسان بكازينو على «النيل»:

- حمزة، مالك؟ إنت حاسِس بتعب؟

- لا، ما فيش تعب ولا حاجة.

- إيه حكاية تنظيم القوميين العرب اللي بيقولوا إنك فيه؟

- دي حكاية قديمة قبل ما أُخُش منظمة الشباب. هُمَّ كانوا عارفين، واتفقوا معانا نخُش المنظمة ونحِل فرع مصر.

- بس إنت ما قولتليش على الموضوع ده قبل كِده!

- ما جتش فُرصة، وكان مُنتهِي من سنتين.

حاولتُ أن أعرف منه ما حدث لهُم في معتقل «القلعة». صمَتَ لدقيقةٍ، رأيت رُعبًا يُخيِّم على مقلتيه. ابتسم ابتسامة ساخرة، ثم قال:

- ما حصلش حاجة. شوية تحقيقات بالنهار والليل.

- تحقيقات تُقعد تسع شهور!

- يوم الحكومة بِسَنَة يا كريمة!

شعَرتُ بأنه يُخبئ عني ما حدَثَ معه، ومع رِفاقه. لماذا يُصِرُّ على أن يَصمُت؟ هل أصبح يشُك فيَّ؟ هذا ليس «حمزة» الذي أعرِفه، إنه شخص آخر فاقد للثقة في نفسِه. شعَرتُ أنه رغم لقائنا معًا، يعيش وحده داخل فقاعة معزولة عن العالم حوْلنا. يُحاوِل أن يُشعِرني بأنه بجانبي، لكنه لا يُشبه الشخص الذي أحببته. لم يعُدْ إلى صفوف «منظمة الشباب»، والحقيقة أنهم في «المنظمة» لم يدعوه للرجوع إليها. أخبرني بأنه عاد إلى عمله الأصلي كمحاسِب

في شركة من شركات القطاع العام. أنا الأُخرى فقدتُ اهتمامي بمنظمة الشباب، وانقطعتُ عن الذهاب إلى لجنة القِسم. اتصلَت بي «سهير» لتُخبِرني بأنهم في لجنة القِسم يسألون عني، أجبتها بأنني فقدتُ اهتمامي. طلبتُ منها أن تُقدِّم اعتذاري عن الحُضور لظُروف صِحِية.

أصاب مِصر الجنون في الأيام الأخيرة من شهر مايو ٦٦. إعلان حالة الطوارئ مرة أخرى بعد أن رُفِعت في نهاية عام ١٩٦٥. عندما تحدثت مع «حمزة» عن هذا الإعلان، ابتسم ابتسامة مريرة بزاوية فِمِه:

ـ والله يا كريمة إنتِ عبيطة. اعتقلوني ٨ شهور بدون حالة طوارئ. إحنا في حالة طوارئ وأحكام عُرفية على طول!

«التلفزيون العربي» يعرِضُ لقطات لعبور المُجَنَدِين إلى «سيناء»». عربات لوري، وعليها المُستَدعَوْن إلى الخدمة العسكرية. تبدو «مِصر» في حالة استعجال وهرولة لمقابلة مصيرها. جنود لم يُسعِفهم الوقت ليرتدوا الأفرولات العسكرية؛ فذهبوا إلى جبهة القِتال بالجلابيب والبيجامات! يرفعون أصابعهم بعلامات النصر، ويبتسِمون لملاقاة الموت. يلتقي الرئيس بأبنائه الطيارين في إحدى القواعد الجوية، ويتحدث معهم. صورة الرئيس وحوله ابتسامات نسور الجو، تتصدر الصفحات الأولى من الجرائد. بدأت تظهر لافتات قماشية بعرض الشوارع تؤيد «عبد الناصر»، وتُهدِّد إسرائيل. لفتت نظَري كتابات على الجُدران بصيغة

موَحدة: «غدا الجمعة، نُصَلي في تل أبيب». الشعبُ يَستعجِل الحرب، ويُريد التخلص من الصُّداع الذي تُسبِّبه إسرائيل للمنطقة.

استغربت دعوة «فاتن» لِلقاء بعض من خرجوا من السِّجن في بيت الأستاذ «عبد المُعطي». كان «حمزة» الوحيد من معتقلي «منظمة الشباب» الذي دعوه! الباقي كُلهم من تنظيم «وحدة الشيوعيين». الغريب أن «حمزة» تحمس لهذا اللقاء. عندما سألته، قال:

- عاوز أقابل واحد منهم.

- مين؟!

- صلاح عيسى اللي كان بيراسل مجلة الحُرية.

- وعبد المُعطي اللي إنت قابلته في مؤتمر المبعوثين؟

- ما فيش مانع، بس صلاح أكتر واحد عاوز أقابله.

عندما وصلنا إلى بيت الأستاذ «عبد المُعطي»، وجدنا شلة من أصدقائه المعتقلين السابقين. لكننا لم نجد «صلاح عيسى». سألتُ «فاتن»:

- هو صلاح عيسى مش جاي؟

- لأ، أصله اعتذر.

رحب «عبد المُعطي» بنا، وخاصة «حمزة». تذكره «حمزة»، وطفقا يتحدثان عن مؤتمر المبعوثين. كُنت أرى

في عينيْ «حمزة» خيبة أمل، تسبب فيها غياب «صلاح». كانت شاشة القناة ٥ تعرض طوابير العربات العسكرية التي تنقل الجنود داخل سيناء، وهم يهللون بأيديهم ويهتفون. في طريق إيابنا من بيت «عبد المُعطي»، سألتُ «حمزة»:

ـ مالك مش مبسوط ليه؟

ـ مِش عارف!

ـ عشان ما قابلتش صلاح؟!

ـ مش عارف!

تواصل أخبار التصعيد المتسارع بيننا وبين إسرائيل. أصبحت زميلتي في المكتب «هناء» تشتري جريدة «الأهرام» من مالها الخاص! تجلس أمام مكتبها، وتدفن رأسها في الصحيفة. جريدة اليوم، تشغل نصفها الأعلى مانشيتات سوداء وحمراء عن لقاء «الرَّيِّس» باتحاد العمال العرب:

«عبد الناصر يتحدث عن احتمالات الحرب

إذا هاجمتنا إسرائيل في أي مكان، فسوف نهاجمها في كل مكان.

لن تكون الحرب إذا بدأتها إسرائيل محدودة، وسوف نقوم بتدمير إسرائيل تدميرًا كاملًا.

طائراتنا استكشفت الأرض المحتلة ورصدت احتشادات

العدو ضد سوريا، وقررنا أن نتحرك.

لقد انتظرنا إحدى عشرة سنة، وكنا نبني قوتنا ونستعد ليوم نتكلم فيه، ونستطيع أن نتحمل مسئولية ما نقول».

تاريخ اليوم هو ٢٧ مايو، والصُّحف تمتلئ بإعلانات التأييد والدعوة للحرب. تَقلِب «هناء» الجريدة، فأرى إعلانًا ضخمًا على الصفحة الأخيرة يشغلها بالكامل. صورة «عبد الناصر» رافعًا يده على علم «الجمهورية العربية المتحدة» ذي النجمتين الخضراوين. ثلاث كلمات ضخمة مكتوبة بأكبر بُنط ممكن: «**جاء اليوم الموعود**». كان التوقيع في أسفل الصفحة للبنك المركزي المصري، وأسماء البنوك التابعة له. لم ينسَ مُصمِّم الإعلان أن يضع صورة لجندي وسيارة لوري كبيرة. قلبي منقبض رغم أن الصُّحف تُهلِّل وتنتظر الحرب على أحَر من الجمر.

أكاد أشم رائحة البارود بأنفي كُل يوم. تُراودني يوميًّا فكرة أن أذهب إلى منظمة الشباب، وأتطوع في الدفاع المدني. لا يفارق أذن أبي «إدريس» الراديو الترانزستور. يُتابع الأخبار بلهفة، بل بجنون. أحببت أن أشاكِسه، فسألته:

ـ إيه رأيك؟ هنكسب الحرب؟!

ـ على حسب.. لو هنكون جد، هنكسبها. ولو بالأغاني هنخسرها بالتُّلت.

أسمع أغنية «محمد رشدي» الأخيرة في الشارع. أُغنية

طريفة للغاية، بها كثير من الطرب، وخفة الدم المصرية. أغنية تصلح للأفراح والليالي المِلاح:

«يا أبو خالد يا حبيب بكره هتدخل تل أبيب

تفرح يافا وتقول حيفا

نصر من الله وفتح قريب

يا أبو خالد، يا أبو خالد، يا حبيب».

اليوم هو الرابع من يونية، في طريقي لمقابلة «حمزة» في كازينو «مصر والسودان» بالقرب من ميدان العباسية، رأيت مظاهرات صغيرة تطالب بالحرب، وتتوعد الصهاينة. اقتربت من «ميدان التحرير»، فوجدت ضجة ودخانًا. احتشد المواطنون ليشاهدوا مناورة لقوات المقاومة الشعبية. نيران مشتعلة في أجزاء من الميدان، ودُخان يغطي مبنى «الجامعة العربية» وفندق «النيل هيلتون»، وطلقات رصاص فشنك تُطلق من فوهات بنادق في أيدي متطوعين منبطحين على الأرض. توزعت أكياس الرمل في صفوف متراصة، ومن ورائها ظهرت سناكي بنادق بدائية. أطلق أحد الرِّجال المتفرجين صوتًا قبيحًا من أنفه، والتفت إليَّ هامسًا:

- هُمَّ ناويين يسيبوا الصهاينة يدخلوا ميدان «التحرير»؟!

أطلق بعض النسوة في الملابس البلدية زغاريدهن. أيقنت بأنني لن أستطيع أن أستقل حافلة إلى ميدان

«العباسية»، فسرتُ مُسرعة في اتجاه شارع ٢٦ يولية. رأيتُ عروستين من قماش معلقتين في مشنقتين على عمودي إضاءة. كلتاهما ترتدي أفرولًا. الأولى مكتوب على ساقها اليمنى «إسرائيل»، وعلى الساق اليُسرى «أشكول». بينما يتدلى لسانها، وتكاد نظارة طبية تسقط من فوق أنفها. تبدو العروسة الثانية حليقة الذقن، وعلى صدرها علم «الولايات المتحدة الأمريكية». وقف المواطنون يبتسمون، ويشيرون في حبور إليهما. اخترقتُ أحد الشوارع الجانبية، لأجد نفسي في شارع «الألفي»، وأستقل التروللي باص إلى «العباسية».

وجدتُ «حمزة» تحت شجرة، ينتظرني في الكازينو. لم يعُد الحديث مع حمزة ممتعًا. عيناه مطفئتان، ولم تعودا تشعان ذكاءً كما كانتا من قبل. أتحدث معه وأشعر بأنه في مكان آخر. اليوم أحسست بأنه صندوق مُغلق، غطاؤه موصد بألف قفل. نظرت في سواد عينيه، فأدركت أنهما بئران بلا قرار. فكرتُ، وقررتُ. انتهت قصتنا. لا يَهم السبب، ولا المسئول عن فشلها. نهاية حزينة، ومُفزِعة.

عندما قابلت «عبد المُعطي» في يوم الثلاثاء في أثناء ثورة يناير، توقعتُ أن أجِد «فاتن» معه. صدمتني نهاية قصتهما. لكنني أدركت أن قصتي أيضًا قد انتهت منذ زمن طويل مع «حمزة»، فلماذا أستنكر طلاقهما؟! كان يومًا للمفاجآت، فمن يتوقع أن يُصادق حفيدي حفيدته؟! صحيح أن الدُّنيا صغيرة. لكنني لم أتوقع أن تكون بهذا

الصِّغر. أشعر بأن شبابي يعود، وأحس باخضرار يغزو قلبي. الناس تملأ الميادين والشوارع والمُدُن. مِصر تنتفض، ومعها أنفض كل الحزُن والكآبة اللذين عايشتهما من قبل.

عندما أُعلِن تنحي مبارك عصر يوم الجمعة ١١ يناير، رقص الميدان فرحًا. وفي لحظات تدفقت سيول البشر إلى الميادين. لم تكن مفاجأة أن أجد الوطنيين الحقيقيين والانتهازيين جنبا إلى جنب. تشبثت ببلوفر «الصيرفي» من ظهره؛ خوفًا من أن يدهسني طوفان البشر. امتلأ الميدان بملايين حتى آخره، فأصبحت الحركة فيه مستحيلة. قررتُ مع «الصِّيرفي» الخروج من الميدان. خلال نصف ساعة، استطعنا الوصول بصعوبة إلى ميدان «طلعت حرب». اكتشفتُ هُناك أن حقيبة يدي مفتوحة، وأن نشالًا قد سرق محفظتي. حاولت الاتصال بمحمول حفيدي «أحمد»، فوجدت شبكة المحمول قد تعطلت. أبلغني «الصِّيرفي» أن الجميع يتحدثون عبر تلفوناتهم، وأنه من المستحيل إجراء مكالمة الآن. جلست معه في مقهى منزوٍ في أحد الشوارع الجانبية. نظَر إليَّ بوَلهٍ قائلًا:

- انتصرت الثورة يا كريمة! وَعدِك بالزواج بيَّ لازم يتحقق.

ضحكتُ غير مُصدِّقة. قلت له:

- هو إنت صَدَّقتْ ولا إيه؟

- طبعًا، هو كان لِعب عيال؟!

في تلك اللحظة، أدركتُ أن «الصِّيرفي» قريب جدًّا من قلبي. كنت ألاحظ اقتراب حفيدي «أحمد» الحثيث منه في أثناء مكوثنا في الميدان. أغمضت عينيَّ، وقلت له بصوت خافت:

- موافقة، أنا موافقة!

صرخ كطفل:

- يا دين النبي!

القاهرة في سبتمبر ٢٠٢١

شكر خاص للأصدقاء

- الكاتب الصحفي الكبير محمد العزبي،
- الأستاذ المناضل محمد عبد الرسول،
- الأستاذ الكبير المرحوم عبد الغفار شكر،
- الأستاذ المؤرخ الدكتور محمد أبو الغار،
- الأستاذ أحمد زكي عثمان الكاتب الصحفي.
- ولكل من قرأ مخطوطة الرواية وأبدى ملاحظاته.

---

(1) من تحقيقات قضية انحرافات المخابرات، ومذكرات حلمي السعيد «شهادتي للأجيال» - دار المستقبل العربي ١٩٩٩.

(2) «إندِي» تعني أمي باللغة النوبية.

رواية تحكي عن زمن أحلام هائمة. ثلاث سنوات سبقت يونية ٦٧، مليئة بالأحداث وحبلى بالقادم. حكاية كريمة وحمزة وعبد المعطي، بل قصة مصر كلها!

◆ ◆ ◆

«بدأت حواراتنا تتناول موضوعات تتعدى مجالي العشق واللهجة المصرية، وتغوص في عالم السياسة والاقتصاد. في أحد اللقاءات بدت «باولا» ملاكًا أبيض، بعد أن أخذت دشًّا باردًا. جلست أمامي على الجانب المقابل من طاولة الطعام المستديرة الصغيرة في الإستوديو الذي تعيش فيه. سألتني موجهة نظراتها نحو عيني: همزا، أنت ذكي جدًّا، ألا تريد أن تعمل في مؤسسة استشارات أمريكية؟».

حمزة النادي

«هول المفاجأة لجم ألسنتنا؛ فتوقفت المناقشة. إنه هو بشحمه ولحمه، «عبد الناصر» بابتسامته الواسعة وفوديْه الأبيضيْن. خلع نضارته الشمسية، وأشار بأصابعه للرجال الغرباء الأربعة ليخرجوا من الخيمة. غادروا الخيمة، ولكن لم يغادرونا. وقفوا خارجها، وفكوا الجزء الأعلى من قماش أضلعها الأربعة عن سقفها. تكونت نافذة لا يتعدى عرضها خمسين سنتيمترًا. ظل الحراس الشخصيون ينظرون إلينا من خلالها».

كريمة عثمان

«فوجئت بمدير التحرير يهمس مقرِّبًا رأسه من سطح المكتب:
- ماخدتش بالك من الحمام اللي طار إمبارح في أغنية عبد الحليم؟
- أخدت بالي طبعًا، واضح أن الأغنية كانت كلمات، ولحن، وغناء، وإخرج كمان!
- لا، بسلامته «حليم» خلّى ابن خالته يجيب قفص حمام، ويطيره في سما نادي الضباط في نص أغنية «صورة»! اللي إنت ما شفتهوش بقى، لما نزل رجالة الحرس الجمهوري اللي مستخبيين في الشجر بتاع النادي وقبضوا على ابن خالة «حليم»».

عبد المعطي سلام

د. إيمان يحيى: كاتب وروائي مصري، يعمل في إحدى كليات الطب بمصر. صدرت له روايتان: «الكتابة بالمشرط»، و«الزوجة المكسيكية» التي فازت بجائزة ساويرس الثقافية، فرع كبار الأدباء، كما وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية.

9 789770 937532
t.me/twinkling4
دار الشروق
www.shorouk.com